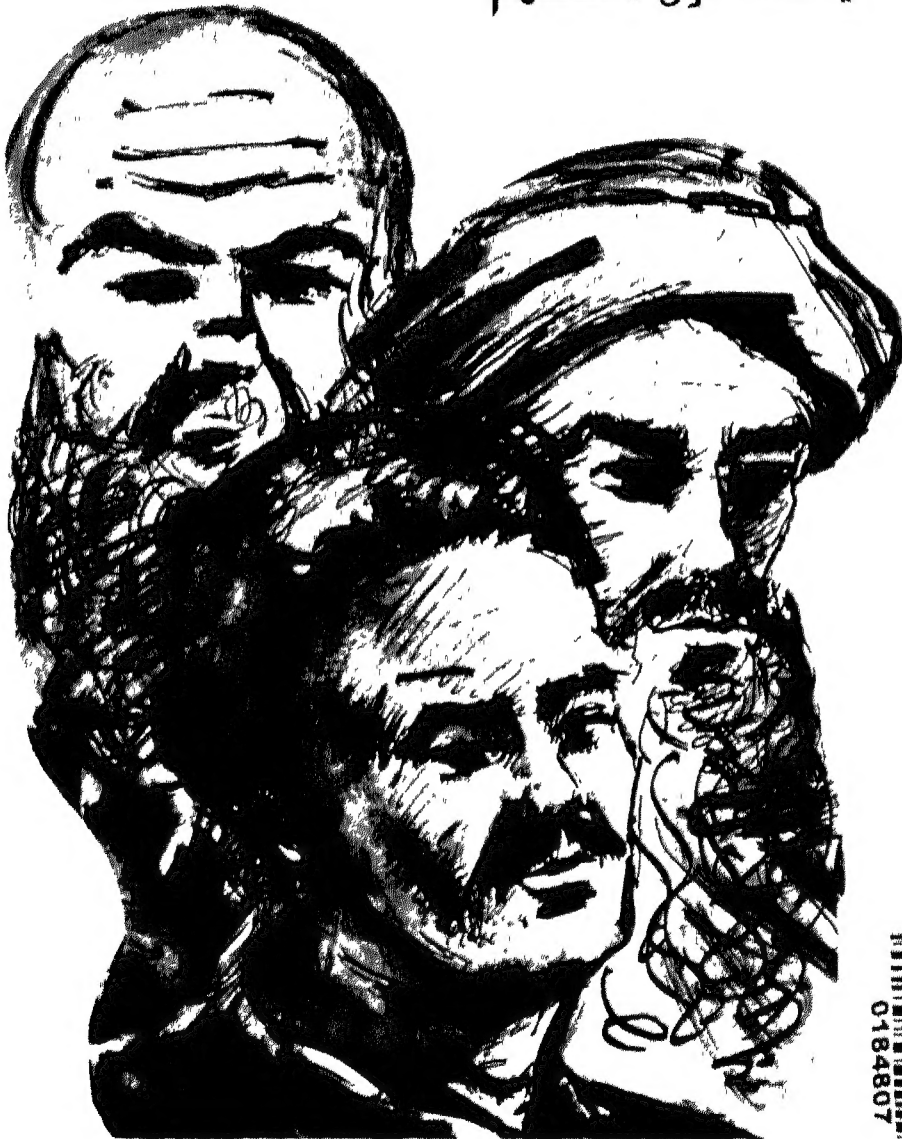


فوزي معروف

هكذا

يظنّون أنفسهم





فوزي معروف

هكذا  
يظنون أنفسهم

شخصيات ومواقف

عن منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٧

الحقوق محفوظة  
محمولة  
لاتحاد الكتاب العرب

تصميم الغلاف للفنانة . وجدان دبركة

إهداء :

إلى.....

سُلاف

و

عمر..

و أبناء جيلهما ..

~~~~~



## "مدخل"

### صناعة النفس !!

#### ماذا تعني؟

المعروف في لغتنا العربية، أن صانع نفسه هو "العصامي" وهذه الكلمة منسوبة إلى "عصام" حاجب النعمان وصارت تعني الشخص الذي يشير بنفسه لا بأبائه ولعل ذلك كان أصل القول الشائع "كن عصامياً لا عظامياً" أي - اصنع بنفسك مثل عصام ولا تتكل على مجد الآباء الذين صاروا عظاماً ..

كما أن بيت الشعر العربي الشهير يشير إلى عصام هذا حين يقول :

ونفيسُ عصامٍ سويتُ عصاماً      وعلته الكرو الإقداما

وكلمة "عصامي" هذه تُقابل في اللغة الإنجليزية "صانع نفسه" Selfmade وفي اللغة الفرنسية "ابن عمله".

...

كل عامل جاد في اختصاصه هو صانع لنفسه وكلُّ مَنْ يستطيع التفوق في ناحية ما من النشاط الإبداعي الإنساني الاجتماعي يمكن أن يصير من العظماء إذا اتجه للإبداع في هذا النشاط ورغب فيه .

قد يكون العامل رائداً اجتماعياً إذا أدرك في نفسه ناحية يتميز بها، ويعمل على استغلالها .. كما قد يكون السرايع والطبيب المعلم والفسان وغيرهم .. إذا عرف كلٌّ منهم تلك الميزة وركز جهوده لخدمتها، خاصة أنه في العصر الحديث تغيرت الظروف التي تحوط بالفكر الإنساني نتيجة الثورة الشاملة في كل ما يتعلق بحياة الإنسان وفكره .. إذ مال الناس في القرن العشرين إلى الإيمان بالصفات المكتسبة، والتي صارت في الغالب هي التي تحدد لنا منزلتنا أو حظنا في الحياة مما صنعناه بأيدينا، بعد أن كانوا في القرون الماضية يميلون إلى الإيمان بالوراثة على أنها القدر، الذي يَعيّن لنا حظنا في الحياة. وما ورتناه من كفايات عن الآباء والأجداد ..

....

ليس العظماء في هذا الكتاب من نوع واحد في المعرفة فبعضهم مبدع في الأدب، وبعضهم عالم أنفذ البشرية من بعض آلامها، وبعضهم فيلسوف أنار بأنكاره بعض الروايات في الفكر .. التقوا جميعاً على هدف نبيل: هو خدمة الإنسان والإنسانية .. والتقوا جميعاً على الطريق للوصول إلى هذا الهدف، وهو " العمل .. ثم العمل " فصاروا عظماء خالدين .

قد يختلف الناس على مستوى الإبداع عند هذا أو ذاك كما قد يختلفون حول بروز الفروق الفردية بين هذا المبدع أو ذاك .. والكتاب حاول أن يتجاوز ذلك بقدر ما حاول التركيز على الخط الجامع بينهم وهو القدرة على صنع النفس في ظروف قاسية كانت في معظمها غير مؤاتية ..

\*\*\*

قد يتبادر إلى ذهن القارئ الكريم أن هذا الكتاب يركز على دور الفرد - الذاتي - ويغفل دور الواقع الموضوعي إيماناً منه بأن الأعمال الإبداعية هي نتاج مبدعين أفراد، وإن كان الإبداع نفسه جزءاً من الحياة الاجتماعية .. ومن ثم ليس في مقدور أية عبقرية فردية أن تخلق مثلاً تباراً أو مرحلة فنية، بل قصارى ما تفعله العبقرية الفردية أن تدمج بطابعها الفردي مرحلة من المراحل ذات المصدر الاجتماعي، فالمبدع لا يمكن أن يعبر عن مجتمعه وعصره إلا إذا كان نمتاً تفاعل وتأثير إيجابي، بين " أنا " المبدع، و " نحن " المجتمع .. لأن الإبداع الحقيقي دائماً يكون من أجل الآخرين ( المجتمع ) يلاحظ المرء أن الكتابات الحديثة، قد بالغ بعضها في إكبار دور الجماعة والبيئة وأضاف كل شيء إليها . وأنكر دور الفرد .. وإذا ذكر فعلى أنه أداة من الأدوات ليس له قوة ولا عمل ولا إرادة.

كما يلاحظ أن بعضها الآخر قد بالغ - بالعكس - في دور الفرد فأعطاه كل شيء، وألغى دور المجتمع والبيئة كما ألغى السابقون دور الفرد .

وهؤلاء مخطئون كما أخطأ أولئك لأن الفرد قوة قد تكون عظيمة الأثر أو ضئيلة، لكنها تبقى قوة لها أثرها في تكوين قوة الجماعة .. فليس من الموضوعية أن نجعل الفرد كل شيء ونهمل دور المجتمع، ولا أن نهمل دور الفرد لنعطي كل شيء للمجتمع .

..

إن الصلة العامة التي تجمع هؤلاء، هي الإيمان بقدرة الإنسان على تجاوز نفسه دائماً والإيمان بتقدم المجتمع .. وأن عمل الإنسان الخلاق، هو صانع العبقريات الخالدة .. وليس فيهم واحد اعتمد على " الإلهام " فقط في إبداعه وخلوده .. وإن اعترف بعضهم بوجود " الإلهام " فهو اعتراف على طريقة " فلوبير " الذي قال: " الإلهام يعني أن تتجسس إلى منضدة العمل " الكتابة " كل يوم وفي نفس الساعة "



كما أن القاسم المشترك الذي يجمع هؤلاء، هو تغلب الإرادة والعزم، على أي عامل آخر في حياتهم بحيث يُحسُّ القارئ لأعمالهم والدارس لحياتهم، بأنهم صنعوا عبقرياتهم بأنفسهم، كما يشعر أنهم لا يكادون يملكون موهبة من نوع تميزهم عن غيرهم من البشر العاديين، وأن موهبتهم كانت ثمرة إرادتهم واستمرارهم في العمل، وهنا تتحلى عظمتهم الإنسانية .. ففي حياة كل واحد منهم، نجد نافذة تدخل منها إلى نواحي العظمة عنده .. كما نجد في جواب كل واحد فيهم عن سؤال حول حياته، أو قد نجد الجواب في حياته نفسها، أو في بعض أعماله .. نجد أن العظمة كامنة في إرادة الإنسان عندما يعقد العزم على أن يكون عظيم الأثر، ولعل الشاعر العربي قصد إلى هذا المعنى حين قال:

والنفس راغبة إذا رغبتها      وإذا تردت إلى قليل تقنع

وكان المتنبي غير بعيد عن هذا حين قال:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم      وتأتي على قدر الكرام المكارم

إن الغاية من وضع هذا الكتاب، هي إنعاش شعور أن نعيش الحياة في عملٍ وتعلم، واستنطار كامل للوقت الذي تنقضي إهداره ..

هذا في الوقت الذي لا تزعم فيه صفحات الكتاب أنها تقدم "وصفة لـ ((كيف يصبح الإنسان عظيماً ؟)) وإنما أحد الأهداف المنشودة أن تشير إلى درب العظمة عند هؤلاء الذين ورد ذكرهم، لأن من علامات النضج في الإنسان أن يفيد من تجارب غيره ليختصر الكثير من الوقت الذي يمكن أن يهدره وهو يجرب هذا ويقلع عن ذلك .. وأن الإنسان لا يحتاج أن يكون موهوباً، خارق الذكاء كي يكون عظيماً، وإنما يكفي أن يكون ذا قلب يقظ، وضمير حي، وإرادة مصمتة، يشعر أن الحياة لا تكون حياته حقاً، إلا إذا أنفقت في عمل متصل من أجل الحرية والحق والعدل، وهنا يضئ قول " فيعته " : " .... أما أن تكون حراً فهذا لا شيء وأما أن تصبح عظيماً فهذا كل شيء " لأن الإنسان الحقيقي هو مخلوق العمل والإرادة .

كما يطمح الكتاب، أن يكون في حياة كل واحد من هؤلاء ضوء للشباب الذي لا يرضى من حياته أن يكون ضيقاً أو مستأجراً في هذه الدنيا .

ولا يُريد الكتاب أن يقول: إن الإرادة والعمل، يحققان المستحيل بل يريد القول انهما يحققان الممكن ولا حدود مرئية لهذا الممكن الذي يمكن أن يصل إليه الإنسان .

إن أحد طموحات هذا الكتاب أن يحفز القارئ إلى آثار الذين ورد ذكرهم، وآثار غيرهم، لأن أي كتاب مهما كان لا يستطيع - وإن حاول - قول كل شيء عن واحدٍ من هؤلاء .

اتفق الناس أن تاريخ الرجال العظام، هو خير مدرسة للناس .. وفي سيرهم دروس عظيمة الفائدة تدفعنا دائماً إلى الأمام .

والرجال العظام لا ينحسرون في مجال واحد من مجالات الحياة بل هم كما يقول " فولتير " : " مَنْ وفّرنا السعادة للبشر وهدوا الناس سُبُل الحرية، ودعوا إلى ما يحقق المثل الإنسانية العليا " .

لم يتبع الكتاب الطريقة العادية - تعاقب الأزمان- وهو يتحدث عن بعض الذين صنعوا أنفسهم، لا فيما بينهم كأفراد، ولا في تسلسل أحداث حياتهم، ولكنه اتّخذ من حمل حياة كل واحد فيهم المواقف المضيق التي برز فيها دور الإرادة والقدرة على العمل المتواصل في جعل الحياة أكثر ثراءً وعطاءً .

تلك المواقف التي توضح ملامح الشخصية - موضوع الحديث - بقدر يكفي أن يجعل منها حافزاً نحو الصعود - إن لم ينجح في أن يجعل منها قدوة ومثلاً .

ليس القصد عرض الحياة في تناوبها الزمني، وإنما القصد، التقاط تلك اللحظات العادية التي تبدو عند الكثيرين أنها لحظات نادرة لا يملكها إلا الموهوبون من بني البشر .

الكتاب محاولة لأن يرسم لمن ذكرهم صورة فيها: شجاعة في المواقف، شجاعة في الرأي وصلت حدّ الاستشهاد في سبيله، صلابة على المبدأ، إلى حد التضحية بالحياة من أجله ...

وشجاعة في الصبر على قسوة الظروف الذاتية والموضوعية المحيطة كما الشجاعة في الإرادة والعمل المتواصل من أجل الوصول إلى الهدف المرسوم .

وإذا كانت الصورة تبدو غير كافية هنا وهناك فإنها تبقى على أية حال صورة بوسع المرء إذا أراد أن يكملها وأن يسعى لذلك بنفسه .

وأحد الأمور التي يجاولها الكاتب، أن يضع القارئ أمام عدد من الأسئلة: كيف نتصر على عوامل التثبيط واليأس في حياتنا ؟ كيف تتجاوز الفشل ؟

كيف نتعلم الهدوء والصبر ونحن نحاول أن نقدّم شيئاً من أجل الآخرين، كيف نعود أنفسنا أن يكون لنا في حياتنا نعمل من أجله كي نبرر وجودنا الفاعل ؟

ولعل ما يريده الكتاب يوجزُ بكلمات .

يبقى النبوغ - أو صنع النفس - ظاهرة اجتماعية فردية لم تستطع أكثر الظروف ظلاماً وقهراً أن تمحوها أو تحطّ من قدرها، وسوف يبقى الشاغبون - صانعوا أنفسهم - مشعلاً يُضيء الدرب نحو التقدم في العصور كلها .

**المؤلف**

الباب الأول: من أعلام العرب

الفصل الأول:

أعلام قدماء



## عمر بن الخطاب ( ٥٨٦ - ٦٤٤ م )

### " مثلاً استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " ؟

إنصافاً للحقائق وضع الدكتور "مايكل هارت" في كتابه عن " المائة الأوائل " في تاريخ البشرية ، وضع النبي محمد صلى الله عليه وسلم - على رأس هؤلاء الأوائل - أي أنه أعظم رجل أنجبته البشرية ، بينما جاء ترتيب " عمر بن الخطاب " الواحد والخمسين أي أنه كان على رأس الخمسين الثانية بين الأوائل ، وهما الوحيدان من العرب في هذا الكتاب الذي صدر في نهاية سبعينيات القرن العشرين ..

وإذا كنا نقدر للمؤلف الأمريكي موضوعيته ، ونزاهته التي وضعت النبي صلى الله عليه وسلم في مكانه اللائق .. فإننا نأخذ عليه ترتيبه للخليفة عمر بن الخطاب ، حيث وضعه خلف كثيرين ممن يجب أن يأتوا بعده في الترتيب

### عمر بن الخطاب .... لماذا ؟

لأنه كان رائداً في أكثر من مجال من مجالات الحياة المتجددة ولأنه كان عظيماً أينما كان موقعه ولأنه القوي الذي يحسب حسابه أينما كان .. فحين كان عمر على الوثنية حمل المسلمون وهم قلة - دينهم إلى دار الأرقم ، حيث يعبدون الله خفية وحين صار عمر إلى الإسلام ، كان إسلامه عاملاً حاسماً في الجهر بالدعوة ، ونبذ التخفي والمداورة .. عندئذ يذهب إلى الرسول فيقول : " بأبي أنت وأمي يارسول الله ألا إننا لا نعبد الله سراً بعد اليوم .. استجاب الرسول ( صلعم ) لدعوته فخرجت الدعوة إلى الإسلام إلى أرض الله الواسعة ومن أجل ذلك أطلق الرسول عليه السلام لقب " الفاروق " بعد أن فرق بإسلامه بين الحق والباطل ، بين العلانية والمواجهة ، بين السر والعلن .

هذا وقد أرخ عمر يوم ميلاده ، الروحي باليوم الذي صافح فيه الرسول ( صلعم ) وقال : " أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " .. وهو اليوم الذي وجد فيه نفسه والتقى بمصيره العظيم ، كما يقول خالد محمد خالد : "

## عمر رجل المزايا المتعددة

لو كان هناك رجل يجب أن يتسلط عليه الغرور لكان عمر بن الخطاب، لكثرة مزاياه، وروعة أمجاده وانتصاراته ..

فهو يدخل الإسلام في حفاوة بالغة من الرسول وصحبه ..

ويتحول الإسلام إلى دين جهري الصوت، صادق الكلمة في اليوم الذي آمن فيه، وصار المسلمون يواجهون أذى المعارضين في شموخ بعد أن كانوا يستخفون من طغاة مكة ..

كثيرة هي المنافذ التي يمكن أن ينلذ منها الغرور .. ومع ذلك لا يكاد يعرف العرب والمسلمون - بعد عمر - نفساً امتنعت عن الغرور وتكسرت أمام حصونها المنيعه ككل محاولاته مثل نفس هذا الرجل - عمر بن الخطاب - الذي يعلل سبب ذلك بقوله: " لقد كنا ولسنا شيئاً مذكوراً حتى أعزنا الله بالإسلام، فإذا ذهبنا نلتمس العزة في غيره ذللنا" (١)

وإذا كان الاعتماد عن الغرور أول مزايا عمر، فإن فهم الطبيعة البشرية ثاني مزاياه العظيمة، وللدلالة على ذلك نسوق بعضاً من أقواله . يقول ذات مرة " الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم " ويقول واضعاً ميزاناً دقيقاً للتعامل مع الناس: " أحبكم إلينا قبل أن نراكم أحسنكم سيرة، فإذا تكلمتم، فأبينكم منطقاً، فإذا اختبرناكم، فأحسنكم فعلاً " (٢)

كما أن عمر هو الذي أعلن: " إن الفضيلة ليست هي الإنسحاب من الحياة خوفاً من الفتنة، بل إن الفضيلة هي مجابهة الحياة ومغالبة الفتنة "

وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو - لأول مرة - الآية الكريمة التي تقول: " أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً نسّم إلينا لا ترجعون "، أدرك يومئذ أن سنوات عمره القليلة لن تغني عنه شيئاً وأنه بحاجة إلى ألف حياة مثلها كي يستطيع أن يصنع ما يُرضيه، وكي يستطيع أن يعبد ربه وأن يشكره ..

## مدرسة عمر ..

يكاد يكون بحكم المؤكد، أن كل عظيم، اقترب - تعلّم بطريقة مامن مدرسة عظيمة أثرت فيه، والمدرسة التي تربي بهاعمر فترة من حياته هي مدرسة الرسول العربي صلى الله عليه وسلم، حيث عاش عمر هذه المدرسة، وتعلّم منها الكثير .. مثلاً:

عرف الناس أن الله سبحانه وتعالى غفر لرسول الله . اتقدم من ذنبه وماتأخر فقال له كثيرون: لِمَ يارسول الله تقضي ليلك متعبداً ونهارك صائماً ومجاهداً " فيجيب عليه الصلاة والسلام:

”أفلا تكون عبداً شكوراً؟“

كان ذلك قدوة لعمر الذي بشره رسول الله بالجنة ومع ذلك استمر دائم الخشية،  
والحذر والحياء، اقتدى وتعلم كان يخاف وكأنه على وشك أن يقع بالخطأ ..

ومما تعلمه عمر من هذه المدرسة العظيمة حين سمع رسول الله يقول لأحب الناس  
لابنته فاطمة البتول: ” يا فاطمة إن في المسلمين من هم أحوج منك بهذا المال “ .. ثم  
يحرّمها ويُعطي سواها ..

. وسمع بأذنيه و رأى بعينه أعرابيا يقول لرسول الله وهو بين أصحابه: ( أعطني  
فليس المال مالك، ولأمال أبيك ) ، ابتسم رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يقول  
لرجل: ” صدقت إنّه مال الله “ .

استفّر المشهد عمر بن الخطاب، وهم ليبطش بالأعرابي، ردّه رسول الله برفق، وقال:  
” دعه يا عمر إن لصاحب الحق مقالاً “ .

إنها مدرسة الديمقراطية والمساواة بأروع صورها التي وضع أسسها الرسول ( صلعم )  
حين قال وهو يحكم على امرأة من بني مخزوم كانت قد سُرقت: ” إنّما أخلّك الذين من  
قبلكم إنهم إذا سرق منهم الشريف تركوه، وإذا سرق منهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والله  
لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت محمد يدها “ ..

مدرسة الجهر بقول الحق، تعلمها الناس من الرسول الكريم حين سمعوه يقول: ” قل  
الحق ولو كان مرأاً “

مدرسة رفض المنكر وتغييره بمختلف الأساليب: ” من رأى منكم منكراً فليغيره بيده،  
فإن لم يستطع فليسلّمه، فإن لم يستطع فلينبه، وذلك أضعف الإيمان “ ..

### مواقف في حياة عمر ..

عظمة الإنسان بمواقفه أو يمكن القول: العظمة مواقف وإلاّ من أين يمكن أن نتلمس  
جوانب العظمة ؟

كانت حياة عمر سلسلة من المواقف المجيدة في العدل، في الحكمة، في التواضع، في  
إبعاد النفس عن كل ما يشينها .. ليس أول المواقف أمنيّة ” ابن الخطاب “ أن يظل ” عمر  
” لا غير ، لا هو خليفة، ولا هو أمير.... فحين اقتربت الخلافة منه بعد وفاة رسول الله  
صلى عليه وسلم بسط إليه أبوبكر الصديق يمينه في اجتماع السقيفة قائلاً: ”هات يدك يا عمر.

نبايع لك " لكن عمر خلص منها ناجياً إذ قال: " إياك نبايع فأنت أفضل مني " .. قال أبو بكر: " أنت أقوى مني يا عمر "

ردَّ عمر: " إن قوتي لك مع فضلك "

وسارع فمَدَّ يمينه وبايع " أبا بكر " وبايعه الناس على أثره وحين كان أبو بكر يودع الدنيا ويعهد بالخلافة لعمر تقبلها مكرهاً وكارهاً إمارة المؤمنين ، ولولا شعوره بالهرب من واجب المسؤولية في ظرف دقيق لرفض السلطان وهرب من الإمارة .

كان عمر يُحَمِّلُ أهله من المسؤوليات أضعاف ما يَحْمِلُهُ نظراؤهم من الناس ، حتى صارت القرابة من عمر عبئاً يرغب الأقرباء الفرار منه .. وكان إذا سَنَّ قانوناً ، أو حظر أمراً جمع أهله أولاً وقال لهم: " إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا إن الناس ينظرون إليكم ، كما ينظر الطير إلى اللحم ، إن وقعتم وقعوا ، وإن هبتم هابوا إني والله لأوتي برجل منكم وقع في مانهيت عنه إلا ضاعفت له العذاب لكانه مني فمن شاء منكم فليتقدم ، ومن شاء فليتأخر " ..

يدخل عمر يوماً على دار ابنه عبد الله فيجده يأكل شرائح اللحم فيغضب ويقول له: " ألائك ابن أمير المؤمنين تأكل لحماً والناس في خصاصة ! ألا خبزاً وملحاً ألا خبزاً وزيتاً " ..

و حين اشترى ابنه عبد الله إبلاً لتسمينها وبيعها للتجارة عتب عمر بهتكم لاذع: " .ويقول الناس حين يرونها .. ارفعوا إبل ابن أمير المؤمنين ، واسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ، وهكذا .. تسمن إبلك ويربو ربحك يا ابن أمير المؤمنين ! ! "

ثم صاح به :

" يا عبد الله خذ رأس مالك الذي دفعته في هذه الإبل واجعل الربح في بيت مال المسلمين .. " .

- يقول الأحنف بن قيس: " كنتُ مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل وقال: " يا أمير المؤمنين، انطلق معي ساعدني على فلان فقد ظلمني..رفع عمر " درته "فضرب بهارأس الرجل وقال: " تتركونني عندما أكون بينكم، وتطلبونني حين أكون مشغولاً بأمور المسلمين؟! " "

انصرف الرجل غضبان آسفاً ...

فقال عمر: " علي بالرجل .. " وحين عاد ناوله " درته " وقال له: " خذ واقتص لنفسك " ، وقال الرجل: " لا والله ، لكنني أدعها لله "



وانصرف عمر إلى بيته وجلس يحاسب نفسه، ويقول: " ابن الخطاب كنت وضعياً فرفمك الله، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعين بك فضربتته، فماذا تقول لربك غداً ؟؟ " ..

—رآه الناس يعدو وراء بعير أفلت من مكانه .. يلقاه: " علي بن أبي طالب "، فيسأله: إلى أين يا أمير المؤمنين ؟ فيجيب: : بعير نذ من إبل الصدقة أطلبه " !! يقول له عليّ كرم الله وجهه: لقد أتعبت الذين سيجيئون بمدك ؟ فيجيبه عمر بكلمات هي:

" والذي بعث محمداً بالحق لو أن عنزاً ذهب بشاطئ الفرات لأخذ عمر بها يوم القيامة " .

— كان عبد الرحمن بن عوف يرافق عمر في تفقد أمر قافلة تجارية . كان ذلك آخر الليل ، جلسا قرب القافلة النائمة يحرسان ضيوفهما . سمعا صوت بكاء صبي .. انتظر عمر أن يكفّ الصبي عن البكاء لكنه تمادى .. أسرع صوب الصوت ، قال لأمه: " اتقي الله واحسني إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه ، عاود الصبي البكاء، هرول عمر نحوه ونادى أمه : " قلتُ لك أحسني إلى صبيك " ، وعاد إلى مجلسه ، ولكن زلزلة مرّة أخرى بكاء الصبي، فذهب إلى أمه وقال لها: " ويحكك إنني لأراك أم سوء ما لصبيك، لا يقر له قرار ؟، قالت وهي لا تعرف من تخاطب: " يا عبد الله أضجرتني إنني أحمله على الفطام فيا بى !

سألها: ولم تحمليه على الفطام ؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلّا للفطيم .

قال وأنفاسه تتواثب: وكم له من العمر ؟

قالت: بضعة أشهر .

قال: ويحك لا تعجلية .

قال عبد الرحمن بن عوف: صلى بنا الفجر يومئذ وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم قال: " يا بؤس عمر كم قتل من أولاد المسلمين ، ثم أمر مُنادياً يُنادي في المدينة :

((لا تعجلوا صبيانكم على الفطام فإننا نفرض من بيت المال لكل مولود في الإسلام " (٣).

ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته بالأمصار .

- زاره وفد من أهل ( حمص ) فسأله عن الوالي " عبد الله بن قرط " فيقولون " خير  
يا أمير المؤمنين، لولا أنه قد بنى لنفسه داراً فارهة " ..

تمتم عمر: " داراً فارهة، يتشامخ بها على الناس، ثم بعث إليه رسلاً يأتيه به ..  
وحين جاء الوالي إلى عمر امتنع عن لقائه ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع التقاه وعنفه وقال له  
مُعْتَاباً: " هل أرسلتك لتشيد وتبني، ارجع إلى عملك، ولا تعد لما فعلت أبداً."

- حين تصل شكوى ضد " سعد بن أبي وقاص " أثناء واحدة من أمجد المعارك ضد  
الفرس في " نهاوند " يستدعيه عمر فوراً دون أن ينتظر إنتهاء المعركة التي توشك أن تبدأ،  
لأن النصر - كما يؤمن عمر - لا يُحالف قائد أو جيشاً يجترح السيئات .

وفي مصر لم يشفع ( لعمرؤ بن العاص ) حاكم مصر وفاتها حين اشتكى أحد  
المواطنين على "محمد بن عمرو بن العاص " الذي ضربه بالسوط، لأنه سبقه أثناء  
السباق، ضربه وهو يقول: " خذها وأنا ابن الأكرمين "، أرسل عمر يدعو ابن العاص وولده  
محمد ..

وحين دخلا عليه، قال عمر. " أين المصري ؟ "

" أنا ذا يا أمير المؤمنين " أجاب المصري .

قال عمر: " خذ الدرة واضرب بها ابن الأكرمين، ضربه حتى أثخنه، قال عمر: أجلها  
على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه ..

قال الرجل: يا أمير المؤمنين، قد استوفيت، واشتفيت وضربت من ضربني " .

بعد ذلك التفت الخليفة إلى عمرو، وقال كلمته الشهيرة: " يا عمرو، متى استعبدتم  
الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ "

والتفت إلى المصري وقال له: " انصرف راشداً فإن رابك ريباً فاكتب لي ."

### ✳️ عمر .. والديمقراطية

" .... وأمرهم شورى بينهم "

صدق الله العظيم

كان عهد عمر بن الخطاب تطبيقاً رائعاً لماعنته هذه الآية الكريمة؛ فقد كان الخليفة  
يحني رأسه العالي بخشوع واحترام أمام كل معارضة شجاعة صادقة، حتى يمكن القول: بأن  
الشورى والمعارضة، ركنتان تميز بهما عهد عمر، الذي شهد تالق الديمقراطية بصورته ندر أن

شهد التاريخ مثلها، فما من مشكلة أو قضية ليس لها في كتاب الله تفصيل إلا عمد عمر فيها إلى الرأي والمشورة ..

ومن لوازم الديمقراطية حرية الكلام، مبدأ طبقه عمر أروع تطبيق قبل الثورة الفرنسية بقرون كثيرة إذا يدعي كثيرون أن مبدأ حرية الكلام جاء مع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م والشواهد على تطبيق هذا المبدأ العظيم كثيرة أثناء خلافة " ابن الخطاب " .

من المعروف أن واحداً من الأعراب نهض في المسجد يواجه الخليفة قائلاً له: " لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بهذا، ( ويشير إلى سيفه ) .

ومن أخبار عمر أن " حذيفة " دخل عليه فوجده مهموم النفس باكي العين فيسأله: " مابك يا أمير المؤمنين ؟ "

فيجيب عمر: " إني أخاف أن أخطئ، فلا يردني أحد منكم تعظيماً لي "

يقول حذيفة، فقلت له: " والله لو رأيناك خرجت عن الحق لرددناك إليه " .

فرح عمر واستبشر وقال: (( الحمد لله ،الذي جعل لي أصحاباً يقومونني إذا اعوججت )) .

يصعد المنبر يوماً فيقول: " يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملئت برأسي إلى الدنيا هكذا ؟ "

يشق الصفوف رجلٌ - وهو يلوح بذراعه كأنه حسام مشوق: إذن نقول بالسيف هكذا ..

فيسأله عمر: إياي تعني بقولك ..

فيجيب الرجل: نعم إياك أعني بقولي ..

يقول عمر: " رحمك الله، والحمد " الذي جعل فيكم من يقوم عوجي " ..

وكان عمر يقول دائماً: " لاخير فيكم إن لم تقولوا الحقيقة ولا خير فينا إذا لم نسمعها .. "

- يخطب عمر في الناس يوماً فيقول:

" لا تزيدوا مهر النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألتيت الزيادة في بيت المال "

فتنبض من صفوف النساء سيدة تقول: ماذا لك !!!

فيسالها: ولم ؟!

فتُجيبه: لأن الله تعالى يقول: " .. وأتيتهم إحداهن قنطاراً، فلا تأخذوا منه شيئاً، أتأخذونه بُهتاناً وإثماً مبيناً؟! "

يتهلل وجه عمر وابتسم ويقول عبارته الماثورة: " اصابته امرأة وأخطأ عمر " .  
كان عمر يجتاز الطريق يوماً ومعه " الجارود العبيدي " فإذا امرأة تناديه: " رويدك يا عمر، حتى أكلمك كلمات قليلة ... "

يلتفت عمر وراءه، يقف حتى تبلغه السيدة التي تقول وهو مصغ مبتسم: " يا عمر عهدي بك وأنت تسمى " عميراً " تصارع الفتيان في سوق ( عكاظ ) ثم لم تذهب الأيام حتى سُميت ( عمر ) .. ثم لم تذهب الأيام حتى سميت " أمير المؤمنين " فأتى الله في الرعية، واعلم أن من خاف الموت خشي الفوت " !!

فقال لها: " الجارود العبيدي ": اجترأت على أمير المؤمنين . فجذبه عمر من يده، وهو يقول:

" دعها فانك لا تعرفها، هذه "خولة بنت حكيم" التي سمع الله قولها من فوق سبع سماواته وهي تجادل الرسول في زوجها وتشتكي إلى الله فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها! "

- رأى عمر عجوزاً تحمل حملاً ثقيلاً، تتقدم منها وحمله عنها بعض الطريق، وصار يضحك من نفسه حين يسمعها تقول شاكرة: أثابك الله الخير يابني، إنك لأحق بالخلافة من عمر !!

- لاحظ عمر أن عذاب طغاة مكة يقع على ضعاف المسلمين فقط، وهنا أراد أن يرفع من شأن هذا العذاب بأن يشاركهم فيه حتى يغمرهم شعور أن عمر الجسور العملاق يُضرب كما يضربون، ويُضهد كما يضهدون حتى لا يظل اضطهاد قريش وقفاً على بلال، وجناب، وعمار، وصهيب وإخوانهم من الفقراء المستضعفين، وبهذا لا يصير ضربهم وتعذيبهم ذلة تكسر نفوسهم، وبهذا أيضاً يتم لعمر إسلامه، وتحقق له المساواة مع المسلمين الذين يدفعون ثمن إيمانهم بالله .

### جوانب متألفة

ومثلما كان عمر متميزاً بكثير من المواقف المجيدة من مختلف جوانب الحياة فقد تميز خاصة بالتشريع والقضاء بأنه رائد، على سبيل المثال " يكتب لأبي موسى الأشعري موضحاً له منهج القضاء الذي ينبغي أن ينتهجه فيقول له: ( أما بعد فإن القضاء فريضة بحكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك، وانفذ إذا تبين لك، فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له، آس بين

الناس في مجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يياس ضعيف في عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ..مراجعة الحق خير من التماس في الباطل ..."

والرسالة طويلة وتعتبر بحق مرجعاً لكثير من قضايا لتشريع .

كما تميز بالتوجيهات العسكرية الفذة حين يكتب لسعد قائلاً: " إذا وطئت أدنى أرض العدو فاذاك العيون بينك وبينهم حتى لا يخفى عليك أمرهم، واختر لهذا من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذب لا يثمنك خبره وإن صدق في بعضه، وهو عين عليك وليس عينا لك "

- لعل عمر هو أول من وضع مبدأ " من أين لك هذا " في الاقتصاد فلنسمع كيف يعبر به خربة العظيم حين يحدث سارقاً استغل منصبه في الحادثة التالية:

- لفتت نظره دار جديدة فيسأل: دارٌ من هذه ؟ فيقولون: دار فلان وهو أحد ولات عمر ، فيقول: " أبيت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها " ومثلما حمل على السرقة والسراقين، شن كذلك حملة على الكذب المكشوف فحين يسمع نائحة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها الكاذبة يناديها ويطردها ، ويقول: " إنها لا تبكي بشجوتكم إنما تبكي بدراهمكم " والعظيم في جانب غالباً ما يكون عظيماً في أكثر من جانب فقليلون هم الذين عبّروا عن خلود الشعر الصادق كما عبر عمر بن الخطاب، الذي سأل يوماً أحد أولاد " هرم بن سنان " الرجل الذي خلده " زهير " بشعره الذي قاله فيه ..

قال له أنشدني بعض ما قاله زهير في أبيك . أنشده، فقال عمر: " كان ليحسن فيكم القول " فأجابه الرجل ابن هرم: " ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء " فيقول عمر: " قد ذهب ما أعطيتوه وبقي ما أعطاكم "



## هوامش :

- ١- خالد محمد - خلفاء الرسول - دار الشروق، بيروت، كانون الثاني، ١٩٧١، ص ١٣٨ .
- ٢- عباس العقاد - عبقرية عمر - دار الكتب الحديثة، القاهرة، د/تا، ص ٥٠ .
- ٣- خلفاء رسول الله مصدر سابق . ص ١٧١

---

## المراجع والمصادر :

- ١- عباس محمود العقاد - عبقرية عمر - دار الكتب الحديثة د / تا القاهرة .
- ٢- ابن الأثير - أسد الغابة في تمييز الصحابة - الناشر - المكتبة الإسلامية .
- ٣- السيوطي - تاريخ الخلفاء - المكتبة التجارية الكبرى - الطبعة (٢) ١٩٦٩ .
- ٤- خالد محمد خالد ، خلفاء الرسول - دار الشروق - بيروت، كانون الثاني ١٩٧١
- ٥- د. مصطفى السباعي، اشتراكية الإسلام، سلسلة اخترنا لك رقم ١١٣، الطبعة الثانية-١٩٦٠ .
- ٦- جمال الدين بن الجوزي - تاريخ عمر بن الخطاب - ط٢، ١٩٨٥ .



## أبوذر الغفاري

### " ما ترك الحق لي صديقاً "

كان عمر " أبي ذر الغفاري " سبعين عاماً عندما استلم " عثمان بن عفان " الخلافة، ومع الشيخوخة في هذا العمر، لم يسكت عندما رأى العدوان على حرية المواطن وعلى ما ندعوه اليوم بالديمقراطية عموماً .

وكانت نفس " أبي ذر " مهيأة للثورة عند أي انحراف يراه، والباحث في التاريخ العربي قبل الإسلام يلمح أن بذور هذه الثورة قد نمت في ظل عذاب الفقراء، من قبيلة (غفار) خاصة والمسحوقين في ذلك المجتمع عامة، وكان هذا العذاب أول الدوافع التي أوقدت شرارة البحث عن طريق لإنقاذ هؤلاء الفقراء من الفراغ في البطون ' والوهم في العقول والأفكار .

بين استغلال الأغنياء وعذاب الفقراء، بدأ " أبو ذر " يبحث عن طريق، وكان العدل أحد أهم الأهداف عنده فحين وجده في الإسلام سارع ليكون أول المؤمنين به، ليتحقق العدل حلمه الأكبر على الصعيد الواقعي الإنساني .

هناك أكثر من حادثة شاهد فيها " أبوذر " مهانة الأصنام وفي جوٍّ مشجع من قبيلته ( غفار ) (١) . التي اشتهرت بين قبائل " كنانة " بالنشاط الديني الذي عظم قبيل ظهور الإسلام، وعُرف باسم البحث عن الحقيقة .

روي عن أبي ذر أنه كان أحد الذين تمردوا في الجاهلية، على عبادة الأصنام كي يتحولوا إلى الإيمان بخالق عظيم، لأنه كان يحمل طبيعة فوارة اكتسب معها الوعي الذي جعله يتمرّد على الباطل وكان أول باطل ثار عليه هو الأصنام .

وحين صدع الرسول صلى الله عليه وسلم بالإسلام، كان " أبوذر " من أوائل الذين وجدوا فيه تحقّقاً لما في نفوسهم، وحين آمن بالإسلام، وكان مازال ينتقل همساً، رفض الهمس وجهر بما آمن به، يتحدّى كبرياء قريش دون أن يعتمد في مكة على حسب أو نسب

---

(\*) غفار: من قبائل العرب فرع من معدّ قطنوا في الحجاز أسلموا سنة ( ٦٢٩ م ) فتحوا مكة تحت قيادة خالد بن الوليد وبايعوا لأبي بكر بالخلافة وناصروه على أهل الردّة . المنجد ص ٣٧١ .

.. تحمّل العذاب؛ حاولت قريش أن تنتقم منه ولكن كُنت عن ذلك حرصاً على مصالحها لأن قوافل قريش لا بد أن تمرّ بأرض قبيلة " غفار " في طريقها إلى الشام .

إن الصديق الجسور هو جوهر حياة أبي ذر، كان صادقاً مع نفسه حين ثار ضد الأصنام في الجاهلية، وكان صادقاً مع نفسه حين كان أول من رفع الصوت ضد الانحراف واستغلال السلطة بعد ظهور الإسلام .

لم يكن الصديق عنده فضيلة خرساء لأن الصديق إن كان صامتاً ليس بصدق عنده، إن الصديق الحقيقي جهر بالحق، وتحدّ للباطل، لذلك احتجّ وعبر عن احتجاجه بصورة لم يصل إليها واحد من معاصريه، وإن لم ينجح في الوصول إلى ما ناضل من أجله ومات وحيداً لكنه بعمله هذا ترك للآتين بعده أن يكملوا ما بدأ، وأن يتلمسوا جوانب العظمة عند ثائر وقف إلى جانب العدل، والإيمان بخالق عظيم في وقت مبكر من التاريخ العربي، وإن طالبناه بأكثر من ذلك فإننا نحمله ونحمّل عصره أكثر مما يُطيقان .

غالباً ما انتهت محاولات أخرى مشابهة إلى مثل ما انتهت إليه محاولة أبي ذر ( الرومانسية ) ولعل لهذه الرومانسية في حياة هذا الثائر على عبادة الأصنام - جذوراً تكمن في الواقع حوله ليس هنا مجال بحثها .... ومع وجود هذه ( الرومانسية ) في حياته، فقد كانت السلطة والأمراء، والمال - مال الشعب - قضايا الكبرى التي وهبها حياته لتكون مشكلته مع الواقع والمستقبل .. ولن يسكت عن الظلم لأن الساكت عنه شيطان أخرس، وذلك انطلاقاً من فهمه الواعي للآيات الكريمة التي ألزمت المواطن طاعة الحاكم عند العدل والسواء، ولم تمنعه من الاعتراض عليه إن هو خرج وصار ضد مصلحة عامة الناس .. إن مبدأ الطاعة المشروطة، كان أول من طبقه الخليفة الراشدي الأول " أبو بكر الصديق " حين دعا إلى نقد الحاكم في خطبة الاستخلاف المشهورة بقوله: " وليتُ عليكم ولستُ بخيركم "

إن من يقرأ الآيات الكريمة التي كانت مُنطلقاً لهذا المبدأ الديمقراطي المجيد، يجدها قد انطوت على بذرة العلاقة النقدية بين الحاكم والمحكوم، ورسعت الأسس المرجعية التي يعود إليها الناس عند الاختلاف ألا وهي الشريعة بوصفها القانون الأعلى للدولة على حد تعبير " هادي العلوي " .

### الحق صديق :

لا نستطيع إلا أن نتذكر المعلم الأول ( أرسطو ) حين قارن بين الصديق وبين الحق وقال كلمته الشهيرة " أحب أفلطون وأحب الحق ولكنني أحب الحق أكثر " ... لا نستطيع إلا أن نتذكر ذلك حين نرى أنها ذر يقارن بين الأصدقاء وبين الحق مفضلاً - الحق الذي



قاده منفياً إلى الصحراء قائلاً كلمته الشهيرة أيضاً: " ... ما ترك الحق لي صديقاً " .. وفي زمن كالذي عاش فيه أبو ذر أو زمن خلافة " عثمان بن عفان " خاصة أصبح القابض على عقيدته بصدق كالقابض على الجمر، حين حولت السياسة في زمن الخليفة الراشدي - عثمان بن عفان - الناس إلى ( شوك لا ورق فيه ) بعد أن كانوا في عهد أبي بكر وعمر بن الخطاب " ورقاً لا شوك فيه " .. إن الذي دفعه إلى هذا التمرد ضد السياسة في زمن عثمان هو اعتمادها عن طريق سلفيه الكبيرين إضافة إلى صدق مع النفس بغير حدود، وإيمان بهدف عظيم هو أن يسود العدل بين الناس .

لم يكن " عثمان بن عفان " محل الثقة التامة عند الخليفة الراشدي العظيم عمر بن الخطاب .. إذ لوكان كذلك لاستخلفه بعده ولكنه لم يفعل وإنما ترك أمر الذي يأتي بعده دائراً بين ستة من الصحابة، وكان عثمان بين الستة في مواجهة ( علي ) . ( ر )

لم يتذكر ( أبو ذر ) في عهد أبي بكر الذي دام حوالي عامين من ( ١١-١٣ هـ ) .. ولا في عهد ( عمر بن الخطاب ) الطويل نسبياً حيث دام حوالي عشر سنوات من عام ( ١٣-٢٣ هـ ) ...

ولكنه في عهد عثمان بحث عن العدل والديمقراطية فلم يجدها وراح يتحسس السيف، ولكن حسه الرومانسي قاده إلى إدراك أن دوره أن يعترض، لا أن يُقاتل فليس السيف وحده أداة التغيير والتقويم بل الكلمة الصادقة أيضاً .

وحين ابتعد عثمان بالسلطة عن نهج سلفيه الكبيرين وآثر ذوي القربى .. ارتفع صوت " أبي ذر " ضد هذا فاستدعاه عثمان ليقول له: " ما هذا الذي بلغني عنك يا أبا ذر أنك تحرض الناس عليّ، ولا تقرأ في المسجد إلا آياتٍ بعينها ؟ .. " فقال " أبو ذر ": " وهل في هذا تحريض ؟ أم تريد مني من قراءة كتاب الله . لقد عملت بما تعلمت ... " وصاح عثمان: " اخرج إلى الشام " وكان هذا أول نفي سياسي في الإسلام .. ذهب الشيخ الذي تجاوز السبعين عاماً إلى دمشق ليجد ( معاوية بن أبي سفيان ) والي عثمان على الشام يتصرف باستبداد مطلق ....

بدأت المواجهة بين الشيخ المنفي، وبين الوالي معاوية وتجمع الناس حول المنفي الثائر، واتسعت المواجهة ضد معاوية مع ارتفاع أصوات المسحوقين ... حاول معاوية إغراء الثائر أولاً، ثم التخلّص منه ثانياً ولم يفلح في ذلك .. فأعادته إلى الخليفة عثمان تخلصاً منه بعد أن حاول احتقاره ..

وحين التقى مع ( عثمان بن عفان ) سأله الخليفة: " لماذا ألّبت الشام علينا ١٩ "، أجاب أبو ذر: " اتبع صاحبك لا يكن لأحد عليك كلام "، كرّر الخليفة محاولات الإغراء

والتدجين، رفض الثائر كما كان في كل مرة، وبلغت محاولات الإغراء حداً دفع الخليفة إلى أن يُرسل مع أحد عبيده مبلغاً من المال، وقال لعبده: " إذا قبلها أبوذر فأنت حرٌ "، فانطلق العبدُ مدفوعاً بكل الشوق إلى الحرية وحاول بكل الطرق إقناع ( أبي ذر ) فلم يفلح ودفعه يأسه وأمله معاً إلى أن يصيح: " اقبلها فني قبولها عتقي !! " وهنا ردُّ " أبوذر " بهدوء: " يا بني إن يكُ فيها عتقك فإن فيها رقي " .

توالى الإغراءات وتوالى رفض الثائر ليقول: " لا حاجة لي في دنياكم " . حدد الخليفة إقامة الثائر إلى جواره في المدينة .. ولم يسكت بل رفع الصوت عالياً، ضد الاستغلال والاستئثار بالمال عصب حياة الجماعات .. دفع اليأس الخليفة إلى نفي الثائر إلى ( الرَبْذَة ) القاحلة التي لا تحيط بها سوى كثبان الرمل، أصدر أمره بأن لا يودعه أحدٌ، ولكن ( علي بن أبي طالب ) وولديه ودَّعوه غير آبهين بأمر الخليفة.

وفي مساء يوم وفاة أبي ذر عام ( ٣٢ هـ، ٦٥٢ م ) دفنه جماعة من الثائرين، الذين مكثوا قليلاً في المدينة .. ثم عادوا إلى العراق ونشطوا ضد سياسة عثمان وتفجرت أول حركة عصيان ضد الخليفة .... فتحوّلت إلى ثورة طردت ( سعيد بن العاص ) والي الخليفة على الكوفة، ثم مشوا إلى المدينة وحاصروا الخليفة في داره فقتلوه بعد أن قبل بشروطهم في عزل والي الكوفة وتعيينه " لأبي موسى الأشعري " الذي اختاره الثوار .

كان هذا أول تنازل في مجابهة عملية بين الخلافة والعناصر الثائرة ...

مات " أبوذر " وهولاً يملك ثوباً تكفنه به زوجته .. فقميصه الوحيد مزقه وكفن به ولده .. ومن الذين حضروا وفاته جماعة منهم الصحابي الجليل ( عبد الله بن مسعود ) الذي رثاه قائلاً: " صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ( تمشي وحدك وتموت وحدك، وتُبْعث وحدك ) .. " وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال هذه الكلمات في " أبي ذر " أثناء اشتراكه في غزوة تبوك ضد الروم قبل عشرين من وفاته وحيداً في صحراء ( الرَبْذَة ) ..

صار ( معاوية ) والي الخليفة على الشام - يتصرف وكأنه يملك الأرض والمال والناس فانزل بالمسحوقين كلَّ صنوف القهر خاصة أولئك الذين رفضوا الرشوة وثاروا ضده .. وجاء نعي أبي ذر إلى الشام واستمع الفقراء إلى صوت الثائر المنفي فتحلقوا حوله، وتحولت مجالس المنفي إلى مظاهرات تضم المحرومين وبدأت المواجهة مع معاوية، تلك التي أذكأها وجود الفقراء الجائعين إلى جانب الأغنياء المتخمين .. تجمع الفقراء حوله وهم يتذكرون ويُعيدون صرخته المجيدة ...: " عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه ... " وقد كان يوضح للذين يتلقون دروسه، أن العدالة تقضي أن الحاكم يجوع أول القوم إذا جاعوا، وهو آخر من يشبع إذا شبعوا .. وانطلق يسأل معاوية ومن حوله من

الذين اغتبنوا باستغلال الآخرين : " أين بيتك المتواضع في مكة يا معاوية، لمن هذه القصور اليوم بالشام ؟ " .. حاول معاوية شراءه ولكن الثائر الحقيقي لا يشتري .. واستمر يؤثر في أتباعه ..

حين أطلق معاوية قوله المشهور: " إنما المال مألنا والقيء فيثنا فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا حرمناه " ... انطلق صوت أحد تلاميذ أبي ذر . " بل المال مألنا والقيء فيثنا فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسياقتنا " ..

هنا أدرك معاوية خطر وجود أبي ذر بالشام، كتب للخليفة: " انقذني من أبي ذر لأنه أفسد الناس علينا بالشام " .. وجاء فيما قاله معاوية لعثمان " .. .... إنني أكره أن يكون مثله في الشام أو في مصر أو في العراق لأنهم قوم سراع إلى القتلى وليسوا بأهل طاعة . " وكان من نتيجة ذلك أن أرسل معاوية الثائر إلى المدينة مخفواً على راحلة عارية مع مرتزقة المستأجرين لتعذيبه ويترك أبو ذر الشام مودعا من مناصريه الفقراء بشكل عز نظيره ..

### مواقف في حياة أبي ذر :

عرض عثمان بن عفان على أبي ذر إمارة العراق، فقال الأخير . " لا والله .. تميلوا عليّ بدنياكم أبداً " ..

سأله الخليفة يوماً بلين: " ألا تكف عما أنت فيه ؟، فقال . أبو ذر: حتى ينزل الفقراء من الأغنياء ..

حين ذكر أبو ذر أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ينم لأن في بيته أربعة دنائير الفتيء لم يقسمها على المسلمين ... قال عثمان وقد احتدم غضبه: " يا أبا ذر إنك شين خرفت وذهبت عقلك ولولا صحبتك لرسول الله لقتلتك ... " !

حين أرسل الخليفة عثمان بعض المال لأبي ذر كي يستعين به على دنياه .. قال، أبو ذر: " وهل أعطى أحداً من المسلمين ما أعطاني ؟ قال حامل النقود: لا، رد أبو ذر: " إنما أنا من المسلمين يسعني مايسعهم، يوجد تحت هذا الغطاء رغيفاً شعير، قد أتى عليهما أيام فعاداً أصنع بهذه الدنانير ١٢ .. وأعادها إلى عثمان .

كان معاوية قد سمى مال المسلمين، مال الله، فقال " أبو ذر " ألا كل شيء لله .. كأن معاوية يُريد امتلاك هذا المال ويمحو اسم المسلمين .. وقال لمعاوية: ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟؟، فقال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال مال الله ؟ .. فقال أبو ذر: " لا تقلها، ولكن قل مال المسلمين لقد خالفت سنة من قبلك فأنهيت الغني وأفقرت الفقير يا معاوية .... "

حين بنى معاوية قصر الخضراء أرسل له أبو ذر يقول: " ... يا معاوية إن كان هذا من مال الله فهو الخيانة وأن كان من مالك فهو الإسراف .. "

لم يقف نقد أبي ذر عند الخليفة وواليه على دمشق معاوية، بل تناول ينقده اللاذع رفاق الأمس فحين بلغه أن (أبا موسى الأشعري) صديق الأمس، صار صاحب ثروة ... رفض أن يكون أخاه .

سلم الأشعري على أبي ذر فقال: مرحباً يا أخي ..

رد أبو ذر غاضباً: " كنت أخاك قبل أن تكون والياً أو أميراً .. " وكذلك فعل حين احتضنه " أبو هريرة " مرحباً فنحاه بيده وقال له: إليك عني ألتست الذي استغللت الإمارة فتناولت في البنيان واتخذت لك ماشية وزرعاً ... ؟! وكان أبو هريرة قد ولي البحرين فحاكمه العادل العظيم (عمر بن الخطاب)، وقال له: " ... استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنك اتبعت أفراساً بألف وستمائة دينار .. " .

لقد انطلق أبوذر في كل مواقفه تلك من إيمانه بأن الإنسان الحق يعتبر العمل هو مصدر الكسب المشروع لذلك اختار الله كل أنبيائه من العاملين فالنبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، راعي غنم، والنبي داود يصنع الدروع وآدم كان حراثاً، ونوح نجاراً، وموسى راعياً .. ورأى أبو ذر الخلفاء الراشدين يعملون بالتجارة حتى ينفقوا على أنفسهم وبيوتهم إذ كان أبو بكر يعمل بالتجارة حتى خصص له المسلمون راتباً من بيت المال كي يتفرغ لأموالهم ..

وكان عمر بن الخطاب لا يتردد عن حمل الماء والتمر والملح لأهله، وقد وضع " أبو ذر " العمل الإنساني في مكانه اللائق حين وصفه بأنه الذي يحقّ إنسانية الإنسان وأنه مصدر الرزق الحلال، وذلك في صرخته ضد المستغلين حين قال: " مالهؤلاء يستأثرون بأموال لم يستحقوها بعملهم وقد جاء في كتابه العزيز: " .. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .. " .

هل يمكن القول بعد هذه الملامح عن أبي ذر: " أنه كان من الرّواد الأوائل في التاريخ العربي في الاقتراب من معنى الحكم الديمقراطي كما نعرفه اليوم حين تحدث عن علاقة الحاكم بالشعب وجعله خادماً لا مخدوماً؟؟ .

هل نقول: إنه بمواقفه التي أتينا على بعضها كان أحد الذين وضعوا بذور الفكرة الاشتراكية، وكان على الذين جاؤوا بعده تنمية هذه البذور؟؟ .. هل نقول: إنه بمواقفه الشجاعة كان أحد الأفاضل الذين حاربوا الاستبداد وإيثار ذوي القربى على حساب مصالح الآخرين؟؟ ..

أم نقول: هو كل هؤلاء !!

سلك معاوية مع أبي ذر سبيل التهديد وقال له: " ... يا أبا ذر خير لك أن تنتهي عما أنت فيه ... " ؟ ..

ولكن الرجل لم يعبأ بهذا التهديد ، وقال لمعاوية: " ... والله لا أنتهي حتى توزع الأموال على الناس كافة ... " .

وعند ذلك لجأ معاوية إلى حيلة أخرى أراد بها أن يفسد ما بين أبي ذر وبين أنصاره وحزبه من الفقراء وذلك في محاولة إيهامهم أن الرجل ممن يتلقون الهدايا والصلوات ، وبعث في جنح الظلام أحد رسله يحمل ألف دينار لأبي ذر وفي الصباح بعث إليه ثانية الرسول نفسه يخبره أن العطاء لم يكن له وأنه قد أخطأ الطريق إليه ويقول له: " يا أبا ذر انتد جسدني من عذاب معاوية فإنه أرسلني إلى غيرك واني أخطأت بك " ... لكن أبا ذر كان قد أنفق الدنانير الألف على الفقراء قبل أن يطلع عليها عنده الصباح ..

أيقن معاوية أن الرجل عصي على أن تنال منه هذه الأساليب وذلك ، لأن " فعله يصدق قوله " في قضايا الأموال والثروات ، وعندئذ قرر قراره بضرورة إخراجهم من الشام فكتب إلى أمير المؤمنين يصور له حال أبي ذر مع الفقراء .

قال عثمان لأبي ذر: " ... يا أبا ذر علي أن أقضي ما علي وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد ، وما علي أن أجبرهم على الزهد ... " .

ولم يرض أبو ذر " بهذا القول إذ الأمر لم يكن في نظره أمر ( زهد ) لا يستطيع أن يجبر الناس عليه وإنما كان أمر أغنياء يزدادون غنى وفقراء يتسبب هؤلاء الأغنياء في فقرهم ... وأمر حقوق هؤلاء الفقراء في أموال الأغنياء حتى يبدلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والإخوان ويصلوا القربات .. " .

أبو ذر الغفاري لم يكن زاهداً زهد الإنسان الذي لا يرى لنفسه علاقة بالذنية ومباهجها ، وإنما كان زاهداً زهد المناضل ضد احتواء هذه المباهج لقدراته ومزاياه الثورية تلك التي اكتسبها قبل بعثة الرسول ( عليه الصلاة والسلام ) وبعبدها ..

كان زهده يدعو للعيش في ( الربذة ) بالصحراء وكانت ثوريته تقتضي أن يبقى على اتصال بالثورة الاجتماعية التي أوجدها الإسلام في عقول الناس وحياتهم ، وذلك من خلال ، ترده على المدينة حتى يظل على صلة بحضارتها ويعبر " ابن الأثير " في كتابه ( الكافي في التاريخ ) عن هذا الموقف بقوله " كان أبو ذر يتعاهد المدينة مخافة أن يعود أعرابيا " ولأبي ذر مواقف رائدة في فهم النصوص ..

يقول مكسيم رودنسون في حديث له بعنوان " الماركسية ودراسة العالم الإسلامي" (١): "... ولقد عثرت مؤخراً على حديث ربما لا يعرفه كثير من المسلمين فبهرني عندما قرأته لأنني أرى فيه شيئاً مفيداً للغاية سأحاول قراءته عليكم، بلغتي التي تدعو للثراء.

" العصبية أن يعين رجلُ قومه في ظلم "

هذه الكلمة جميلة جداً، ولكن أجمل كلمات الإسلام في نظري هي كلمة لأبي ذر الغفاري .. كانت المسألة تتعلق بنص قرآني فيه نقدٌ للقساوسة المسيحيين والربانيين اليهود على أساس أنهم يستغلون وضعهم الأكليريكي، ولقد قال أبو ذر: إن هذا النقد ليس لهم وحدهم بل ولنا أيضاً ...

ولقد نُفي لهذا السبب وعانى من مضايقات كثيرة في عصر معاوية، وجاء علي بن أبي طالب، يُحييه عندما نُفي من المدينة، وكانت هذه من مظاهر المعارضة التي ظهرت من قبل في وقت عثمان ..



## مراجع

- ١- دكتور محمد عمار، مسلمون ثوار - المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط ٢، إيلول (سبتمبر) ١٩٧٩
- ٢- جمال الدين الإفغاني - الأعمال الكاملة - دراسة وتحقيق دكتور محمد عمار، طبعة القاهرة، ١٩٨٦ .
- ٣- دكتور حسين مروة، ( النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ) ط ١، دار الفارابي / بيروت.
- ٤- دكتور حسين مروة - دراسات في الإسلام - ط ١ دار الفارابي - كانون الأول - ١٩٨٥ .
- ٥- د. محمد عمار - التراث في ضوء العقل - دار الوحدة ط ١ ١٩٨٠ .
- ٦- أبو الحسن السعدي - مروج الذهب، دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت ط ١ - ١٩٦٥، ج (٣) ( مارس ) آذار ١٩٧٠

---

## مواش

- (١) الظليمة ( مجلة ) القاهرة ، عدد ٣ ( مارس ) آذار ١٩٧٠ .







## الجاحظ: فارس العقل والحرية

٧٧٥ - ١٦٨ م

١٥٩ - ٢٥٥ هـ

الجاحظ .. روسو .. غوركي .. جميعهم تشابهوا في طفولة شقية مُتعبه، ورفاعة لا تقل شقاءً وتعباً، كانوا مرشحين لأن يكونوا - حسب معطيات الواقع حولهم - شاذين أو فاشلين في الحياة، ولكنهم تمردوا على وحل الواقع فصاروا أبرز أعلام الإنسانية، كلٌّ في زمانه أولاً ثم في ذاكرة الإنسانية ثانياً .

وفيما يخصُّ الجاحظ لا نعرف بين أدباء العربية من مزج بين التجربة الحياتية والتجربة الإبداعية، مثل ما فعل، إذ آمن أن لا قيمة للإبداع دون المعاناة الحياتية، وطَبَّقَ هذا الإيمان عملياً فكان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها ليلاً، وقد ثابر على ذلك طوال حياته حتى انتهى أحد الشهداء الأفاضل لعطش المعرفة الذي لا يرتوي .

إن الكتب لم تحجب الجاحظ عن الناس بجميع فئاتهم، فكان يُخالط ويسأل، يأخذ ما لا يعرفه ويُصَحِّح ما قد يكون عند بعضهم من أخطاء لا يقبلها العقل، إنه لا يقبل المسموع من تجارب الآخرين كما هو، بل يعمد إلى التجربة بنفسه - إذا أمكن ذلك .. حدث أن قال له أحدهم إن نوعاً من العشب يقتل الأفعى برائحته إذا ألقيته عليها فاستحضر الجاحظ ذلك العشب، وألقاه على الأفعى وتبين له أن ماسعه كان كذباً .

لم يكن هناك خطة واضحة في تعليم الجاحظ وتربيته لكنه مشى إلى خلوده من خلال جهاد مرير في سبيل لقمة العيش وفي سبيل الكلمة الإبداعية يرتزق من بيع السمك والخبز في النهار ويكتري دكاكين الوراقين ليقرأ ليلاً .

### تحرير العقل :

كما التقى الجاحظ بـ ( روسو ) و " غوركي " من حيث اليتيم والتشرد ومزاولة كل أنواع العمل حتى يعيش مُدَّ كان طفلاً .. التقى كذلك الأفاضل الذين مجدوا العقل في تاريخ البشرية ... وفي تراثنا العربي التقى الجاحظ مع ابن سينا ( ٩٨٠ - ١٠٣٧ م ) في نقطة هي ( احترام العقل ) وجاء ذلك عندهما انطلاقة من ( احترام الحياة ) .. إختلفاً بعد ذلك في أن الجاحظ حاول أن يطبِّب العقل وحرَّره فكان بذلك أول من دعا إلى اقتحام ( باب الإيمان )

بالسئل والفكر الحر، انطلاقاً من إيمانه بقيمة العقل والتجربة في تصحيح ما يصل إلينا ...  
بإنما حاول تلميذه ابن سينا الاهتمام بمعالجة أمراض الجسم .

ولا نبتعد عن الحق إذا قلنا إن الجاحظ من رواد الشك وأعمال العقل في تراثنا العربي  
الإسلامي، وفتح بذلك الباب لمن جاء بعده من أمثال الفارابي وابن سينا والمتنبي والمعري  
وغيرهم . .

والعقل عند الجاحظ هو " وكيل الله عند الإنسان " وقد سَمَّى بهذا الاسم ( العقل )  
لأنه يلزم الإنسان ويعصمه عن أن يمضي في سبيل الجهل والخطأ والمضرة كما يفعل البعير ..

### تحرير الأسلوب :

لم يقف الجاحظ عند الدعوة لتحرير العقل، بل دعا من خلال ما كتب لتحرير  
الأسلوب من الجمود والصنعة السائدين قبله .. فُقرَّب النثر من الحياة وحملَه همومها،  
فأصبحت اللغة مع الجاحظ تحمل نبض الحياة والناس وتعيش قضاياهم .. وكشف الجاحظ  
عورة هؤلاء الذين كانوا يخفون أنفسهم وراء أقنعة اللغة العربية العويصة ..

وكما حرَّر الجاحظ اللغة من قيود الصنعة التي رآها تعطل حرية الإبداع وتلقائيتها ..  
كذلك رفع الجاحظ القيود عن أمور الحياة العادية وجعلها تدخلُ عالم الكلمة العنية وهذا  
مالم يكن معروفاً قبله .

وصل الجاحظ إلى ذلك لأنه فكر بعقله هو لا بعقول سابقيه ونطق بلسان الناس حوليه،  
ولم ينطق من خلال الموروث .. أبى أن يتكلم كالأقدمين على الرغم أنه تتلمذ عليهم، فكان  
يقول للناس: " أنا أبو عثمان أنا الجاحظ، ولست " قساً " ولا " سحبان وائل " ولا " أكثم  
بن سيفي "

لقد أسهم الجاحظ في نقل ثقافة العرب من الشعر إلى النثر تعبيراً عن انتقالها من بدوٍ  
يلتزمها الشعر، إلى حضارة يلائمها النثر ، رغم إيمانه بأن ثقافة العرب أميل إلى الشعر " لأن  
العرب وجهوا قواهم إلى قول الشعر " .. وعلى يد الجاحظ اندفع الأدب العربي صوب النثر  
الذي يمتلك إمكانات أكبر بما لا يُقاس في التعبير عن جوانب الحياة بشمولها، كما يملك  
التأثير الأوسع على جمهور عريض من القراء فيكون إسهامه أكبر في التطور الروحي للإنسان.

وحين نزل النثر إلى مسرح الحياة صار كل شيء موضوعاً للأدب، وإذا كان ( ماركس )  
قد أشار إلى أن الواقعية ارتسمت منذ القرن الثامن عشر مع اندفاع الأدب صوب النثر، فإن  
الجاحظ أسهم في إيجاد هذه الواقعية في الأدب العربي منذ القرن التاسع الميلادي وفعل تماماً  
في الأدب العربي مثل الذي فعله ( بوشكين ) في الأدب الروسي في القرن الثامن عشر حين

أبداع . انسميه الآن ( الأدب للشعب ) .. وكان الجاحظ في الأدب العربي القديم مثل ( برنارد شو ) في الأدب الانجليزي الحديث كان الجاحظ جاداً وهو يضحك مُتفلساً وهو يسخر، حيث عالج أخطر المشكلات بأسلوبه الساحر وخفة ظله المعروفة وتحتاج السخرية عند الجاحظ وقفة خاصة .

بقي الجاحظ فقيراً رغم شهرته الواسعة فحين سُئل " هل لك ضيعة بالبصرة ١٩ " أجاب ضيعتي معي، لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد ولعله يشير بذلك إلى أنه لا يملك سوى علمه وكتبه وشوقه إلى المعرفة، ولا عجب - مع هذا الواقع - أن نجد أن الجاحظ خير من تحدث عن الكتاب وقيمته في الحياة خاصة في بداية كتابه الشهير ( الحيوان ) .

وإذا كان بعض المبدعين قد جاء إلى الحياة من الأدب، فإن الجاحظ قد جاء إلى الأدب من الحياة، كانت الحياة عنده أولاً وجاء الأدب ليعبر عن حقائق هذه الحياة، وجعل للأسب غاية لا يفترق فيها الجانب الجمالي عن الجانب الاجتماعي فأسهم بأن جعل الثقافة للجماهير حين قصدها وتوجه إليها فيما يكتب، وكان كما يقول الشاعر: ( بدر شاكر السياب): أول أديب عربي نزل إلى السوق فصور لنا أحوال الشعب تصويراً ينبض بالصدق والحياة بأسلوب حسناً أن نقول فيه: أنه أسلوب الجاحظ، والذي كان بحق مدرسة في الأسلوب تخرج منها أدباء شباب وامتاز بأنه الأسلوب البسيط الذي يخفي تحته أفكاراً في تجدد دائم، أو تحفز على التجديد وفي كثير من النقاط يمكن مقارنة الجاحظ مع ( فولتير ) .

إن إباء الجاحظ واعتزازه بإبداعه قاداه إلى أن يكون أميراً بين كتبه وأوراقه على أن يكون رئيساً في ديوان الخليفة ( المأمون ) فحين أسند المأمون رئاسة الديوان للجاحظ قبله على كره منه ليتركه بعد أيام ثلاثة حين رأى في الديوان موظفين ( صقلت ثيابهم ) فقال كلمته المشهورة: " ظواهر نظيفة ومواطن سخيفة " .

إن إيمان الجاحظ بالحرية، قاده إلى كثير من هذه المواقف التي كانت تعبيراً بالسلوك العملي عن الحرية، وأما عن إيمانه بالعلاقة بين الإبداع والحرية، فقد قال في كتابه الحيوان " أقول شيئاً ليس يُخرجه مني إلا الشكر والحرية .. " .

ويتحدث الجاحظ عن حرية الإرادة حين رأى أن الذين حول الخلفاء يسلبون الإنسان إرادته ليجعلوه كالريشة في مهب الريح .

كان إخلاص الجاحظ للثقافة أعظم من إخلاصه لأي شيء آخر، وجعله هذا الإخلاص محوراً للثقافة في عصره ولعله من أوائل الذين آمنوا بأثر الثقافة في المجتمع حين رأى أنها تقوم يد الإنسان ولسانه وأن يد الإنسان لا تكون إلا خرقاء ولا تصير صناعاً ما لم تكن المعرفة

ثقافاً لها واللسان لا يكون أبداً ذاهباً في طريق البيان متصرفاً في الألفاظ إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به واضعة له في مواضع حقوقه ..".

لم يتلمذ الجاحظ على أستاذ بل كانت الحياة أستاذه الأكبر وكانت دكاكين الوراقين بما فيها من كتب مدرسته الواسعة .

ألف الجاحظ كتاب ( الحيوان ) وعمره اثنان وثمانون عاماً ولم ينقطع عن الكتابة والتأليف طوال حياته التي امتدت حوالي قرن . تروي الكتب أنه مات في عام ٢٥٠ هـ بينما كان قد ولد عام ١٥٥ هـ وصار يعيش في كنف أمه - إذ توفي والده وهو صغير - في أسرة من سواد فقراء البصرة واندفع إلى العلم بطموح كبير إلى مستقبل يعوضه اليتيم الذي أهاض جناحه .. أخذ يتردد على حلقات العلم، يذهب إلى المريد يتلقى الفصاحة شفاهاً ويستمتع ويناقش وأمدّه طموحه وفقره بالثابرة والصبر والقوة في التحصيل وكان بعد أن ينتهي من عمله اليومي في التعلم - على طريقته الخاصة - يذهب ليعيش من كسب يده فيبيع الخبز " والسلك جانب نهر البصرة، وكانت والدته التي تعتني به قد ضايقها انصرافه إلى العلم والمعرفة أكثر من انصرافه إلى العمل وقد قدمت له في إحدى المرات حين طلب الطعام طبقاً عليه كراريس من الأوراق ؟ فقال : ما هذا ؟ قالت هذا الذي تجيء به ؟

### الجاحظ والمرأة

من لوازم الإيمان بالعقل والحرية - كما عند الجاحظ - الإيمان بإنسانية المرأة بحيث لا يخلو تراث كاتب عظيم من رأي في المرأة سلباً كان أم إيجاباً ..

هذا الجاحظ البعيد عنّا زماناً القريب منا فكراً ووجداناً يحدثنا عن المرأة مناقشا بعض معاصريه . وبالطبع لا يمكننا أن نفصل الشكل الذي اتخذته الحوار في هذا الأمر ولا مضمونه عن الزمان والمكان اللذين يدور فيهما.

طرح الجاحظ قضية المرأة في فترة من تطور المجتمع العربي القرن الثالث الهجري، ولم يكن من الممكن أن تطرح قبل الوصول إلى هذه الدرجة من التطور ...

وأعاد قاسم أمين ١٨٦٥ - ١٩٠٨ طرح القضية ذاتها وإن بأسلوب آخر ومضمون آخر أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

إن طرح الجاحظ لقضية المرأة كان فيه جرأة كاملة نسبة إلى مقاييس عصره السائدة، وكان حسب ما نعلم أول من طرح هذه القضية وحاول إنصاف المرأة في أدبه ولعله أول من دافع عن شرعية وجود الحب بين الناس .

ولعل الذي دفع الجاحظ كي يطرح هذه القضية - ماوصل إلى علمه - وهو المطلع على تراث العرب - من أخبار النساء العربيات اللواتي جابهن الرجال، بعد سلسلة طويلة من الاعتداء على الأنثى بدءاً من رفض وجودها ودفنها حية تجنياً كماكان يحدث في الجاهلية، إلى رفض الاعتراف بوجودها المستقل، لأنها كائن ناقص العقل والدين !!

كما قرأ الجاحظ - ولا شك - إن نساء عربيات مشهورات قد رثين الأخ أو الأب، ولم يسمع أن رجلاً رثى أختاً أو أمّاً أو زوجة - إذ كان رثاء جرير لزوجته استثناء في أدبنا العربي القديم .

لهذا كله على ما نرجح أخذ الجاحظ يتحدث عن المرأة حديثاً موضوعياً واعتبر حديثه إنصافاً للمرأة في زمن عزّ الحديث فيه عن المرأة ويلمس القارئ شذرات الجاحظ عمقا يحسب له بمقاييس عصر بحيث نعلمه إذا طبقنا عليه مقاييس عصرنا التي عمقها: علم النفس وعلم الاجتماع، وتقدم العلوم الإنسانية والحضارة البشرية بشكل عام ..

فقد لمس أن المرأة تخلص للحب أكثر من الرجل ففي كثير من الأعمال الأدبية الكبرى نجد الرجال يسقطون لأنهم تخلوا عن الحب بعكس النساء اللواتي يخلصن للحياة والحب ورأى الجاحظ أن المرأة لا تقل عن الرجل في إمكاناتها فهي مثله تنشغل - إذا سمحت لها ظروفها الاجتماعية والاقتصادية - بقضايا المجتمع وقضايا الحياة والوجود، التي يعتبرها بعضهم حكراً على عقول الرجال، والمرأة عند الجاحظ مثل الرجل أو حسب سير " المثل الشعبي " الذي يصف الذكر والأنثى بأنهما " الفولة وانقسمت نصفين "

وحديث الجاحظ عن المرأة، موضوعي بحيث تحدث عن نماذج مختلفة من النساء كما أن هناك نماذج مختلفة من الرجال يدافع الجاحظ عن المرأة: مثلاً، قوله: " .. ولسنا نقول ولا يقول أحد ان النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو أكثر، ولكننا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزرية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن أكثر حقوقهن .. " ويتابع الجاحظ قائلاً: "...." ونحن إذا رأينا أن فسد الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء - أكثر وأظهر فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة، وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يُصنر حقوق الأمهات وكذلك إن الرجل عامة قد يكون أقوى ولكن المرأة عامة قد تكون أرحم، ويرى الجاحظ أن من عجز الرجل " أن لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال " ..

## المرأة أجمل ما في الوجود

تحدث الجاحظ عن مزايا المرأة التي تجعلها موضوعاً للحب و مركزاً للجمال، المرأة التي يراها أجمل ما في الوجود، ولا شيء يبلغ في الجمال مبلغها، لذلك يعيب على الشعراء التشبيهات التي يشبهون بها المرأة ويرى أن هذا النوع من التشبيه، إنما هو من الضرورات الشعرية الكلامية التي لا تعبر عن الحقيقة يقول: " .. وقد علم الشاعر والواصف أن الجارية الفاتكة الحسن أحسن من الطيبة وأحسن من البقرة وأحسن من كل شيء، تشبه به، ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون كأنها الشمس وكأنها القمر ... والشمس وإن كانت بهية فإنما هي شيء واحد وفي وجه الحسناء وخلقها ضرب من الحسن الغريب والتركيب العجيب، ومن يشك أن عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة؟! وأن جيدها أحسن من جيد الطيبة؟! والأمر فيما بينهما متفاوت، ولكن الشعراء والكتاب فعلوا ذلك عن إيمان منهم بأنه الواقع ولكنهم عمدوا إلى ذلك، ولو لم يفعلوا هذا وشبهه لم تظهر فطنتهم وبلاغتهم ... (١)

## جمال المرأة عند الجاحظ

إن جمال المرأة - عنده - صنفان: جمال ظاهر، وجمال باطن، فالأول هو جمال الأعضاء. والثاني ذلك الجمال الذي يدركه الرجل فقط من المرأة لأن النساء " لا يبصرن من جمال النساء إلا قليلاً " ولأن الرجال بالنساء أبصر ولأن المرأة تعرف من المرأة ظاهراً والصفة....

أما الجمال الداخلي الذي يوافق الرجال، فإن المرأة لا تدركه فقد تحسن المرأة أن تقول: كان أنفها السيف، وكان عينها عين الغزال، وكان عنقها إبريق فضة، وكان ساقها حجارة مرمر، وكان شعرها العناقيد، وكان أطرافها المداري وما أشبه ذلك .... " (٢)

ويتحدث الجاحظ عن الحب وأثره في حياة الناس وسلوكهم، وهو يعني حين يتحدث في هذا المجال، حب الرجل للمرأة إذ يعتبر أن الحب شيء من طبيعة الإنسان لا يمكن أن يتخلص منه، وإن كان هذا الحب يختلف عنده قوة وضعفاً، وحدةً وفتوراً، باختلاف مزاج الرجل وملابسات حياته، ولكنه في كل الأحوال يرى ضرورة الحب الذي يتحدث من خلاله عن أثر المرأة في حياة الرجل، وكأنه أراد أن يصل إلى ما نُعبر عنه في زماننا حين نقول: " وراء كل عظيم امرأة " وكأنه أيضاً يلمح إلى أنه لولا الحب لما كانت أعظم الإبداعات البشرية التي جاءت في معظمها، كي يقدمها المبدع هدية لتلك التي يحبها، والأمثلة كثيرة من تراثنا

العربي وغيره ولعل المثال البارز هو " دانتي " الذي أبدع " الكوميديا الإلهية " كي يقدمها لحبيبته " بياتريس " .

ويرى الجاحظ أن تعيير النساء من أكبر نقائص الرجال ويضعه مع أخط الصفات في كفة واحدة. يقول في كتابه " البيان والتبيين : " ... شاتم أعرابي أعرابياً، قال: إنكم لتقصرون عن العطاء وتعيرون النساء وتبيعون الماء " !!.. (٣)



### المراجع والمصادر :

- ١- باقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ١٦، ص ١٠٦
- ٢- دكتور طه الحاجري، الجاحظ حياته وأثاره، طبعة دار المعارف بمصر-١٩٦٢
- ٣- الجاحظ، كتاب الحيوان، طبعة مصر ١٩٣٨ .
- ٤- الجاحظ، البيان والتبيين، لجنة التأليف والترجمة القاهرة، ١٩٤٨
- ٦- هادي العلوي، المستطرف الجديد، دار الطليعة بيروت، طبعة أولى ١٩٨٠ ص ١٨٢ .
- ٧- شفيق جبيري - الجاحظ - معلم العقل والأدب - القاهرة ١٩٤٨

---

### هوامش

- ١- الدكتور طه الحاجري - الجاحظ حياته وأثاره - مصدر سابق ص ٤٤١ .
- ٢- المصدر نفسه ص ٤٤٢ .
- ٣- البيان والتبيين، لجنة التأليف والترجمة - القاهرة ١٩٤٨ ص ٢٧٠ .





## ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م)

### قضايا معاصرة في مقدمته

ابن خلدون أحد العباقرة الأفذاذ الذين فتحوا الطريق الجديدة في عالم الفكر، في علم الاجتماع واتباع المنهج العقلاني في البحث .. وكانت موضوعيته في البحث أحد أسباب خلوده حيث لاحظ قلة الأحداث الصحيحة التي تحتويها غالبية المؤلفات التاريخية وخلص إلى القول: بعد هذا الذي لاحظته بأن أسباب الانحلال والتردي تنشأ عن: " التشيعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال من الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمهيص والنظر حتى يتبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشييع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشييع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص ...))

ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً: الثقة بالناقلين ومنها توهم الصدق وهو كثير ... ومنها الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عين أو سمع، وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه، فيقع في الكذب .. ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الواقع .. ومنها تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمديح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر (١) "

### ابن خلدون والمنهج العقلاني

من عناصر الموضوعية في تفكير ابن خلدون، اعتماده العقل وابتنائه عن الخرافات والأساطير، يقول: " لأن الأخبار إذا اعتد فيها مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، وزلة القدم والحيد عن جادة الصدق (٢). كما نراه يعبر عن حركة التاريخ لأن العناصر المكونة للحياة الاجتماعية عنده ليست ساكنة بل هي في حركة دائمة يقول في المقدمة ج١ ص ٤٤: الدهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل العصور ومرور الأيام ومن الغلط الخفي في التاريخ " وهوداء دوي وشديد اخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة ...

وذلك لأن أحوال العالم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهجا مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال " (٣) وقد كان ابن خلدون أحد هؤلاء القلائل الذي أشاروا إلى هذه الحركة للتاريخ في وقت مبكر .

### النزعة العلمية عند ابن خلدون:

نلمح أسس الجدلية عند ابن خلدون حين يتحدث عن أعمار الدول فيرى أن عمر الدولة يشبه عمر الشخص فهو ينتقل من سنّ التزديد الى سن الرجوع وهذه الحوادث طبيعية ولا شيء يمكنه منعها.

وحين يبين أثر وسائل الإنتاج في النواحي الإنسانية في الأفراد يقول: " إن خلق الإنسان يرجع إلى العرف والعادات لا إلى المناخ والمزاج وأن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلته في المعاش (٤) .

في هذا النص نرى أن تكوين الإنسان الاجتماعي لا يخلق معه بل تكوّن العادات الاجتماعية والعرف القائم .. كما يقرر أن اختلاف أحوال الناس يعود إلى طريقتهم في الإنتاج.

وبذلك سبق ابن خلدون غيره حين ربط بين علم الاجتماع والاقتصاد في كتابه ( المبتدأ والخبر ) أثناء الحديث عن علم الاجتماع الذي سمّاه بـ ( علم العمران ) معتمداً أسس الشرح والتحليل وتعليل الحوادث مدركاً ارتباط علم الاجتماع بعلم الاقتصاد وذلك في القرن الرابع عشر في الوقت الذي أشار فيه بعض العلماء إلى هذه الحقيقة في القرن الثامن عشر، وقد أقام ابن خلدون في مقدمته وزناً للضرورة الاقتصادية حين عبر عنها بأن المكسب والمعاش والصنائع دعامة من دعائم المجتمع، وحين عبر أن الظواهر الاجتماعية في العالم لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا وفق إرادة الأفراد، بل وفق قوانين مطردة ثابتة لا تقل في ثباتها عن قوانين الظواهر الأخرى ... وانطلق يدرس هذه الظواهر في حال ثباتها أي في الحالة التي تكون عليها في زمان ومكان معينين ويدرسها في الوقت نفسه من حيث تطورها، والنواميس التي تخضع لها في هذا التطور واستخدم في أبحاثه القواعد التالية: الملاحظة والتجربة، التفسير والتحليل، المقارنة والقياس - ودراسة الظواهر وعلم العمران ولقد استخدم ابن خلدون علم العمران بمعنى علم الاجتماع قال: " إن الكلام في هذا العلم مستحدث الصنعة غزير الفائدة أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص (٥) .. ولعمري لم

أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ولعل من يأتي بعدنا يغوص في مسائله أكثر والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل ... (٦)

### ابن خلدون .. والتقدم

يتجدد اهتمامنا بابن خلدون بقدر حاجتنا إلى الحرية بمعناها الاجتماعي الواسع، وبقدر حاجتنا إلى التقدم .. لما في كتاباته من دفاع مجيد عن التقدم والحرية لأن الظلم عنده " مؤذن بانقطاع النوع وهذا يؤدي إلى تخريب العمران " (٧)

كذلك حارب ابن خلدون العرقية التي تفرق فتجعل الشرق شرقاً وفكره وحضارته، وتجعل الغرب غرباً بفكره وحضارته أيضاً وذلك حين يكتب أن الإنسان يتغير بتغير الظروف حوله وليس هناك تخلف دائم أو تقدم دائم، وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث. وحين تحدث عن الاضطهاد نفى أن يكون نتيجة لطبيعة ثابتة في البشر وإنما الظروف الاجتماعية هي التي تؤدي إليه تراه يقول: " إن الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة " المقدمة ج ص ٢٥٩

وفي رأيه أن الظلم نتيجة استبداد أهل القدرة والسلطان ج ١ ص ٩٧ والجهل غير بعيد. عن الظلم عند ابن خلدون، لأن مرمى الجهل بين الأنعام وبيد، والحق لا يقاوم سلطانه. والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه " (٨)

وقد أعجب ابن خلدون بالتاريخ لأنه علم من العلوم وليس من أهدافه أن يهزأ أو يسحر الألباب أو يعظ أو يقنع الحكومات أو يخدمها .. ولم يكن التاريخ عنده لونا أدبيا كما يقول (أيضاً لاكوست) لذلك التزم الصراحة في أحكامه والإعراض عن قبول توسلات الأعيان وكبار رجال البلاط الذين كانوا قريبين منه، ومن المؤكد أنه فعل ذلك شغفاً بالعلم لا رغبة في التظاهر بالطرافة كما يعبر الدكتور طه حسين في ص (١٨) من كتابه (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية).

إن إعجابه بالتاريخ كعلم جعله واقعياً بعيداً عن الأسلوب الرومانسي أي أن عواطفه لم تتحكم بكتابه، ولم يشغله أن يكون أديباً مُنشئاً بقدر ما كان يشغله أن يكتب الحقيقة وقائع.

## ابن خلدون والاقتصاد:

تحدث ابن خلدون عن الزراعة وقد سماها ( الفلاحة ) واعتبرها مهنة المذهبين حين قال: " الفلاحة من معاش المستضعفين .." ولعله لمس الظلم الاجتماعي الواقع على الفلاحين حيث لم يجد فلاحاً واحداً من المرفئين أو من أهل الحضر ..

وتحدث كذلك عن التجارة وعرفها بأنها (محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وببيعها بالغلاء....) كما اشار إلى الاحتكار والاستغلال حين قال: " إن البعض يخبزن السلعة ويحتجّن بها حوالة السوق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه ... " .

كما تحدث ببصيرته النافذة عن تراكم رأس المال وإن كان الربح قليلاً لأن المال كما يقول ابن خلدون " إن كان كثيراً عظم الربح لأن القليل في الكثير كثير "... وعن علاقة المال بالسلطة أشار إلى أنه لا بد للمال من جاؤ يتدرّع به فيوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من غرمائه .

وعن قانون العرض والطلب يقول: " إن التاجر البصير لا ينقل من السلّع إلا ما تتم الحاجة إليه ... " .

ويتحدث عن الغلاء قائلاً: " إذا قلّت السلعة أو عزّت غلت أثمانها وإذا كثرت رخصت أثمانها .. " .

وحين يتحدث عن الصناعة يرى " أنها ملكة في أمر علمي فكري ولأنها عملية فهي محسوسة ، ونقلها بالعمل أوجب لها وأكمل، لأن المباشرة كما يقول ابن خلدون أو الخبرة العملية كما نقول اليوم في الصناعة أتم فائدة " ... وقد عرّف، الصناعة بأنها ملكة، ويقول عن الملكة أنها صنعة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكراره مرّة بعد مرّة حتى ترسخ صورته.. "، نلمح إيمانه بأهمية الصناعة كما نلمح أهمية فضل التعليم الفني في الصناعة كذلك، كما يوضح لنا أن تقدم الصناعة يكون بتكرار العمل فيها ويرى كذلك أن الصناعة ترسخ في البلد بربوخ الحضارة فيه، وطول أمدّها، وتحول الصناعة إلى عادة ترسخ بكثرة التكرار كما يقرر أن الاستقرار ضمان لتقدم الصناعة، وأن البلدان إذا قاربت الخراب انتقصت فيها البضائع وتكبر أهمية الصناعة بقدر أهمية السلعة التي تنتجها ....

## ضد العنصرية

فندّ ابن خلدون بأسلوبه العلمي الخرافات حول سواد اللون عند بعض الناس، محارباً من خلال ذلك العنصرية التي تقوم على أساس اللون حين يقول: " توهم بعض النسابين ان

السودان (جمع أسود) هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه تظهر أثرها في لونه وجعل الله الرق في عقبه .. وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصص...".

إن هذه الخرافات يقول ابن خلدون وردت في " التوراة " حيث جاء فيها .. " إن دعاء نوح على ابنه حام بأن يكون ولده غيبداً لولد إخوته لا غير " ولم تذكر التوراة لون السواد .

دحض هذه الخرافات بأسلوبه العلمي الذي قام على التجربة والملاحظة والاستقراء، يقول: " إن القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد، وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوان ... " ... جاء كلامه هذا في معرض حديثه في مقدمته عن أثر البيئة والمناخ في السكان وتوزعهم ونمط حياتهم جاء في بعض ما قال : " اعلم أنه يتبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم، أن شكل الأرض كروي، وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها طافية عليه، فأنحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله تكوين الحيوانات، وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها، ثم إن هذا المُنْكَشَف من الأرض فيه الفسار والخلاء أكثر من عمرانها، والخالى من جهة الجنوب أكثر من جهة الشمال .

وكان " الجاحظ " قد اشار إلى أثر البيئة في الكائنات التي تعيش فيها منذ القرن الثالث الهجري - قبل ابن خلدون بحوالي خمسة قرون في كتابه الشهير " الحيوان " - فعلى سبيل المثال نراه يقول:

" وقد نرى ( حرة بني سليم ) وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة ودواب وحشرة كلها سوداء، ونرى جراد البقول والرياحين خضراً وديدانها خضراً ... " .

" قيمة العمل " تحدث عنها ابن خلدون في وقت مبكر وانتقد بشكل واضح تسخير الإنسان لأن " العمل مصدر معاشه الوحيد "، يقول: " ومن أشد الظلمات وأعظمها في إفساد العمران تسخير الرعايا بغير حق ... " .

ويوضح هذه القضية - اغتصاب العمل والاستغلال - أكثر حين يقول: " فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخرى في معاشهم، بطل كسبهم واعتصبوا قيمة أعمالهم. فدخل عليهم الضرر " ، لأن العمل - كما يرى ابن خلدون بحق - هو مصدر رزق الإنسان وتغييره، يقول " وأعمالهم كلها متحوّلات ومكاسب لهم بل لامكاسب لهم سواها " .

اكتشف الغرب ابن خلدون بدهشة وإعجاب لأنه سبق كل المنظرين السياسيين الغربيين، سبق ميكافيلي، وميكو، ومونتسكيو، وسميث، وأوغست كنت بعدة قرون .

ومن الدراسات الهامة في هذا المجال دراسة المستشرق الإيطالي " استيفانو كلوزيو " المقارنة التي كتبها أواخر القرن التاسع عشر، قارن فيها بين شخصين: ابن خلدون - وميكافيلي، تحت عنوان: " مقدمة لدراسة ابن خلدون " تحدث فيها عن أوجه الشبه والاختلاف بين الفيلسوفين، ووصل إلى اعتبار ابن خلدون رائد علم جديد هو " علم النقد التاريخي " الذي سبق فيه بقرون عديدة أشهر فلاسفة الأوروبيين، الذين شغلهم التاريخ ونقده والسياسة وعلومها .

ويرى هذا المستشرق أن ابن خلدون تحدث في قضايا كثيرة سبق بها الغربيين مثل حديثه عن مذهب الجبر الاجتماعي وحديثه عن " وظيفة الدولة ومفاسدها " والسلطات السياسية وطبقات الاجتماع وكذلك وجد عند ابن خلدون نظرية في " الملائكة وتقسيم الأموال " كما سبق الغربيين في حديثه عن المبدأ الجديد، " لكل بقدر حاجته " ويخلص هذا المستشرق إلى أن آراء ابن خلدون في كيان الجماعات الإنسانية في كيانها المركب - تجعله في أسمى مراتب الفلاسفة المؤرخين وأن ما يعزوه من شأن كبير إلى العمل والملاكة والأجرة يجعله سلفاً وإماماً لاقتصاديين هذا العصر .

ظهرت دراسة المستشرق الايطالي ( مقدمة لدراسة ابن خلدون ) في اللغة العربية في / ٥ (مايو) أيار عام ١٩٢٥ / على صفحات اسبوعية ( الميزان ) الثقافية التي أسسها في دمشق الناقد المترجم الفلسطيني " أحمد شاکر الكرمي " الأخ الأكبر للشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى ) والأبن البكر للشیخ سعيد الكرمي رئيس المجمع العلمي في دمشق .

ترجم الدراسة الأديب والكاتب "عمر فاخوري " ..... لتكون في متناول القارئ العربي والباحث المتتبع للفكر الخلدوني (٩) .

### ابن خلدون : معالم حياة

ولد عام ١٣٣٢ في تونس وتوفي في القاهرة عام ١٤٠٦ - يكون قد عاش (٧٤) أربعة وسبعين عاماً تقلب خلالها بين المناصب الأدبية والسياسية والقضائية . بدأ كاتباً عند سلطان تونس .. وانتهى إلى منصب قاضي قضاة المالكية في مصر ..

امتدت حياته الفاعلة لأكثر من خمسين عاماً ، إذ دخل معترك الحياة قبل العشرين، وقام بمهمة سياسية خطيرة عند المماليك ....

أربعة أعوام امتدت من ١٣٧٥ - ١٣٧٨ ، اعتزل فيها الحياء العامة وانزوى في " قلعة ابن سلامة " ليبدع أثره الخالد - المقدمة التي ضمنت له الخلود بين أعظم رجال الفكر في

العالم، كتب مقدمته هذه عام ١٣٧٧ بعد أن وصل منتصف العقد الخامس من عمره .. وقد شاهد وعاش تجارب كانت من العوامل التي وجهته ليكتب هذه المقدمة .

بعد أن كتب كتابه الخالد - المقدمة في التاريخ، رحل إلى مصر وبقي فيها إلى آخر حياته ...

تولى سفارة مصر إلى سورية - دمشق - وحصل اللقاء الشهير بين الفيلسوف العربي، والفاتح المغولي تيمورلنك عام ١٤٠١ م .

لم ينحصر نشاط هذا العلامة في ( تونس ) مسقط رأسه ومصر مشوى رفاته، بل شمل معظم أقطار الوطن العربي ذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وزار المقدسات في القدس العربية واشترك في الدفاع عن دمشق عندما غزاها " تيمورلنك " عام ١٤٠١ م .

ولعل هذا ما دعا " فيليب حّتي " إلى القول في كتابه " مختصر تاريخ العرب ": لقد كان ابن خلدون أكبر فيلسوف ومؤرخ أخرجته الإسلام كما كان أحد أعظم الفلاسفة والمؤرخين في كل العصور ..

تميز ابن خلدون بأسلوبه العلمي، لم يكتب كأديب وإنما كتب ليثبت وقائع أو معلومات أو فشاهدات .. إضافة إلى أن كتاباته في موضوع لم يسبق إليه، فرضت عليه أن يوجد كلمات جديدة وأن يستعمل كلمات في معان ليست معروفة أو متداولة وعلمية الأسلوب والاتجاه لم تمنع ابن خلدون من الإشارة يقدمها على شكل نصيحة حول أهم الكتب في التراث العربي حين يقول: " .... سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فنّ الأدب وأركانه أربعة دواوين هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب " الكامل " للمبرّد، وكتاب " البيان والبيان " للجاحظ، وكتاب " النوادر " لأبي علي القالي وماسوى هذه الأربعة، فتبع لها وفروع عنها " المقدمة ص ٣٥٣، طبعة بيروت .

هذا قليلٌ مما قدمه ابن خلدون للحضارة الإنسانية وقد اعترف بفضل هذا كثيرون يقول (إيف لاكوست)، إن ابن خلدون لو وضع مع معاصره (فروسار) في كفتي ميزان لثالت كفة الأخير ولجأت الموازنة في غير صالح الفكر الغربي على كل حال .

وقال (جان مارسيه): " إن مقدمة ابن خلدون هي أحد المؤلفات الأكثر ضرورة والأكثر إثارة من بين المؤلفات التي قيّض للعقل البشري إنتاجها " .

وقال (توينبي) في كتابه (دراسة التاريخ): إن فلسفة التاريخ التي تخيلها (ابن خلدون) ثم بسطها في كتبه بدون شك أعظم إنتاج أبدعه أي ذهن في أي عصر وفي أي زمن ..

هذا بعض ما قدمه ابن خلدون الذي أثار بمقدمته الشهيرة اهتمام عدد كبير من العلماء  
والمفكرين العرب والأجانب، والذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي قرن التحول  
والانتقال إذا عاش من عام ١٣٣٢ إلى عام ١٤٠٦م  
وإذا وصلنا إلى مرحلة تؤهلنا لاستيعاب هذا المؤرخ الفيلسوف العظيم فسوف نجد في  
مقدمته الكثير من القضايا التي تشغلنا في وقتنا هذا، وتعمل على تحرير العقول وإيقاظ بذور  
الإبداع.





## هوامش:

- ١- مقدمة ابن خلدون<sup>١</sup> - اختيار وتحقيق سهيل عثمان ومحمد درويش - وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٨ ج ١ : ص ٥٦-٥٧ .
- ٢- المصدر نفسه ج ١ : ص ٨٠-٩٠
- ٣- المصدر نفسه ج ١ : ص ٤٤ .
- ٤- المصدر نفسه ج ١ : ص ٢٢٠
- ٥- المصدر نفسه ج ١ : ص ٥٣٨ .
- ٩- جريدة "الحياة" اللبنانية ، عدد ٢٢ تشرين الثاني لعام ١٩٩٥ .
- ٦- المصدر نفسه ج ١ : ص ٥٨٨ .
- ٧- المصدر نفسه ج ١ : ص ٢١٧ .
- ٨- المصدر نفسه ج ١ : ص ٣٥٢ .

## المراجع والمصادر :

- ١- من " مقدمة ابن خلدون " في السياسة والاقتصاد - اختيار وتحقيق: سهيل عثمان - محمد درويش - دمشق ١٩٧٨ .
- ٢- دكتور طه حسين، كتاب ( فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ترجمة عبد الله عنان - القاهرة ١٩٥٢ .
- ٣- ساطع الحصري - دراسات في مقدمة ابن خلدون، الناشر - مكتبة الخانجي بعصر ١٩٦١ - طبعة موسعة .
- ٤- إيف لاکوست، كتابه ( ابن خلدون واضع علم ومقرر استقلال - ترجمة زهير فتح الله - منشورات مكتبة المعارف، بيروت ط ١٩٥٨ .
- ٥- دكتور محمد أحمد الزعبي - مجلة دراسات عربية عدد (٩) تموز ١٩٨٣ ص ٧٧ وما بعدها .
- ٦- مجلة التراث العربي عدد (٢٣) نيسان ١٩٨٦ .
- ٧- جريدة ( الحياة) لبنان - الأربعاء، ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٥ ، ابن خلدون وميكافيلي (دراسة مترجمة) .
- ٨- (المجلة) القاهرة عدد (٦٠) ١٩٦٢ كانون الثاني ، بعض وقائع مهرجان ابن خلدون - أول كانون الثاني لعام ١٩٦٢ .
- ٩- أحمد العناني - مجلة " الدوحة " ، عدد (١١٠) شباط ١٩٨٥ ، مقال بعنوان تاريخ علم التاريخ ص ١١٨ .





## الفصل الثاني

### أعلام محدثون



## عمر فاخوري (١٨٩٥-١٩٤٦)

### من أدب الكاتب إلى أدب الواقع

#### عمر فاخوري

#### في حياته أكبر منه في أدبه

كان مع رفاق له تلتهب صدورهم لصوت فتى يؤنسهم بين الحين والآخر بشعر يستحث العزائم.... كان الصوت للشاعر " عمر حمد " أحد الشهداء العرب عام ١٩١٦ الذي كان مع رفيقه عمر فاخوري أصغر الثوار الذين شغلهم " نهوض العرب ".

وبينما كان " عمر حمد " يشعل الدّم بالشعر كان عمر فاخوري يجيب الكلاسات رامية عن سؤال جعله عنوان دفتر صغير له : " كيف ينهض العرب ؟ ".

طبع دفتره الصغير هذا ، وصل الأمر إلى الوالي الذي أمر بنفي الكاتب ، ثم عفا عنه لصغر سنّه بعد وساطة قريب له بشرط أن يُتلف الكتاب !!

خبّا عمر نسخاً قليلة من الكتاب في دكان والده ، يقول رثيف خوري " ... شدّ ما كان يأسف عمر كلما ذكر هذا الكتاب لأن أهله أثلفوه كي لا يظفر الأتراك بجملة منه فكان عمر يقول بأسلوبه الظريف : " أراد الأتراك إعدامي فافتداني المرحوم أبو عمر (يعني والده) بأن أعدم الكتاب ".

حين علق " السفاح " الشهداء العرب على أعواد المشائق ومنهم رفيقه ، الشهيد (عمر حمد) سارع عمر فاخوري إلى دكان أبيه وحمل إلى الجماهير ، ما كان قد خبّاه من نسخ كتابه " كيف ينهض العرب ؟ ".

...

لم يعد عمر فاخوري بعد أن حمل شهادة الحقوق من فرنسا رومانسياً ، كما عاد محمد ن هيكل ليكتب روايته ( زينب ) ولا عاد - كما عاد توفيق الحكيم ليميش في برجه

العاجي ويكتب مسرحياته الذهنية... ولا كما عاد (طه حسين) ليعيد النظر في تاريخنا الأدبي على ضوء المناهج الغربية.

لا بل عاد عمرفاخوري واقعياً، يرفض (أدب الكتب) ليدعو إلى (أدب الحياة)، ويرفض أدباء الأبراج، أدباء الورق، ويطالب بأديب الواقع أديب من لحم ودم.. وبذلك كان من أوائل الذين أطلقوا الصيحة ضد الرومانسية الهروبية في الأدب العربي، كان ذلك في نهاية الأربعينيات وهو وقت مبكر لإطلاق هذه الصيحة، ورأى أن على الكاتب أن يعمد الناس بالغبطة والحماسة والاندفاع في سبيل الآخرين وأن يجعلهم يلقون نظرة على الواقع ويفكرون.. "لا كيف يعيشون بل كيف يصح أن يعيشوا" .. وكانت كتبه دعوة للناس كيف يصح أن يعيشوا.. فقد عمده كتاباه (الباب الموصود) و(الفصول الأربعة) أديباً ناقداً.. كما عمدته كتبه الأخرى (أديب في السوق) و(الحقيقة اللبنانية) و(لا هواده) كاتب نضال كما يقول (مارون عبود) (١) .. وقد انطلق عمر فاخوري من أن الأدب الشعبي هو الجذر لكل الإبداعات.

الكون والحياة ينبوعان لا يشح سيلهما عنده، كون لا تنفد روائعه، وحياة لا تزال متطورة متحولة فكانها بحث مستمر في خلق جديد والحياة والناس لهما وجود حقيقي ولهما قيمة فلا تعتبر العناية بهما عبثاً ولهواً وإنفاقاً للعمر من غير طائل.. وبأن الحياة جديرة بأن نحياها حتى لا نتحول إلى كائنات ممسوخة.. وهذا ما جعل "عمر فاخوري" ابن زمانه حسب مقولة الرسام الفرنسي (دومه) يقول: "يجب أن نكون من زماننا وفي زماننا ولزماننا" ثم صار كما شاء وظل أديباً مناضلاً كبيراً، وصار عظيمًا حين جعل حياته مثلاً حياً واقعياً لما يدعو إليه، من مبادئ وأفكار واختلف عن المتعاطفين الذين وصفهم السيد المسيح "بأنهم يشبهون الطيور التي يزين ظاهرها الرخام بينما باطنها يعج بالديدان" ..

إن ارتباط عمر فاخوري بزمته جعله يحارب الغموض وإرسال الجمل المجردة والتعابير المطلقة التي لا تعني شيئاً يخص الواقع لأنها غير مرتبطة بظروف معينة من زمان أو مكان كما حارب المفكرين الذين يتخبطون على تخوم النظريات الغيبية، ووقف مع هؤلاء الذين يستحون من الواقع وحين تحدث عن الواقعيين قال: "إن ذلك الذي يدعى شكسبير أو بلزالك القادر بعد الله على خلق عالم جديد عن طريق القلم - عالم يقوم على تخوم الواقع والأبجدية..".

## ضد الأدب الجاهل:

حمل عمر فاخوري على الأدب المداجي وأدب القوالب المستعارة والتشابه الجاهزة لأنه أدب مقلد، أدب مقولات مكررة، يتزاحم أصحابه بالمناكب في طريق قد سلكها غيرهم كثيرون....

كما يهاجم الشعراء الذين هم حفظة نصوص بحيث لوقطعت شرايينهم لما أخرجت إلّا حبراً، ولو مزقت لحومهم لما أخذت إلّا ورقاً ١١ إنه يسخر من الأدب الذي ينهمك في تلفيق المعاني وتزييق المباني ...

انطلق يكتب وينقد بأسلوبه الساخر بحيث صارت السخرية هي الطابع العام لأدبه وكم كانت مقالاته السياسية زاخرة بالنكتة وقوة التعبير إلى جانب انطباقها على الواقع الذي يصوره وقد تحدث بعضهم عن التصوير الكاريكاتوري في أسلوبه لكنه يمتاز بأنه يحمل قيماً جمالية وشعرية وفكرية لا يتسع لها مجال الكاريكاتور .

إن عمر فاخوري الذي آمن بالشعب واكتشف أن في المجتمع حياة زاخرة، لا تعدّ حياة أي فرد مهما يكن عظيماً أزاءها شيئاً مذكوراً وأن الجماهير التي تتعب وتكدح لتحقيق مطامح وأمالها وأن لها مثلاً عليها تتوق إليها وتتطلع نحوها.

وكما آمن بالشعب، آمن كذلك بالأدب الذي يصدر عنه واعتبر أن كنوز الفقراء من الأدب الشعبي هي الجذر لكل الإبداعات وحذر ضعاف النفوس الذي يسوقون بعض الأمثال الشعبية داعين الناس إلى الاستسلام لأن " العين لا تقاوم المخرز " حذرهم قائلاً إن التاريخ قد عرف حواراً يدور بين تلك العين وذلك المخرز ودائماً كان ينبت للعين ظفر وناب.

إن للمبالغة وظيفة فنية يجب أن تؤديها والأديب الحق هو الذي يتخلّى عن المبالغة إذا كانت تحمل الغرور والصلف والادعاء ولذلك كان من رأيه أن الواقعية هي الحل، والمقصود بالواقعية عنده الواقعية الاشتراكية التي تأخذ الأمور من الواقع في مجرى التطور الدائم والواقعية هذه لا تجافي الرمزية ولا الرومانسية وإن كانت لا تنساق وراء شطحاتها كما لا تذعن فقط للطبيعة وما فيها من جمال.... وقد حدد عناصر الواقعية الاشتراكية بأنها وضع عام واقع يُقدم للأديب المعطيات الخام، وثقافة إيجابية متفتحة على الواقع الحي النامي المتطور، حيث الواقعية الأصلية عنده هي تفاؤل وإيمان بالتقدم الحتمي للجنس البشري ..

ولعل صواب نثرات كاتبنا إلى الواقع ينبع من عمق استيعابه للنظرية العلمية في الطبيعة والفكر والمجتمع التي جعلته يرفض كل نظرة سكونية، حيث لا ثبات لشيء، وكل شيء يتغير وهذا ما طبّق في تعامله مع القيم والتراث وكل شيء .

إن إيمانه هذا جعله يثبت في المواقف الحرجة التي يثس فيها الآخرون وارتفع صوته حين خُفِضت أكثر الأصوات وتحت عنوان - كلُّ شيء يتغير قال: " حتى النازية التي كان لها لبدة الأسد تغيرت هاقد نبت لها في الصقيع الروسي صوفُ حمل للدفع وفي القيقز الإفريقي، ساقا نعمة للهرب

إن إيمان (عمر فاخوري) بالواقعية، لم يجعله يهمل ذاتية المبدع بل كانت كتاباته كلها تنبض بالذات الإبداعية عنده، وأن هذه الكتابات ملكه الشخصي وعليها ماركته المسجلة كما يقول (مارون عبود) (٢٢).

والذاتية هذه عنده لا تعني إهمال الجهد والعمل الدائمين لأن الإبداع عنده حصيلة جهد ومعاونة وإذا فقدهما العمل الفني انقلب إلى حبر وورق لا قيمة له، لأن الأدب استعداد وجهد والاستعداد وحده لا يكفي، فلا بُدَّ من جهد دؤوب وصبر طويل، ذهب عمر فاخوري إلى باريس يدرس الحقوق على نفقة عمِّه في الوقت الذي كان مولعاً بالأدب فاضطر إلى تقسيم وقته كي يرضى نفسه، ويرضي عمِّه يلتهم في النهار الآثار الأدبية وفي المساء يدرس الحقوق حتى ناله الشهادة... وفي هذه الأثناء درس معظم الآثار العالمية الأدبية المعروفة وقال ( أناتول فرانس) ١ (١٨٤٤-١٩٢٤) محبة كاتبنا .

كان من المولعين بشراء الكتب فإذا وجد سعر الكتاب أكثر مما كان يظن هز رأسه وقال: لا بأس استعِض عن عشاء الليلة بهذا الكتاب وللدلالة على أهمية الكتاب في حياته نسوق قوله الشهير: " إن الكتب التي طالعتها هي أعظم حوادث حياتي "

### عمر فاخوري ... رائد تحديث

فتح الباب للتجديد في الفنون عامة والشعر خاصة حين قال: " ... إن العرب لم تستعمل في نظمها جميع الأوزان وأن الباب مفتوح لموازين أخرى " وقد وجد في تراث العرب ما يؤيد نظريته هذه فحين رجع إلى مقدمة ابن خلدون بشأن الموازين وجد قوله: " ليس كل وزن يتفق مع الطبع استعملته العرب ... وحين قارن عمر فاخوري هذا القول مع قوله عن - الموازين الطبيعية - وجد أن ابن خلدون قد فتح الباب علي مصراعيه للأوزان غير مستخدمة في الشعر العربي ويتابع قائلاً " لعل العرب سموها إيجراً لأنها متزامية الأطراف يتصل أحدها بالآخر ويتولد بعضها من بعض إلى ما لا يكاد ينتهي .. "

١ كاتب روائي فرنسي منح جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٢١



وفي سبيل هذه الحداثة التي يراها لا تنف عن التجديد كان نقده الأدبي الذي لم يوارب ولم يدار، فحين يقارن بين جبران وشوقي يرى أن ما يفيض عن جبران يروي بطاح المستقبل، بينما سفتح شوقي عبقريته على هضاب الماضي .

وينقد ( الزهاوي ) بأسلوبه التهكمي الساخر مسلطاً الضوء على كتاب للشاعر الزهاوي عنوانه ( أشراك الداما ) اخترع فيه مئة لعبة استنبط لتصويرها طريقة بالأرقام، وألف الزهاوي (رباعية في الشعر ) وأصاب من الشهرة في عصره ما أصاب ولكن هذا لم يمنع من النقد اللاذع، " وإذا كان كثير الاختراع في الداما فهو قليل التوليد في الرباعيات وإذا كان للداما أن تخلد إسماً فهي التي ستخلد اسمه : صاحب المئة اختراع بعد الخمسة وستة وسيفال في ترجمته في ذلك الموضع : كان أيضاً ينظم الشعر " .

كان عمر فاخوري أول من ترجم إلى العربية الدراسة الهامة للمستشرق الإيطالي "استيفانو كلوزيو" التي كتبها أواخر القرن التاسع عشر يقارن فيها بين شخصيتي: ابن خلدون وميكافيلي، تحت عنوان "مقدمة لدراسة ابن خلدون"، ساق فيها أوجه الشبه والاختلاف بين الفيلسوفين متوصلاً إلى اعتبار الأول رائداً لعلم جديد كان له قصب السبق في ارتياده ووضع أسسه والمقصود به " علم النقد التاريخي " وبأني في ذلك قبل قرون من ظهور كل من ميكافيلي ومونتسكيو وفيكو وثلاثتهم فلاسفة أوربيون اشتغلوا في التاريخ وفي السياسة وعلومها وكانوا رؤساء مدارس في هذه الميادين .

نشر عمر فاخوري ترجمته لهذه الدراسة على صفحات اسبوعية " الميزان " الثقافية الجامعة في دمشق في أيار عام ١٩٢٥ كما سبق .

والذي دفع كاتبنا إلى ترجمته هذه الدراسة (٣)، القضايا الحية المعاصرة التي اكتشفها هذا المستشرق عند العالم العربي الفذ " ابن خلدون " .

### وظيفة الأدب

إذا كان العلم لتمكين الإنسان من السيطرة على قوى الطبيعة والاقتصاد لأمواله المعاشية والسياسية لأمواله الاجتماعية فإن الأدب يختص بهندسة النفوس البشرية وينطلق لحماية القيم الروحية والضمير الإنساني.. فإذا تضافر النضال الروحي مع النضال المادي أصبحت لقمة العيش قادرة على الارتقاء بالنفس والروح بدل أن تشوهها، يستشهد عمر فاخوري بكلمة للكاتب الفرنسي ( لاسين ) جاء فيها: " لا نكتم أن مانجاهد من أجله ليس أسباب معيشتنا المادية فقط، بل أسباب حياتنا الروحية أيضاً .." .

وهنا يطلب (عمر) من الأدباء أن يقللوا من التبحر برسالاتهم ويكثروا من الحديث عن وظائفهم لأن الأديب كائن اجتماعي له وظيفة تجعله لا يترفع عن الوقائع البسيطة التي تتألف منها حياة الناس اليومية لأن الأدب الحقيقي يتناول أي موضوع ويبدع فيه فناً رفيعاً .. الجاحظ كان عظيماً في إبداعه من خلال تصوير الشحاذين والبخلاء في عصره ... وإذا كانت حياتنا ذميمة فليكن أدبنا من شهود الاتهام لأن السكوت عن الرذيلة كتمان لها وإغراء بها ..

### الفن .. موقف إنساني

هذا ما نطلق منه عمر فاخوري مُستلهماً مقولة " ماركس ": " إن الفن أسمى درجة من درجات الفرج يمكن أن يهبها الإنسان لنفسه " .

وموقفه من إنسانية الفن جعله يعترف بفضل السابقين له ، لأن العبقرى في رأيه مدين للذين تقدموه ، وأنه بذلك أكثر الناس ديناً كما أنه أكثرهم غنى ولعله يعبر عن إيمانه هذابين يقول معترفاً بفضل السابقين : " إن الكتب التي قرأتها هي أعظم حوادث حياتي " ، نعم صار أكثر الناس غنى بالأفكار التي تحولت عنده إلى عمل لإيمانه بأنه ليس بكافٍ أن نقول بل يجب أن نعمل ما نقول ، وفي سبيل تحقيق هذا الشعار ، قضى حياته معلماً ومتعلماً ، ولم يقل يوماً - أنني ختمت أو وصلت - ومن أجل ذلك هجر البرج ونزل إلى الساحة ورأينا من خلال نزوله هذا كيف يسن الأدب على الواقع وكيف يصبح الأديب رجل فكر ورجل عمل دون أن يتخلى عن فنية الأسلوب وانطلاق الخيال .. وحطم بذلك الحواجز الوهمية بين الفكر ( المبدع ) والجمهور .. إن إيمانه بعظمة من سبقوه جعله سليل الكبار المؤثرين في تاريخنا : ( الجاحظ ، المعري ، المتنبي ) كما كان سليل الكبار في الأدب العالمي أمثال فولتير وأنتون فرانس تدور الدعابة الساخرة على لسانه ، ويُعالج أعقد المسائل بأمتع أسلوب وأخطر الموضوعات بابتسامة محببة .. كما أن روحه المفتحة جعلته يولع بالجديد دون أن يتنكر للقديم .

الفن موقف ، يعني ذلك أن ادعاء الحياد أمر باطل وكبي نحصل على فنان حيادي علينا أن نجرده من العاطفة والإنفعال والشعور ومن يزعم أنه يستطيع الوقوف على الحياد فإنما يقف بالحقيقة . إلى جانب القوى المضادة التي تعيق التقدم .. وعندما ترفض إحياء فائت في خضم قضايا الناس .. ومن له مثل إيمان عمر فاخوري فلا يمكن إلا أن يكون مع التقدم مع الحياة في تطورها الدائم إلى الأمام وتحمل في سبيل ذلك الكثير ، قال (مارون عبود) حول هذه النقطة : " لقد وطدت كتب عمر فاخوري إيماني بأن الأديب الأصيل لا يتخلى عن خصائصه حتى في قاع جهنم .... "

وبسبب من حرارة إيمانه بالمبادئ التي وقف عليها حياته، فإن الكثير من آرائه مازال ينبض حيوية وثراء وكأنها تصوّر أحوالنا في يومنا هذا . فحين يتحدث عن الطائفة في لبنان يقول بأسلوبه اللاذع: " لقد أتى علينا زمن في لبنان وبين الطائفة والأخرى أو بين أبناء دين وأبناء دين آخر، كالحُدود التي تفصل وطناً عن وطن .. كدنا نحتاج إلى جوازات سفر بين الطوائف والأديان ".

وحين يطالب باستقلال لبنان - بدا وكأنه يتحدث عن كثير من أقطار الوطن العربي الكبير: " لا نريد استقلال لبنان فحسب بل نريد استقلال الشعب اللبناني أيضاً، واستقلال الشعب يعني تحرير جماهيره من كافة ألوان الضغوط .. ".

وهو الذي كتب منذ عام ١٩٤٢م بأن الوطن لا يكون سليماً مُعافى إلا إذا كان وطن الجماهير، يشعر الناس فيه أنهم " مواطنون لارعايا "

في ختام هذه الأسطر القليلة عن كاتب مناضل كبير نقول: " ماأحوجنا إلى أمثال - هذا الرجل - الذي عاش بما آمن به، وآمن بما عاش من أجله، الذي عاش ماكتب وكتب ما عاش فصدق مع نفسه وصدق مع الناس وبذلك تكمن روعة نتاجه وعظمة مواقفه واستحق الخلود عند الذين يؤمنون بالفن موقفاً من أجل حياة أجمل.



## مراجع

- ١- عمر فاخوري كتابه الباب المرصود طبع عام ١٩٣٨.
- ٢- عمر فاخوري كتابه لاهوادة، طبع عام ١٩٤٢.
- ٣- عمر فاخوري كتابه أديب في السوق ١٩٤٤
- ٤- عمر فاخوري كتابه الفصول الأربعة.
- ٥- عمر فاخوري كتابه الحقيقة اللبنانية ١٩٤٥.
- ٦- مجلة الثقافة الوطنية عدد خاص في ذكرى عمر فاخوري العاشرة، تموز - آب، ١٩٥٦.
- ٧- جوزيف حرب - عمر فاخوري سر الشعب إلى الأدب - بيت الحكمة - بيروت ط ١ تشرين الثاني ١٩٦٩
- ٨- حنا عبود - المدرسة الواقعية في النقد الأدبي الحديث، طبع وزارة الثقافة ١٩٧٨، بحث بعنوان عمر فاخوري زعيم الواقعية الجديدة من ص ١١٥ إلى ص ١٥٤

## هوامش:

- ١- مارون عبود، جدد وقدماء - دار الثقافة، بيروت ١٩٥٤، ص ٧١.
- ٢- في كتابه جدد وقدماء ص ١٨٧.
- ٣- أعادت صحيفة ( الحياة ) في لبنان نشر هذه الدراسة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٩٥.



## جبران من رواد الحداثة

جاء في مقال الدكتور مُحبي الدين صُبحي في تحية للشاعر القروي المنشورة في مجلة (الوحدة) العدد الثاني لشهر تشرين الثاني لعام ١٩٨٤ ص ١٠٦- أن جبران نقل إلى الأدب العربي مَرَض العصر فابتلى أدبنا بالسوداوية والركاكة وسقط جبران في وحل الطائفية الإقليمية وأساء إلى الأدب من حيث كونه لم يتقيد بقواعد الأجناس الأدبية: الشعر المثنور، قصيدة النثر، القصة الشعرية ...

والسطور التالية لا تمثل ردّاً على دكتور محبي الدين صبحي بقدر ماتكشف دور جبران في كونه أحد رواد الحداثة في حياتنا الأدبية الفكرية: لم يكن لجبران خليل جبران الذي امتدت حياته حوالي ثمانية وأربعين عاماً من ١٨٨٣ إلى ١٩٣١م لم يكن له فلسفة محددة الخطوط واضحة المعالم بقدر ماكانت الحياة عنده ثوره وتمردا كما هي عند الفيلسوف الالماني ( نيتشه) لأن اضطراب الحياة العربية آنذاك من كافة النواحي لم يترك المجال أمام المبدعين ليرسموا معالم فلسفة واضحة أو كي يبدعوا فناً يحتاج إلى الاستقرار ... ولعل وجود هذا السبب هو الذي لم يمكن جبران من أن يصب أشواق روحه في روايات أو قصص قصيرة أو شعر .. وكأنه شعر أن أيّاً من فنون الأدب لا يستطيع استيعاب ثورته وتمرده .. لذلك مارس كتابة القصة القصيرة كما استطاع أن يفهمها في كتابين هما ( عرائس المروج ) و (الأرواح المتمردة) ضمنهما حملته على الإقطاع والتقاليد البالية، واستغلال بعض رجال الدين، وكشف استغلال اصحاب الأموال لفقراء الفلاحين الأمر الذي جعل جميع المستغلين يناصرون جبران العداء المرير... وكتب جبران الشعر في (المواكب) الذي كان حواراً شعرياً حول أهم مايورق الإنسان في حياته مثل: العدل والسعادة والحق والحرية والخير والشر .. كذلك كتب المقال كما عرفه من الغربيين في أيامه في الثلث الأول من القرن العشرين .. وكان نفس جبران الثائرة رفضت أن تُسجن ضمن خطوط - ولو كانت عريضة لفن أدبي، له ضوابط وتقاليد .. وربما لهذا السبب كان أغلب الأدب الجبراني خواطر متناثرة، ومقالات كما في كتابه ( البدايع والطرائف) الذي تحدث فيه عن مفكرين لامعين مثل: ابن سينا والغزالي وابن الفارض وجرجي زيدان ... وغيرهم.

إن نظرة محايدة إلى ما ترك جبران من آثار، تشير إلى أن مرور أكثر من ستين عاماً على وفاته وحوالي أكثر من مئة عام على ولادته لم تغير كثيراً من موقعه كرائد من رواد الحداثة في حياتنا المعاصرة ..

مثلاً حين يقول: " الحق، الحق أقول لكم: إن حبة الحنطة التي تقع على الأرض إن لم تمت تبقى وحدها وإن ماتت أنت، بثمر كثير..." ولا أعرف نقطة أكثر وضوحاً وثورية - في زمنها - من هذه النقطة تتمحور حولها كل نضالات الثوار الذين يعملون من أجل هذا الوطن العربي في التحرير والتقدم .. إنها تشكل محوراً هاماً في حركات المقاومة فوق الأرض العربية المحتلة .. إنها لا تغيب عن وجدان هؤلاء الذين يرون الموت العالي - موت الشهداء - هو بداية الحياة الكريمة المجيدة للشعوب .

### جبران ضد الاغتراب ..

نشعر في كثير من الأحيان كأن جبران يعيش بيننا الآن يحذرنا من الاغتراب الذي يعيشه الكثيرون منا فيتحولون مع هذا الاغتراب إلى صف الأعداء، يقول (جبران): " إن المغترب ليس عدواً واضحاً لمجتمعه ولكنه يقف في صف الأعداء "، ويقول كذلك: " أنت صالح يا صاحبي إذا كنت تشعر بإنسانيتك وكرامتك، وإذا كنت تشعر بأن في حياتك ما تعمله لأن الإنسان الذي يؤمن بهدف ما، يريد الوصول إليه، لا يتطرق اليأس إلى روحه رغم توافه الحياة اليومية التي تقربنا في كثير من الأحيان من حافة اليأس..."

يحذر جبران من الاغتراب السلبي الذي هو إهدار لقدرات الإنسان الخلاقة والقضاء على هذا الاغتراب يكون بالعمل الذي يحقق وجود الإنسان وحيته . إن جبران هو القائل: " (لا تصدق أن الدهر يرفعك أو يخفضك فمصيرك بين يديك، لا تتكل على الأماني فهي بضاعة الموتى..."

### الحياة: أخذ وعطاء

إن جبران الذي رحل عن دنيانا منذ أكثر من ستين عاماً مازال يعلمنا أن روعة الحياة تكمن في الأخذ والعطاء، هكذا تعلمنا الحقول: " إن لذة النحلة قائمة على امتصاص العسل من الزهرة ولذة الزهرة تكون بتقديم عسلها للنحلة .. النحلة تعتقد أن الزهرة تؤمن أنها رسول المحبة، كلاهما تؤمنان أن العطاء والأخذ حاجتان لا تنفك عنهما لمن يريد أن يعيش سعيداً ولذة العطاء لا تقل إسعاداً عن لذة الأخذ، إن لم تتفوق عليها..."

إن القراءة المحايدة تظهر أن جبران مرتبط بأرضه وأن افتتاحه بالغرب وما فيه من أفكار وخاصة نيتشه في كتابه " هكذا تكلم زرادشت " لم ينسه حبُّه لوطنه فعلى سبيل المثال كان النبي الذي اختاره كي ينطق باسمه، ويحمل أفكاره عربياً سَمَاه (المصطفى) وكذلك إخلاصه لوطنه يتجلى من خلال حديثه عن الريف الذي ولد فيه، يقول جبران: " سرنا مع تيار المدنية حتى نسينا أو تناسينا فلسفة الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة، تلك الحياة التي إذا ما تأملناها صيرناها مبتسمة في الربيع مُثَقَلَة في الصيف مستقلة في الخريف مرتاحة في الشتاء، نحن أكثر من القرويين مالاً وهم أشرف منّا نفوساً، نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة الخوف واليأس والملل وهم يرشفونها صافيةً .."، قال جبران ذلك على الرغم من أنه كان مجبراً على الرحيل من وطنه كي يعيش .. ومع ذلك يرى أن البعد عن الأرض يقود إلى الموت المعنوي إن لم يكن الموت المادي وهذا مفهوم مبكر نفذت إليه بصيرة جبران ليصبح بعد نصف قرن من رحيله عن هذا العالم، أحد الهموم التي تتورق كبار المبدعين في وطننا العربي .. كان الارتباط بالأرض هو الحرية .. والابتعاد عنها هو الموت - محور رائعة غسان كنفاني الروائية (رجال في الشمس) كما كانت الفكرة نفسها هي محور عمل جبرا ابراهيم جبرا الروائي (السفينة) وهي كذلك محور المسرحية الغنائية (غربة) التي شارك في كتابتها محمد الماغوط، وعبارة جبران التي تلخص موقفه من هذه القضية الهامة تقول: "ولهذا أنا غريب وسأبقى غريباً حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني".

في كثير من الأحيان نشعر كأن جبران يعيش بيننا وكأن هذا الفكر القادر على السفر نحو المستقبل ليضيء لنا الدرب نحن الذين نعيش الآن نقول: وكان هذا الفكر ليس لأنسان نتذكره بعد حوالي ستين عاماً من وفاته .. وإذا صادف أن احتفلنا بمرور ستين عاماً على ولادة أحد المفكرين ممن يعيشون بيننا فهل نجد عنده من الأفكار المضيئة مثل ما يمكن أن نجده عند جبران؟

### جبران يدافع عن الفكر العربي

إن أحد الهموم التي تشغل بال المفكرين العرب التقدميين اليوم - أواخر القرن العشرين - هو رفض النظرية الاستشراقية التي نشأت في ظل الاستعمار والتي تحرم العرب أو تستكثر عليهم الإسهام ولو قليلاً بالحضارة الإنسانية .. وكان بصيرة جبران تأبى إلا أن تُسهم في الرد على هذه الافتراءات حين يؤكد أن الحضارة العربية جزء مهم وإسهام فعال في الحضارة الإنسانية، وحين يؤكد أن الفكر العربي مكمل للفكر اليوناني وهو في الوقت نفسه حلقة ذهبية ربطت بين فلسفات الشرق المثالية وفلسفات الغرب المادية ويرى أن (ابن سينا) يجمع في قصيدة واحدة عن (النفس) ما قاله شكسبير، وتشلي، وغوته وغيرهم ..

وإذا كانت بعض الكتب الهامة اليوم مثل كتاب " النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية " للدكتور حسين مروة"، تحاول إثبات أن الشرق ومنه الوطن العربي ليس متخلفاً بطبيعة تكوينه العقلي والنفسي وإنما يعود ذلك إلى ظروف اجتماعية اقتصادية لها أسبابها المختلفة .. فإن جبران قد قال ذلك منذ مطلع هذا القرن " ليس الشرقي أرقى من الغربي ولا الشرقي أحطّ من الغربي " .. وإنما رُقّي الإنسان وانحطاطه رهناً بالظروف الاجتماعية والاقتصادية حوله ، وإذا كان العبد الذي يعلم حالة استعباده ويناضل ضدها هو إنسان ثوري كما يقول ( لينين ) فإن جبران غير بعيد عن هذا الثوري حين شعر أن أبالسة الخمول تقود مواطنيه وقيود العبودية تتمسك بأقدامهم .. فحاول أن يُضيء درب التمرد والثورة.

### جبران .. الواقعي :

حين يقول جبران عن ( ابن سينا ) - تلميذ أرسطو- إنه أدنى إلى مُتقدي وأقرب إلى ميولي، فإنه بذلك يحدد موقعه إلى جانب الفكر المرتبط بالواقع والذي يتعامل مع الواقع تعاملًا علمياً. وهذا - حسب ظني - هو ما قاد جبران إلى أن يرتضي الفقر قناعةً، ويتمرد عليه ظمناً لأن الفقر والظلم ليسا قدرين من السماء.

كما كان علمياً واقعياً عندما آمن بقدرة الإنسان على المواجهة مهما اشتدّ الظلام حوله ، وعليه ألا يبقى في مواقفه السلبية مهما اشتدّ ضغط الظروف يقول: " كنا نشكو الدهر وصرنا نواجهه، كنا نخاف العواصف وصرنا نقصدها.. كنا نخضع للملوك والأصنام وصرنا لا نعبد إلا الحب، كنا فكرياً صامتاً وصرنا صوتاً...".

وحين ينهي كتابه " يسوع بن الإنسان " بصوت ( يوحنا ) الذي امتزجت فيه المعرفة بالعزم.. ينهي هذا الكتاب بكلمة " إنه النضال لاغير" يكون جبران قد جدد لنا منذ بداية هذا القرن الطريق نحو التقدم الحقيقي .

هذا بعض مما قدّمه جبران الذي بقي حائراً بين التصوير (الرسم) والكتابة إلى أن التقى في باريس المثال العظيم (رودان) في مرسمه وقد تحدث إلى جبران عن الفنان الشاعر ( وليم بليك) الذي أخذ الشعروسيطة يُعبر فيها عن رسومه ... وخرج جبران بعد هذا اللقاء والدنيا تتسع أمامه، يهتف: " لا تردّد بعد اليوم..."!

وقد جعل من ( وليم بليك) قدوة له، وبدءاً من هذا اللقاء سوف يكتب ويرسم حتى صار جبران الذي نعرفه، جاء الدرس إلى من يحب العمل حتى العبادة .. " أحب العمل ..



ولا أدع دقيقة من وقتي تمر بلا عمل، إن الأيام التي تكون فيها نفسي راقدة وفكرتي خاملة، هي عندي أمرٌ من العلقم واشد قسوة من أنياب الذئب..".

إن العمل عند جبران مقياس لإنسانية الإنسان ومن أجل العمل قدس العزيمة الجبارة التي تقهر مصاعب الحياة لتصل إلى الهدف الذي يعيش من أجله.."، يقول: "أنا فرح بوجود المصاعب في حياتي لأنني أريد أن أتغلب عليها؛ إذ لولا المصاعب لما وجد الجهاد والعمل ولكانت الحياة باردة قفراء مملة.. وقد كتب ذات يوم إلى (مي زيادة)، "أنا بركان صغير، سدت فوهته، فلو تمكنت من كتابة شيء جميل أو كبير لشفيت تماماً. إن ما فعلته لاشيء...".

هذا ما يقوله جبران عن نفسه شأن الكبار الذين يصيرون كباراً وهم يصنعون أنفسهم بالإرادة والعزم.. ولا يرضون عما قدموه لأنهم دائماً ينظرون إلى الأسمى والأرفع.

يمكن القول إن كتاب (النبي) هو عصارة حياة جبران خليل جبران، كما هو عصارة فكره إذ قد أعاد كتابته خمس مرات في خمس سنوات متواليات قبل أن يوضع في يد النشر كما تقول (بربارة نيبج) عن تاريخ الكتاب.

إن جبران كان من القلة النادرة التي تسبق زمانها، لتأخذ على عاتقها كشف الحقيقة وتمريضها من كل زيف، ولذلك يجوز لنا أن نقول: إن جبران كان أول العرب المعاصرين الذين اخترقوا بإبداعهم المحلية إلى نطاق عالمي رحب، حتى غدت شهرة جبران العالمية تفوق شهرته في وطنه العربي الكبير..

(و نبي) جبران مثال رائع في الحنين إلى الوطن، لأن محبة الذين حوله في بلاد الإغتراب - وتأثرهم به لم تخف عنه عزم العودة إلى وطنه وكان لابد لهذه المحبة أن تبسج أمام عزم العودة إلى الوطن قائلة: "إن محبتنا لا تقيدك وحاجتنا إليك لا تمسك بك، ولكننا نطلب إليك أن تعطينا من الحق الذي عندك لنعطيه لأولادنا، وأولادنا لأحفادهم...".

وعندئذ بدأ المعلم يلقي حكمه الشرق كما استوعبتها ذاته إلى أبناء الغرب، وكان الدرس الأول عن المحبة ذات المسالك الصعبة، لأن المحبة تطهرنا بنيرانها، وتستأصل الفاسد من ذواتنا المحبة تغربلنا كي نتحرر من القشور وتطحننا كي تجعلنا أنقياء كالثلج، ويقود الحديث عن المحبة إلى الحديث عن الأبناء الذين من وحي محبته لهم قال يخاطب الآباء: "...إنكم تستطيعون أن تمنحوا أولادكم المحبة ولكن لا تستطيعون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم، لأن لهم أفكاراً خاصة بهم، إن في طاقتكم أن تصنعوا المساكن لأجسادهم ولكن نفوسهم لا تقطن في مساكنكم، لأنها تقطن في مساكن الغد ولكم أن تجاهدوا كي تصيروا مثلهم ولكن عبثاً تحاولون أن تجعلوهم مثلكم، لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء، ولا تلت لها الإقامة

في منازل الأمم...". إن جبران بهذا المفهوم المبكر لعلاقة الأجيال - أوصراع الأجيال - كما يحلو لبعضهم أن يقول - يضع الأولوية للمستقبل ، ولم يكن كععض الذين عاصروه أو جاؤوا بعده يمشي إلى الأمام ووجهه - فكره - إلى الخلف .. إنه كان يعيش حاضره لينطلق منه إلى المستقبل ذلك المستقبل الذي هوالشغل الشاغل للمفكرين منذ القرن التاسع عشر.

كان كتاب ( النبي ) صرخة احتجاج ضد عالم يملؤه الشر وكانت الكلمة فيه إحدى رسائل جبران لتخليص البشرية من الشر المتجذر في حاضرها .. كان (النبي) رسالة إلى الإنسانية جمعاء قبل أن يكون عاصفة تجتاح الغرب كما يقول ( روزفلت ) وليس غريباً أن يكون هذا الكتاب من أروع ماترك (جبران) لأنه تحدث فيه عن علاقة الإنسان بالإنسان وهو الأمر الذي كان ومازال يشغل بال عباقره البشرية منذ أول الزمان ، وإذا كان كما يقال قد تأثر بكتاب ( هكذا تكلم زرادشت ) للفيلسوف الألماني ( نيتشه ) ، فإن تأثيره لا يعدو أن يكون اقتباساً لطريقته في مخاطبة الآخرين ، فكما أن ( نيتشه ) جعل من ( زرادشت ) وهو نبي ينطق بافكاره ، فإن جبران جعل من المصطفى لساناً ينطق من خلاله ليحدث الآخرين ، وفيما عدا ذلك كان كتاب ( النبي ) نتيجة معاناة طويلة وفلسفة اعتمدت على الحب الطاهر ، بخلاف فلسفة نيتشه المبنية على العنف ، والتي كانت أساساً لكثير من الأفكار العنصرية وكان يعيبُ جبران لو أنه وقع تحت سطوة أفكار نيتشه مثلما وقع تحت سطوة بعض أساليبه ويمكن القول بعبارة أخرى ، إن جبران في ( النبي ) معلّم يستخدم قالب نيتشه على طريقته الخاصة وبأسلوبه الخاص كما يقول دكتور ( ثروت عكاشة ) مُترجم كتاب ( النبي ) عن الإنجليزية إلى العربية ، وأراد جبران لمضمون كتابه أن يتوافق مع اسمه (النبي) فحرص على أن يرتفع بأسلوبه ، ليكون التأثير أبلغ واسرع فانتقى التشايبه وأبدع الإستعارات فجاء أسلوبه قريباً من الحكم المسبوكة لمعرفته أنها أعمق أثراً من الجمل الطويلة التي تأتي عفواً الخاطر ، بحيث يمكن اعتبار ( النبي ) جبران خطوة رائدة انطلقت منها الحداثة في العديد من المجالات وخاصة ( قصيدة النثر ) النامية في أدبنا العربي الحديث ، وفي هذا الكتاب تحدث جبران عن كثير من الأمور التي تهّم الإنسان في علاقته بأخيه الإنسان - كما سبق أن قلنا- قال المصطفى يخاطب البحر: " سيدور هذا الجدول دورة ومن بعدها سأتيك قطرة لاتحدّ إلى المحيط لا يحدّ " ، وفي كلمته الأخيرة لأهل ( أورفليس ) يقول: " عما قليل بعد هجمة قصيرة على أجنحة الريح ستحبيل بي امرأة أخرى " ولعله يريد أن يقول في هذا الكلام ، انه سيكون بداية لمن سوف يأتي بعده ويكمل رسالته وأنه سوف يبعث في فكر كلّ ثائر متمرد يقول: " الحق .. الحق أقول لكم أن حبة الحنطة التي تقع على الأرض إن لم تمت فإنها تبقى وحدها وإن ماتت أتت بثمر كثير " ألا يريد أن يقول " إنك إذا أفنيت نفسك في المجتمع تحولت إلى قوة هائلة تماماً مثل حبة القمح التي تنفنى في الأرض لتعود

سنا بل فيها الحب الكثير .. وما أروع بصيرة جبران التي نفذت إلى المستقبل في الربيع الأول من هذا القرن العشرين- فرأت الناس " يتحولون في المدن الكبيرة مع الأيام إلى فاقدي الإرادة ،إنهم يحترقون في أتون الحياة الضاري " ، لأنه في المدينة تتباعد قلوب الناس رغم قصر المسافات بينهم ...."

وعندما يتحدث جبران عن اللذة أوما يمكن أن نسميه السعادة يجدها في أن نعمل ونفلس وننتعب لأننا نجد في ذلك العمل اللذة المنشودة ،ونجد معها سبع شقيقات أحقرهن أوفر جمالاً من اللذة .. أي أن جبران يدعونا إلى العمل والبحث لأنه يشبع فينا الشوق إلى السعادة والطموح إلى المعرفة كما يعلمنا أن السعادة في الحياة قائمة على الأخذ والعطاء ...

ومن الحقول نتعلم أن لذة النحلة قائمة على امتصاص العسل من الزهرة ولكن لذة الزهرة أيضاً تكون بتقديم عسلها ... والنحلة تعتقد أن الزهرة ينبوع الحياة والزهرة تؤمن أن النحلة رسول المحبة ، والزهرة والنحلة كلتاهما تعتقد أن الأخذ والعطاء حاجتان لابد منهما في الحياة وسعادة لا غنى للحياة عنهما ..

وهنا نلمس واقعية جبران التي كانت السبب في بقاءه حياً نابضاً بالجديد، بينما أكل الزمن معظم معاصريه، تلك الواقعية التي ترى أن الحياة عمل دائم نحو التقدم وأن السعادة فيها قائمة على تبادل المنفعة فمثلما تحتاج الحياة للزهرة تحتاج كذلك للنحلة ، وأن عمل الإسكافي الذي يصنع الأحذية لا يقل شأنًا عن عمل الفنان الذي ينحت الرخام ليحصل منه النماذج الفنية وأن الريح لا تخاطب السنديانة الجبارة بغير اللهجة التي تخاطب بها أقصر أعشاب الأرض .. هذه حكمة الطبيعة التي هي عند جبران المعلم الأكبر، وتجلت روعة جبران عندما تحدث عن الجمال على أنه شيء نسبي وليس شيئاً مطلقاً فالجمال عند الحزين رقة ولطف وعند الغضوب قوة وبطش وعند الحارس بزوغ الفجر وعند العامل يطل من نوافذ الغروب وهو في ذلك يختلف عن ( نيتشه) الذي يريد في كتابه الآنف الذكر خلق الإنسان المتفوق جباراً كشمشون وشاعراً كداود. وحكياً كسليمان - الإنسان السوبرمان - فهو بذلك يكلف الطبيعة ما لا طاقة لها عليه - كما قيل.

وعندما يحدثنا جبران عن العطاء يلمس حقيقة إنسانية رافقت البشر منذ بداية الحياة يسأل: أليس الخوف من الحاجة هو الحاجة بعينها؟ أليس الظلم الشديد للماء عندما تكون البئر مليئة هو الظلم الذي لا يرتوي؟... إنه يرى أن رغبة الكثيرين في الشهرة تضيق الفائدة من عطايهم ؟ ومن الناس الذي يُعطي كما يُعطي الريحان عبيده في الوادي، وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالحياة وسخاء الحياة، وهم الذين لا تفرغ صناديقهم وخزائنهم ملأى دائماً ..

وإذا كنا لا بدّ أن نستخدم في المأكل والمشرب لبن الحيوانات ولحومها فليكن ذلك أكثر نقاوة ونبلًا في الأعماق، وكأنه في كتابه ( النبي ) يسأل السؤال الذي طرحه (زوربا اليوناني) وهو يتحدث بعفوية: " قل لي ماذا تفعل بالطعام الذي تأكله أقل لك من أنت ؟

ولا تختلف نظرة جبران إلى العمل عن نظرة أكثر أبناء الإنسانية عطفًا عليها وذلك حين يرى أن الكسول غريب عن فصول الأرض وطبيعة الحياة، فالعمل يجعل الإنسان مزارعًا تنطلق منه موسيقى الحياة . يقول: " العمل .. أقول لكم يفتح قلوبكم بالحقيقة - لمحبة الحياة لأن من أحب الحياة بالعمل تفتح له الحياة أعماقها وتدنيه من أبعد اسرارها ولا شيء يغسل كآبة الحياة ويظهر النفس سوى السعي .. إن الحياة حالكة سوداء إذا لم ترافقها الحركة، والحركة عياء إذا لم ترافقها المعرفة والمعرفة عقيمة إذا لم يرافقها العمل وهذا يكون باطلاً إذا لم يقترن بالمحبة .. وحب العمل يعني أن تبني وكأنك أنت الذي سوف تسكن فيما تبني وكذلك حين تنسج، الحب هو أن تودع كل عمل من أعمالك نسمة من روحك وإذا خلا عملك من المحبة فإنه لا يُشبع سوى نصف مجاعة الإنسان "

وتتجلى واقعية جبران كذلك عندما يرى أن الفرح والحزن لازمان للحياة ، لزوم النور للشمس ، والعطر للورد وأنه لولا تغلغل وحش الحزن في قلوبنا لما تضاعف الفرح في أعماقها " لأن الكأس الي تحفظ خمرتك هي نفس الكأس التي احترقت في أتون الخراف .. "

وحين يتحدث عن البيوت يطلب من الناس أن يخبروه بماذا يحتفظون في بيوتهم هذه؟ هل عندهم الجمال الذي يرقى بالقلب الإنساني ؟ هل عندهم الرفاهية فقط المزوجة بالطمع؟ الرفاهية التي تدخل البيت ضيفاً ثم لا تلبث أن تصير مضيفاً فسيّداً عاتياً عنيفاً ؟ ثم تتحول إلى رائض جياد يتقلد السوط بيمينه ، وإللاب بيساره متخذاً رغباته المفضلة العوبة يتلهى بها ... وإن كان بنان الرفاهية حريري فإن قلبها حديدي صلب، إن التهرق للرفاهية ينحر أهواء النفس في كيد هافيرديها قتيلة ..

ولا أعرف إن كان غير جبران يستطيع أن يعبر عما نعانية اليوم من رفاهية مستوردة مارسها تقليداً بحيث قضت على ما يمكن أن يكون في دواخلنا من إمكانيات قادرة على العطاء والإبداع، لأن هدف الكثيرين منا في حياته أصبح تأمين أكبر قدر من الرفاهية على حساب ذلك الجانب الذي افتقدناه.

ويبدو أن جبران في كتابه ( النبي ) يريد أن يقطر حكمة الحياة في سطور قليلة وهذا من طبع الكبار الذين تنفّذ بصيرتهم إلى المستقبل البعيد، حيث تبقى كلماتهم جديدة الطعم تنبض بالحياة، تتحدى طوفان الزمن، تبقى كلماتهم طازجة وكأن قائلها فرغ لتوّه من كتابتها ...

ولقد صدق مَنْ قال: " إذا كنت تخاف أن تفكر فأجدر بك ألاّ تقرأ جبران الذي أثبتت الأيام أنه وإن كان حدثاً في العمر فإنه شيخ في تقطير حكم الحياة في كلمات.



## المراجع والمصادر:

- ١- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، قدّم لها وأشرف على تنسيقها ميخائيل نعيمة - مكتبة صادر - بيروت ١٩٥٥.
- ٢- النبي - ترجمة ميخائيل نعيمة - مطبعة المناهل - بيروت - ١٩٥٦.
- ٣- ميخائيل نعيمة - جبران خليل جبران: حياته، أدبه، فنه، دار بيروت ودار صادر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٣٤.
- ٤- جبران خليل جبران وآخرون - بلاغة العرب في المهجر، مكتبة صادر، بيروت ١٩٤٩.
- ٥- "الوحدة" مجلة - العدد الثاني - تشرين الثاني عام ١٩٨٤ - مقال الدكتور محيي الدين صبحي، تحية للشاعر القروي .



## الدكتور محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥)

### " معارك من أجل الأدب للحياة "

إن المتابع لحركة الثقافة العربية عامة والنقد الأدبي خاصة لابدّ سمع عن الدكتور محمد مندور أو قرأ عنه أو قرأ له ، فهو منذ بداية أربعينيات القرن العشرين وحتى منتصف الستينيات منه كان دائم الحضور في معظم جوانب الثقافة العربية ، ويختلف الأمر بين أن نعرف ( مندور ) من كتبه وكتاباته وبين أن نتعرف عليه مشاركاً فاعلاً إذ كان لا ينيب عن مسرحية تعرض أو فيلم جاد أو مناقشة لعمل إبداعى ظهر حديثاً في الشعر أو الرواية أو القصة القصيرة أو النقد ... كان دائم الحضور كما كان دائم الكتابة والتواصل مع الناس بحيث كان القراء المتابعون ينتظرون صباح كل يوم الصحف التي كان ( مندور ) يكتب فيها إذ تعود منه الناس أن يكتب عن المسرحية التي تعرض أو الكتاب الذي يصدر أو عن موهبة جديدة واعية تحاول أن تبدأ .. وإذا لم يكن الأمر كذلك فالدكتور مندور يشترك في معركة ثقافية أو سياسية تحت غطاء ثقافي لأنه أحد المؤمنين بأن الشعوب في بداية نهضتها كما في الوطن العربي - تتعلم من الفن ونقده أضعاف ماتتعلمه بتعميق من السياسة والفلسفة كما كان أيضاً أحد الذين يؤمنون - المعرفة العلمية وتاصيل المنهج العلمي ، عن طريق الفنون والآداب ومن أجل هذا وذاك خاض ( مندور ) معارك متعددة الجوانب إلى آخر حياته ، ومن المعروف عنه أنه قال لأحد أصدقائه قبل موته بساعات : " يا أخي إلبس دروعك وتأهب لنخرج سوياً في غزوة جديدة عظيمة ، ولنطلب هذه المرة الملك (ميداس) نفسه ذا الجعارين الذهبية الكثيرة ... " فقال صاحبه : عوفيت لكل شيء أوان اصبر حتى تسترد قواك .. " .

حين غاب الرجال وشجاعتهم انتشرت أسراب الخفافيش وجيوش الهوام وخسيس الحشرات بقيادة الملك (ميداس) ، تخرب المجتمع العربي توضع نقطة هذا العدو الذي يدعو ( مندور ) لقتاله ، هو الرجعية التي قضى أنفاسه الأخيرة في ١٩ أيار ( مايو ) عام ١٩٦٥ ، وهو يحاربها . كان أهم ما في حياته محاربة الرجعية : رجعية الفكر - رجعية السياسة ، ورجعية السلوك .. بذلك كانت حياة هذا الرجل فصلاً من كتاب الحرية العظيم في مصر الشقيقة خاصة والوطن العربي الكبير عامة ، ذلك الكتاب الذي بدأ فصوله الأولى أمثال محمد

عبده، قاسم أمين، طه حسين، علي عبد الرازق .. وغيرهم من هذه الكوكبة الرائدة من أنصار التقدم والحياة ..

إن معارك ( مندور ) اليومية الساخنة تدعوك لمتابعتة فيما يكتب وهذه تدعوك لمتابعة ماكتب في السابق، فمقالات الرجل تقود إلى كتبه وكتبه تقودك إلى الرجل فيه، وترحل مع أفكاره لتجد أنه حين ينظر إلى الجيل السابق لجيله، يجد أن هذا الجيل نجح في شيء وأخفق في أشياء، وأكبر ظواهر الإخفاق في نظره خضوع ذلك الجيل لضغط الهيئة الاجتماعية ويعترف أن امتداد الزمن بحياة المرء كثيراً ما ينتهي به إلى الصلح مع الحياة، يقول: إن طول العمر كثيراً ما ينتهي بنا إلى الصلح مع الحياة لأن الشيوخ عادة أكثر رضى وتفاؤلاً من الشبان الساخطين المتشائمين..

لهذا يدعو ( مندور ) أبناء جيله إلى التقاط الأسلحة التي ألغاهما " سابقونا وأن نناضل لحرية الرأي وكرامة الفكر البشري وتقديس حقوقه غير باغين ولا معتدين ...".

وكان يرى أن نجاح أبناء جيله كان أوضح ما يكون في المجال الفني حين انتقلوا بالنثر العربي الحديث بل وبالشعر في السنوات الأخيرة من اللفظ المقيم إلى التعبير المباشر، من الصنعة إلى الحياة من ( حديث عيسى بن هشام ) إلى " دعاء الكروان " ( ص ٩١ الميزان الجديد)... وهذا ما جعل ( مندور ) يواصل دعوته إلى أن نستبدل بقوة اللفظة قوة الروح ونفوذها .. والابتعاد عن الصنعة بأشكالها المختلفة، صنعة اللفظ وصنعة التركيب، ويدعو إلى الإهتمام بتفاصيل الحياة العادية أو كما سماه هو ( فئات الحياة ) والاحتفال بالتفاصيل الحية (٢).

ومن أجل ذلك كانت كتب ( مندور ) بدءاً من كتابه النقدي الرائد ( في الميزان الجديد ) الذي وضع فيه أفكاره النقدية حول الهمس في الشعر ووقوفه إلى جانب " أدب المهجر " وذلك محاولة منه إدخال الأدب العربي الحديث في تيارات الأدب العالمية، من حيث موضوعاته ووسائله ومناهج دراسته، كما حاول في هذا الكتاب أن يبين أن الذوق ليس معناه النزوات التحكيمية وأن جانباً كبيراً منه ماهو إلا رواسب عقلية وشعورية نستطيع إبرازها إلى الضوء وتعليقها كما يقول ص ٥ من مقدمة الكتاب المذكور.

وبذلك يصبح الذوق وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة التي تصح لدى الغير، كما يعرفنا أن بعض النقاد العرب القدامى من أمثال ( الآمدي ) و( الجرجاني ) قد سبقه إلى هذه الحقيقة الأمر الذي حاول إثباته في كتابه الممتاز " النقد المنهجي عند العرب " الذي درس فيه التراث النقدي العربي على ضوء نظرتة النقدية،

وتابع مندور إصدار الكتب فصدر له كتاب ( في الأدب و النقد )، ( النقد والنقاد المعاصرون ) - ( مسرح شوقي )، ( مسرح الحكيم ) ..



ولد (محمد مندور) عام ١٩٠٧ في محافظة الشرقية - جمهورية مصر العربية لوالد يقرأ ولا يستطيع الكتابة من أتباع المذهب الصوفي النقشبندي الذي يعني النقش على القلب .  
تعلم في مدرسة ابتدائية تبعد عن قريته ستة كيلومترات يقطعها يومياً سيراً على الأقدام، وكانت المدرسة أشبه بالسجن لأن المدير يضرب طلابه بمنتهى القسوة التي شلت من شدة الخوف ملكات طلابه .

قامت ثورة ١٩١٩ و( مندور) طالب في ( منيا القمح) وشاهد ذات خميس مظاهرة يقودها ( البيطار) الذي يصنع حدوات الخيول .. كانت جموع الفلاحين تسير وراء ( البيطار) هاتفة ضد الإنجليز .. وفجأة خرج من مركز هناك إثناعشر جندياً بريطانياً، حموا ظهورهم بالحائط ونصبوا مدافعهم الرشاشة واستقبلوا المتظاهرين العزل برصاص استشهد معه (١٥٠) عاملاً وفلاحاً وفي طليعتهم ( البيطار) قائد المظاهرة الذي يتذكر مندور، أنه رآه يركض نحو ترعة الماء ليبرد النار التي أحرقت جسده حين أخترقه الرصاص ، وكثيرون فعلوا مثله وحملت مياه التربة الجثث إلى قناطر الرقايق.

إن ( مندور) من أوائل الذي أخذوا من الديمقراطية فكرة الحرية ومن الاشتراكية فكرة تدخل الدولة في وسائل الإنتاج كي يتحقق ما نادى به الديمقراطية الاشتراكية أو الديمقراطية الاجتماعية كما كان يُسميها رافضاً الديمقراطية الحرة - الغربية - لأنها صورة مفرغة من كل مضمون اجتماعي، ولأن هذه الديمقراطية الفارغة لا تتحدث عن الفقر حين تتحدث عن الحرية - وهو أكبر عوامل العبودية.

هاجم مندور ثقافة النخبة التي ترى أن الثقافة (ترف) والعقل عنده لا يعرف الترف، بل هو جهد مثل كل جهد آخر يبذله الإنسان، ولا يقل أثره نفعاً ولا ضرراً عن إي إنتاج مادي .  
ومنذ عام ١٩٤٤ طالب مندور بتوحيد القوانين في مصر كما طالب بتوحيد القضاء مستنكراً أن يمتد التشريع إلى ضمير الإنسان وعقيدته الفردية ، كما طالب بأن تبني القوانين على أساس وضعي اجتماعي.

وكان من أجهر الناس صوتاً في هذه الدعوات التي كان حافزه لتطبيقها، إيمانه بكرامة الإنسان .

أثمرت هذه الدعوات - بعد عشرين عاماً - أي في ستينيات القرن العشرين، مبدأ توحيد القضاء في مصر العربية .

## ماذا تعلمت من طه حسين؟

يقول (مندور)، " يخیل إلی أننی تعلمت من الکتب أكثر مما تعلمت من أشخاص و أننی استفدت من عدد من الموتى القدماء أكثر مما استفدت من الأحياء الذين عاصرتهم وتعلمت عليهم ومع ذلك فقد أفادني هؤلاء الأساتذة الفائدة الكبرى بأن وجهني كل منهم إلى ناحية من نواحي الثقافة ودلني على منابها، ومكنني من تذوق ثمارها وكان أداة الوصل بيني وبين أولئك الكبار القدماء الذين اعترف من معينهم..".

أنا شديد الغيرة على كبريائي أرفض دائماً أن تمسّ أو أن تفني في كبرياء غيري، ومع ذلك فأنني اعتقد أن الدكتور طه حسين قد كان له أعظم الأثر في توجيهي وذلك لأنني كنت عندئذ لا أزال متردداً تردداً شديداً بين وحي البيئة وهو النفس واستعدادها فببئتي كانت توحى لي بأن أدرس القانون لكي أخرج وكيلاً للنائب العام يهرول أمامه، الخفراء وجند البوليس بل والعمدة نفسه.

بينما كان السباعي وهاشم ( مدرسا اللغة العربية في المرحلة الثانوية) غرسا في نفسي حب الأدب وتذوقه وجاء طه حسين فحل هذا الصراع الكامن في نفسي بأن أتاح لي الالتحاق بالكليتين معاً بعد أن أحس باستعدادي الأدبي وعنادي الريفي.. وأنني أحمد اليوم هذا الاستعداد وهذا العناد الريفي معاً وذلك لأنه إذا كانت دراسة الأدب والتخصص فيه قد نمت استعدادي وصقلت ذوقي ووسعت من ثقافتي الأدبية فإن دراسة القانون قد وقتني شرّ البوهيمية العقلية في الأدب ونقده وعودتني الدقة والوضوح والتنظيم والنظام العقلي فيما أعالج من شؤون الأدب والثقافة الأدبية...

ولم يقف تأثير طه حسين في حياتي عند هذا التوجيه الحاسم في مستهل تكويني الثقافي، بل ظل يلاحقني تأثيره سنين طويلة في اتجاهات ثلاثة بالغة الخطورة:

الاتجاه الأول: فقد كان نحو التحرر الفكري والثقة بالنفس وكان هذا أول وأهم درس أخلاقي تعلمته من " طه حسين".

أما الدرس الثاني الذي تلقيته عن هذا الأستاذ الكبير فقد كان التوجيه نحو الآداب الأجنبية الكبيرة وبخاصة الأدبين اليوناني القديم، والفرنسي..

وما من شك أنه لولا توجيه طه حسين لما استطعت أن أكتب بعد عودتي عند بدء الحرب العالمية الثانية رسالتي عن النقد العربي القديم وتاريخه وهي الرسالة التي نشرتها بعدئذ بعنوان ( النقد المنهجي عند العرب) واعتبرها من أمهات كتبي.. بل لولا هذا التوجيه لما استطعت أن أؤدي الرسالة العامة التي أديتها في مجال النقد العربي.

أما الدرس الثالث الذي تعلمته من طه حسين، فهو قدرته على شرح النصوص العربية القديمة وحسن تذوقها...

### النقد عند (مندور) .. إبداع ،

كان إبداع مندور في النقد نابعاً من نظرتة إلى أن النقد الحقيقي هو إبداع، لأننا " سيان أن نحسن وفكرونعبر بمناسبة كتاب أو بمناسبة حادثة أو مشهد إنساني .. وكل تفكير لابد له من مثير" (٤). وهدف النقد عند (مندور) يتركز في أمرين أولهما: " أن يكون الناقد هادياً لجمهور القراء يسبقهم إلى قراءة ما يقع تحت يده من الكتب، فإن وجد فيها خيراً أظهره ودعا غيره إلى مشاطرتة إيّاه، وإن لم يجد فيه شيئاً حدّث القراء عن تجربته لعلها تغيد.

ثانيهما: أن يكون الناقد عوناً للكاتب الجديد على أن يؤدي رسالته لدى الجمهور سواء، أكان هذا الكاتب ناشئاً، ينبعث منه الأمل أم منتهياً قد وفق إلى أمر يخلف على رمال الزمن وقع أقدامه (٣).

يقول ( مندور ) : " أفعل ذلك وفي يقيني دائماً أن التفكير أمر شاق والتعبير عنه أشق .. والتفكير والكتابة وسيلتنا إلى المساهمة في تجميل الحياة، حياة مواطنينا والدفاع عنها وسبيل ذلك هو الإخلاص لأنفسنا ومجتمعنا..."

لا ينسى الدكتور ( محمد مندور ) وصية أستاذه ( ديهاميل ) لفتاه : " لاتنس أن تعيش .. عش أولاً، عش بكل قواك ثلاثة أشهر لتكتب ثلاثة أيام واكتب ثلاثة أيام لتكتب ثلاث صفحات..." (٤).

يقول (مندور): " إلى هذا النوع من الأدب الذي تشيع فيه الحياة يتجه إيماني، بحيث لا أطمئن إلى الأدب المجرد، أدب الفكرة الذي يصدر عنه الأستاذ (توفيق الحكيم) فهو أدب سهل لأنه من السهل أن نتخذ من اشخاص الأساطير رموزاً نحركها للتدليل على فكرة ما...

هذا الموقف قاد (مندور) لأن يكون ضد أدب (توفيق الحكيم) الذي لم ينهض منه شيء على الملاحظة المباشرة.. وحين يقارنه مع ( بلزالك ) يرى أن الأخير يفكر بحواسه بينما (الحكيم) يفكر بعقله وأنه -أي الحكيم- حين يبني نصوصه ومسرحياته يتجه إلى عالم الفكر المجرد... والحياة- لسوء الحظ- أشد نفوراً من أن تنطوي تحت خط من خطوط العقل...

ومن دواعي هجومه على أدب توفيق- إضافة إلى ماسبق- هو أننا بحاجة إلى ثورة مشروعة على أدب اللفظ الذي أفسد حياتنا الروحية قروناً طويلة..

ومن أجل هذه القضايا ذاتها، خاض معركة ضارية مع " سيد قطب " إذ حين دعا ندور إلى الشعر المهموس، من خلال حديثه عن قصيدة (أخي) (ليخائيل نعيمة) خاصة وأدب المهجر عامة عارضه (سيد قطب) قائلاً: " إن آراء مندور هذه تصدر عن شخصية مريضة، ريمته كذلك بأنه في الأدب يصدر عن إحساس خاص بالنساء، عندما يؤدي الميل إلى المهوس في الشعر! "

رداً (محمد مندور) على ذلك بأن المفكر الفرنسي (رينان) قد شعر بأنه عظيم الصفات عندما قالوا عنه " بأنه يفكر كرجل ويحس كامرأة ويتصرف كطفل... ".

وخاض كذلك معارك عنيفة ضد (عباس محمود العقاد) الذي وصف الدكتور مندور في واحدة منها، أنه ( جاويز في بوليس النجدة) واغتبط (مندور) لهذه الصفة حين قال أنا قبل هذه الصفقة مُتبطاً فليس أحب إلى نفسي من نجدة الحق ضد الباطل والاعتدال ضد التطرف.

هناك مندور ختم معاركه الطويلة مع ( سيد قطب، والعقاد) بقوله: " يعصمني أن استمر في الأمر : بل نفسته عن نفسي وبربرية لا يزال يسد عنها الفطريون من الناس .. " (٥).

" (مندور) معركة عنيفة ضد الشيخ ( أسين الخولي) صاحب مجلة ( الأمناء) - نسبة إلى أدنين !! - الذي كان أبرز الداعين إلى فرعونية مصر وعزلها عن الوطن العربي إبان ان المد القومي العربي في ذروته في خمسينيات وستينيات القرن العشرين .

وشن (مندور) كذلك معركة قاسية ضد شاعر الملوك (صالح جودت) الذي لم ينشغل يوماً بغير " سبكان الحسنات) والذي حول مجلة " الهلال" الشهيرة في ظل رئاسته إلى مجلة البحث في السحر والوسطاء الروحانيين والخرافات كما يتناول "رجاء النقاش" (٦): " ولعل أشهر معارك ( مندور) الفكرية كانت مع الدكتور ( رشاد رشدي) صاحب مسرحية (لعبة الحب) التي حين عُرِضت على المسرح فجرت الخلاف بين (مندور) الناقد الواقعي - المعروف بسبعته الشهيرة: " ياويل الأدب إذا حدّه شيء غير الحياة " .. وبين (رشاد رشدي) الناقد البرجوازي الذي يتعامل مع الأدب باعتباره ترفاً فكرياً من منظور أن ( الفن للفن) ولا علاقه له بالحياة كما خاض ( مندور) معركة شهيرة ضد " يوسف البساعي" الكاتب الروائي المصري المعروف .

ولعل نظرة بسيطة إلى الأسماء التي خاض (مندور) معاركه ضدها تكشف أكثر موقف هذا الرجل، فكل الذين خاض معهم معاركه كانوا في صف الرجعية بهذا الشكل أو ذاك.

## مندور.. من الجامعة إلى الحياة :

أجبر ( مندور ) على ترك عمله كأستاذ في الجامعة حين شعر بالقيود تحد من حريته. وخسرت الجامعة استاذاً كبيراً، لتكسب الحياة الأدبية ناقداً تقديمياً كان القلب النابض بالحياة الفكرية في الحركة الفكرية العربية بعد جيل الرواد... إذ أسهم بإخراج الأدب من دائرته الأكاديمية، وقربه من المجتمع وهاجم أولئك الذين يقولون بأن الثقافة ترف بقوله: " إن العقل لا يعرف الترف، العقل جهد... وكل جهد لا يقل نفعاً عن أي إنتاج مادي.. وإنما يظلمه الظالمون لأنه غير مرئي النتائج وهذا الجهد يعمل في النفوس، وليس من شك أن العمل في النفس لا يقل قدراً عن العمل في المادة.." وعمل العقل لا يقف عند تهذيب النفس والسمو بها، بل يزيد من قدرة العطاء عندها في كافة أنواع الإنتاج.

ومندور من أوائل النقاد العرب الذين عملوا على تأصيل المذهب الواقعي الاشتراكي في الواقع العربي.. إبداعاً ونقداً - وقد ترسخت هذه القيم عنده بعد جولة له فيما كان يُسمى (الاتحاد السوفيتي وبلدان أوروبا الشرقية) حيث تحدّث بصراحة الرجال عن لقائه بالواقعية الاشتراكية وتحوّله في مجال النقد من النقد التأثري الانطباعي إلى النقد الأيديولوجي الذي تحدث عنه في آخر كتبه ( النقد والنقاد المعاصرون) كما اعترف بأن النقد تحطى النظريات النقدية التي تلقاها عن أساتذته الفرنسيين ولكن هذا التطور لم يبلغ عند (مندور) العناصر التي يحتاجها النقد بشكل دائم "... فقد احتفظ من مرحلته النقدية الأولى بحاسة (الذوق المدرب) واحتفظ من المرحلة الوسطى ( بالمعرفة العقلية) كأداة للتحليل، ثم أضاف إليهما في مرحلته الجديدة الالتزام الأيديولوجي إزاء المجتمع "(٧).

وقد هاجم الكثيرون (مندور) لأنه كان أول مشرف على مجلة (الشرق) التي كان لها بعض التأثير في تشكيل الثقافة السائدة..

هذه إشارات سريعة إلى مندور الناقد الانسان الذي لم يياس ولم ينهزم رغم الأمراض الكثيرة ومنها ضعف البصر، ورغم المعارك الضارية التي شنتها رموز الرجعية على اصحاب الأقلام الجريئة والمواقف النبيلة في الوطنية والقومية .. رفض الرجل أن يستريح حتى يتغير المجتمع إلى مجتمع تسود فيه قيم العدالة والحرية والديمقراطية..

وكان آخر مقال كتبه قبل رحيله عام ١٩٦٥ حول مسرحية ( الحصان ) لميخائيل رومان الكاتب المصري حذر من الطبقة الجديدة التي يتعاطف ننفوذها كل يوم.

وإذا كان ( نيرودا ) شاعر (تشيلي) العظيم قد قال: " ..... السلام عبر الشعر.." فإن مندور الناقد الكبير قد آمن بما يمكن أن نقوله: " نحو التمدد عبر الفن والثقافة..".

## هوامش:

- ١- دكتور لويس عوض- الثورة والأدب- دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧. ص ٧.
- ٢- دكتور محمد مندور- في الميزان الجديد - مكتبة نهضة مصر- القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٤٤، ص ٩٤.
- ٣- المصدر نفسه ص ١٠.
- ٤- المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
- ٥- المصدر نفسه ص ١٨.
- ٦- المصدر نفسه ص ٩٧.
- ٧- رجاء النقاش، كتاب العربي الثالث - ص ١٣٦.
- ٨- دكتور غالي شكري- الناقد المنهج. ص ٢٤.
- ٩- دكتور محمد مندور- معارك أدبية - دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة. د/تا.

## المراجع والمصادر:

- دكتور محمد مندور- النقد والنقاد المعاصرون- مكتبة نهضة مصر- القاهرة -دون تاريخ.
- -دكتور غالي شكري - سوسيولوجيا النقد العربي الحديث- دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى، كانون الأول ١٩٨١.
- - دكتور محمد مندور- النقد المنهجي عند العرب- مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٤٨.
- - دكتور محمد مندور- في الأدب والنقد- مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د/تا.
- -دكتور محمد مندور، الأدب ومذاهبه، مكتبة نهضة مصر، الطبعة الثانية، ١٩٥٧.



## طه حسين: (١٨٨٩-١٩٧٣)

### " حق الإنسان في العلم والحرية "

#### ظوء من " الأيام "

"...وكذلك قضى على الفتى أن يستقبل طلبه العلم في الأزهر، والجامعة المصرية، والجامعة الفرنسية بكلمة عن آفته تلك، توذي نفسه، وتفرض عليه ليلة ساهرة، ثم يعرض عنها بعد ذلك لأنه لم يكن بدأ ممّا ليس منه بدّ وما أكثر ما ذكر بيت أبي العلاء. وهل يابق الإنسان من ملك ربّه فيخرج من أرض له وسماؤه١٩.

وما أسرع ما كان الفتى ينسى هذه الكلمات المؤذية بعد أن يشتري هذا النسيان بليلة ينفقها مُسهداً محزوناً! ثم يُقبل بعد ذلك على ما لم يكن بدّ من الإقبال عليه من العلم في الأزهر، وفي الجامعة المصرية وفي جامعات فرنسا" (١)٠.

\*\*\*

لا نعرف إذا كان هناك اثنان يختلفان حول الأهمية الاستثنائية للدكتور طه حسين في فكرنا العربي الحديث سواء كان المرء معه أم ضده . طه حسين الرجل الذي ولد عام ١٨٨٩، وتوفي في تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٧٣ عن أربعة وثمانين عاماً.

تجلى نخجُ الفتى طه حسين منذ الطفولة قبل أن يفقد بصره في حوالي السنة الرابعة من عمره.. تجلّى هذا النضج أكثر عندما دخل الأزهر عام ١٩٠٢م، إذ ضاق عقل الفتى بطرق الأزهر في التلقين آنذاك فراح يسأل ويلج في السؤال، وتحول السؤال إلى تمرد، وجعله يخرج من الأزهر لأنه طالب بإصلاحه والعودة به إلى أيامه الزاهرة.

ترك الأزهر ليلتحق بالجامعة المصرية التي افتتحت لتوها عام ١٩٠٨م، وتقبّلتها طالباً منتسباً.. سار يسمع في الجامعة غير ماثمود أن يسمع في الأزهر، علوماً عصرية، وفتحت مواهبه..

وبعد فترة شعر أن الجامعة الوليدة ضاقت عن تطلعه وطموحه وابتعد به الخيال إلى (باريس) في بعثة عن طريق الجامعة وما أكثر العقبات التي وضعت في وجهه، ولكنه صمد لكل التحديات واستطاع أن يكون أول طالب يتخرج من الجامعة بحصوله على شهادة علمية - دكتوراه - حضرها وقدمها دون إشراف من أستاذ عام ١٩١٤، تحت عنوان " تجديد ذكرى أبي العلاء".

تحقق حلمه ليسافر إلى باريس مع أخيه واشتدت عليه الصعوبات، واختلف مع أخيه وافترقا، ولكنه أحس بأنه حقق شيئاً عظيماً بوصوله إلى فرنسا، لتبدأ هناك المرحلة الأهم من حياة الفتى الذي وجد في باريس العلم والثقافة والتفتح، وألقى إضافة إلى ذلك الزميلة والمدرسة الفرنسية (سوزان) عام ١٩١٧، الفتاة التي كان لهما من عمق الفكر وسعة الثقافة وما أهلها الإدراك المهمة التي شعرت أن الرجل يضعها أمامه في المستقبل مهمة إيقاظ العقول - كما ظهرت بعدئذٍ في معظم كتاباته.

طه حسين لم يكن قد أنهى مرحلة اليقظة حين شرع يكتب في الصحف ضد الرجعيين، واساليب التلقين البالية في التعليم وكان أول ما هدف إلى تحطيمه هو التقليد، وليس صدفة أن نجد (السياج) رمز التقاليد في الصفحات الأولى من كتابه الشهير [الأيام] (١) الذي كان مع كتابه الآخر عن الشعر (الجاهلي) تعبيراً عن مرحلة التحدي التي عاشها طه حسين منذ أول الشباب. لقد تبدى القلق والتحدي عنده عندما رحل من الصعيد إلى الأزهر ثم تركه ليلتحق بالجامعة المصرية دارساً آنذاك، ثم يتركها كي يعود إليها، بعد رحلته إلى باريس محاضراً فعميداً فريئساً بعد أن قضى ثلاثين عاماً من حياته تلميذاً طالباً للعلم ليقضي بعدها ثلاثة وثلاثين عاماً بين أستاذ في الجامعة أو عميد لكلية الآداب، أو وزير معارف أو رئيس تحرير لصحيفة مشهورة وبعدها عاش حوالي عشرين عاماً فيما يشبه العزلة ليكتب بقية [الأيام].

قال (جان جاك روسو): " أحسست قبل أن أفكر" وجاء طه حسين ليقول: " تأملت قبل أن أفكر " .. في البدء كان الألم عند طه حسين وجاء الفكر عنده ليقهر الألم لأنه آمن منذ بداية حياته أن الفكر يبدد الألم، ويذل العقبات، وكان يقول على غرار أستاذه (ديكارت): " أنا أتألم إذن أنا موجود" لكن ثقته العميقة بنفسه قادته إلى قهر الألم، كما قادته إلى أن يُقارن نفسه بشواطئ النيل الرطبة التي حين يُضغط عليها تنبع ماء.. ولم يكن الألم عنده وليد ثقافة تأثر بها وإنما كان حياة يعيشها، ابتداءً من فقد البصر المبكر والصراع ضد التقاليد (السياج) ثم الصراع مع الأزهر ثم ألمه -وهو الريني البسيط فاقد البصر - في التأقلم مع أجواء جامعة السوربون في باريس، وقاده هذا الصراع مع الألم والانتصار عليه إلى موقع لا يبلغه إلا القليلون، موقع الرجل الذي يفكر ويطبق ما يفكر به، يأتي بنظرية ثم يُبدع في تطبيقها.



لقد كان شعوره بالألم الناتج عن ظلم القدر، وظلم المجتمع حاداً، ولكنه أدرك أن قدرته على العطاء مرهونة بسلامة الإدراك لذلك مارس على نفسه ضبطاً عظيماً فروّسها وانتصر عليها، لأنه كان يعرف أن الانتصار في الحياة لا يتم إلا عن طريق الانتصار على النفس.

إن كتابه الرائد (الأيام) يُعطينا صورة عن صراعه مع الألم، لأنه يلخص لنا سيرة حياة إنسان غالب ما في ذاته من عوائق وانتصر عليها، وصارع ما حوله من شروط مُعقّدة وانتصر. ونتعلم منه أن الظروف قابلة لأن تتبدّل لصالح الإنسان بالعمل والدأب والصدق مع الذات.

إن طه حسين صار عظيماً رغم فقدان البصر بالإرادة والعمل والتصميم، ولم يترك شيئاً من حياته بتأفف ويندب حظّه العاثر لآله " كان مع نفسه حين يشقى في سبيل ما يرى أنه الحق من زمان ضدها إذا شعر أنها صانعت أوداجت أو جهرت بغير ما تؤمن به، أو أثرت رنم من السماء أن على رضى الضمير " (٣).

### طه حسين الرائد:

كان طه حسين أول من حصل على إجازة علمية من جامعة عربية حنجرها لدية دمهيا بنفسه دون إشراف من أستاذ ونوقشت بين يدي الجمهور عام ١٩١٤ وأوفدته الجامعة المصرية إلى باريس في العام نفسه مكافأة له على اجتهداه في تحضير رسالته عن أبي العلاء المعري، " تجديد ذكرى أبي العلاء "

وكان في باريس أول من اكتشف من العرب جوانب العظمة عند العلامة العربية ابن خلدون- عندما حضّر رسالة للدكتوراه باللغة الفرنسية عن " الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون " تحت إشراف عالم الاجتماع الفرنسي الشهير: دوركهايم.

وكان أول من ناقش قضية الشعر الجاهلي عام ١٩٢٦م مُطبّقاً منهج (ديكارت) القائم على الشك والذي أثر كثيراً على طه حسين وأثار كتابه عن الشعر الجاهلي ضجة هائلة انتقلت إلى مجلس النواب ورُفعت ضده القضايا في المحاكم ومنع الكتاب من البيع !!

وكان أول المفكرين الذين وقفوا ضد رئيس الوزراء الطاغي - صدقي - السذي أحسّ طه حسين ظلماً على التقاعد ولكن ذلك لم يقعه فمارس العمل كاتباً في الصحف

وكان أول من طبق شعاره المشهور الذي طرحه عندما تولى وزارة المعارف: " التثمين ضروري للناس ضرورة الماء والهواء "، حين قرّر مجانية التعليم، وحاول تطبيقه، مجانية التعليم الجامعي لكن الملك رفض ذلك ... -وحول الكثير من الكليات - وهي المدارس الدينية - إلى مدارس ابتدائية، وافتتح آلافاً من الصفوف لينشر التعليم بين أبناء الشعب

الكادح.. وماكان أصدق مجلة " الطليعة" المصرية حين تحدثت عن أثر طه حسين في المثقفين من الشعب العربي في مصر فقالت: " إن في أعناق المثقفين المصريين ديناً ثقيلاً لطفه حسين فمامنهم إلا واستمد من نور عقله قيساً، بل إن أجيالاً بكاملها كان يمكن أن تنفق حياتها من غير جدوى لولا إيمان هذا الرجل العظيم بحق الإنسان في العلم والحرية.))

كان طه حسين أول من كتب في السيرة الذاتية كتاب [ الأيام] الذي يمثل ظاهرة غيرألوفة في الأدب العربي الحديث الأمر الذي جعل الدكتور " حُسام الخطيب " يعتبر كتاب الأيام " ثمرة مبكرة نضجت قبل موسمها المتوقع" إذ حين صدر كتاب -الأيام- عام ١٩٢٦ كان الطارق الأول لهذا الفن في أدبنا العربي وتنبع أهميته هذا الكتاب من أنه يقدم لنا الإنسان- التجربة الإنسانية في مواجهة الشرط الاجتماعي، ومحاولة تغييره لصالحها، فخرج بذلك عن كونه تجربة شخصية ليأخذ بعداً إنسانياً شاملاً.

وكان طه حسين من أوائل المفكرين العرب الذين ربطوا بين حرية الأدب وحرية الأديب، وقالوا: إن الأدب ظاهرة اجتماعية كما أن الإنسان نفسه ظاهرة اجتماعية وإن الأديب لا يُحس ولا يشعر ولا يفكر لنفسه فقط، وإنما يحس ويشعر ويفكر للناس... وهومن الذين آمنوا بالعلاقة الوثيقة بين الثورات والآداب لأن الفنان عنده يتحسس القهر والظلم قبل غيره.

وتحدث كذلك عن الظلم باعتباره مصدر التفاوت بين الناس إن رُفع عنهم، سادت المساواة، ذلك لأن الخيرات التي تنتجها الأرض وتنتجها الحضارة لا يمكن أن تتفاوت حظوظ الناس فيها إلا إذا كان الظلم مصدر هذا التفاوت فإذا ظفر -زيد- بالغنى فلا بد أن يضطر - عمرو- إلى الفقر.. والسبيل إلى المساواة أن يُؤخذ من الغني وأن يُرد على الفقير حتى لا تكون بينهما هذه الفروق

وفي تقييم هذه الأعمال الرائدة لطفه حسين نستعين برأي طرحه عام ١٩٥٠ وهو يستقبل ( محمود تيمون) عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ونرى أن هذا الذي قاله في محمود تيمون ينطبق عليه أكثر مما ينطبق على المعني به، قال طه حسين: " وسبقت إلى شيء، لأعرف أن أحداً شاركك فيه في الشرق العربي إلى الآن، وإذا ذهب أحد مذهبك أو جاء أحد. فيما بعدُ بخير مما جئت به فلن يستطيع أن يتفوق عليك لأنك فتحت له الباب، ومهدت له الطريق وأتحت له أن ينتج وأن يمتاز وأن يتفوق".

كما كان - مكسيم غوركي- أول مسؤول عن تنظيم دار الأدب العالمي للنشر في الاتحاد السوفييتي - حين كان اتحاداً - حيث جمع فيه البارزين لترجمة النتاجات الأدبية العالمية القيمة.... كذلك فعل " طه حسين" عندما كان المشرف على ترجمة إبداعات الفكر الإنساني

، إلى اللغة العربية لوضعها بين يدي القراء العرب، وإذا كان مكسيم غوركي لم يتحول إلى قيمة تاريخية فقط بل استمر قيمة سارية المفعول تؤثر إلى الآن بما طرحه في أبداعه. فإن طه حسين كذلك مازال قيمة سارية المفعول من خلال مواقفه التي نـشعر بحاجتنا إليها في كثير من شؤون حياتنا في الوطن العربي، وربما أصبح طه حسين الفكر قيمة تنتمي إلى التاريخ، ولكن طه حسين المواقف مازال قيمة مستمرة العطاء نتعلم منها الكثير لأن مواقفه عبر حياته كانت في مجموعها دهوة تمرّد على ألوان العبوديات التي صاغت قيم المجتمع سواء على مستوى حياة الفرد أو الجماعة .. وقد يخالفه المرء أو يتفق معه لكنه يظل يرى نبذة الثورة على قلمه، ووقفه الخروج على التحنيط ومحاولة تجاوزه كما تقول (الدكتورة) نجاح العطار في مجلة المعرفة في العدد (١٥٥) كانون الثاني لعام ١٩٧٥.... ثم علينا أن نتذكر أن مثل هذه المواقف الآن لم تعد تحتاج ما كانت تحتاجه في مرحلة طه حسين.

قال طه حسين يوماً: " ما أبعدني عن هذا الاطمئنان الذي يُتيح لي تذكر الماضي أنا ذلك الرجل المتذوّف باستمرار إلى أبعد، ولا يمكنني التوقف ولا الاستقرار...".

ولعل هذا القول يمثل أحد المفاتيح الهامة في دراسة هذا الرجل والمفتاح هو: العلاقة السيئة مع كل شيء جامد بدءاً بأسلوب التلقين في التعليم وانتهاءً بالسلطة المستبدة.

هذا المنفي خلف جدار فقدان البصر الرهيب، يصرّ على التحدي والمجابهة حتى تتجاوز دعوته إلى التحرر مصر وتنتشر في الوطن العربي دعوة يتصل فيها العلم بالعمل لأن صاحبها رجل ثقافة مقاتل كان العلم عنده هو الشجرة والعمل هو الثمرة... ولأن موقفه من الحياة كما لخصّه في إيجاز بالغ في أحد مقالاته هو- حبٌ للمعرفة وصبر على المكروه- ظل يغذي هذا الموقف بسلوكه ومواقفه، فحب المعرفة هذا لا يطفئه اكتساب العلم وإنما يزيد قوة وشدة، وإذا كانت حاجة من عاش لا تنقضي، فحاجة من ذاق المعرفة للمعرفة أشدّ الحاجات إغراءً بالاستزادة، وهذا الظمأ الشديد للمعرفة وإدراك قيمتها في تقدم الشعوب، جعل طه حسين بطل تحديث التعليم في مصر العربية ثم في الوطن العربي بعد ذلك.

## العلم من أجل كل الناس

اقترن اسم طه حسين في تاريخ مصر بأنه أبو مجانية التعليم وبأنه أبو الجامعات فهو الذي أنشأ جامعة الإسكندرية عام ١٩٤٤ وأنشأ جامعة عين شمس أثناء توليه الوزارة عام ١٩٥٠ ووضع نواة جامعة ( أسيوط) وهو الذي وحد التعليم في مرحلته الابتدائية فحوّل كتاتيب القرون الوسطى إلى مدارس ابتدائية. تعلم فيها مبادئ العلوم الحديثة، وخلال عامين من توليه وزارة المعارف ١٩٥٠-١٩٥٢ بلور اتجاهه بإنصاف - المعذّبين في الأرض- في سلسلة

من التشريعات الديمقراطية كان أهمها: مجانية التعليم، وتقرير تغذية التلاميذ في المدارس على نفقة الدولة، كما كان منذ ثلاثينات هذا القرن وراء تحويل المدارس العليا للزراعة والتجارة والطب البيطري إلى كليات جامعية. وإدماجها في جامعة القاهرة - الجامعة المصرية يومئذٍ فاستحدث ثورة ونسف لغماً ضد الرجعية التعليمية التي ربطت التعليم باحتياجات الرجعية والتي يسوؤها أن يتعلم المواطنون وأن يفكروا تفكيراً حراً...!

وإذا كان طه حسين من أوائل الذين فجروا الصراع بين ديمقراطية التعليم ورأسمالية التعليم فإن ذلك في الحقيقة كان صراعاً سياسياً بين الذين يريدون التعليم من أجل الجماهير سلاحاً بيدها لتغيير واقعها، وبين أولئك الذين يريدون لأبناء الشعب أن يكونوا مجرد آلات جاهلة تخدم الإنتاج العائد للرأسماليين والقطاعيين.

### مواقف في حياة طه حسين :

احتج على أساليب التلقين في الأزهر فخرج منه لأنه طالب بإصلاحه وحرم من النجاح على أثر ذلك كما حرم من الحصول على الشهادة . في عام ١٩٢٨ انتخب عميداً لكلية الآداب ثم أعيد إليها عام ١٩٣٠ وطلب إليه رئيس الوزراء آنذاك أن يكون رئيس تحرير جريدته فرفض وأحاله إلى وزارة المعارف... وامتنع طه حسين عن العمل وشن حملة صحفية وقفت فيها الجامعة إلى جانبه واستمر طغيان رئيس الوزراء " اسماعيل صدقي " - وأحاله على التقاعد !!.

بينما كان طه حسين أستاذاً في الجامعة - كان أستاذه وصديقه " أحمد لطفي السيد " مديراً لها، نشأ بينهما خلاف حول مجانية التعليم الجامعي لأبناء الأساتذة فقال مدير الجامعة: عندما يدخل " مؤنس بن طه حسين " الجامعة سنمنحه المجانية ١٩ ردّ طه حسين على الفور: أنا لا أقصد نفسي وإنما أريده مبدءاً عاماً... ثم أعلن استقالته من الجامعة.

رفض طه حسين عميد كلية الآداب منح درجة الدكتوراة الفخرية لبعض الساسة مجاملةً لهم ممن حولهم ولم يذعن لتعليمات وزير المعارف - عيسى حلمي - الذي وصفه العميد بأقذع الأوصاف وصدر قرار الجامعة بنقله منها، واحتج أستاذه لطفي السيد واستقال من إدارة الجامعة تضامناً مع طه حسين.

حين كان طه حسين عميداً لكلية الآداب زار الملك ( فؤاد ) الجامعة ومعه رئيس وزرائه ( اسماعيل صدقي ) ووزير المعارف ( عيسى حلمي ) وكان من عادة الملك أن يستمع إلى بعض المحاضرات وقد نبّه طه حسين الأساتذة ألا يغيروا شيئاً من البرنامج وصادف أن كان موضوع إحدى المحاضرات ( تطور الدستور الانجليزي ) ففهم الملك أن هذا تعريض به، لأنه

كان قد عطل الدستور ،ولمّا سأل قال له وزير معارفه : " هذا من تدبير طه حسين " ؟ ... !  
كان ذلك يوم السبت ويوم الخميس صدر قانون وزاري بنقله من الجامعة - ولمّا رفض تنفيذ القرار - يقول طه حسين : فقلتُ له : " طلبني رئيس الوزراء وقال لي : لماذا لا تنفذ قرار الوزير ؟ فقلتُ له : إنه (...) ولا أحب أن أتعامل معه ... ثم صدر قرار إحالتي على المعاش حدث ذلك في عهد الملك ( فؤاد ) الذي أشيع عنه أنه كان يؤمن بالعلم والتطور لأنه قال لطله حسين حين استقبله في الثلاثينات : أرجو ألا تصبح شهادة الليسانس شهادة طلاق بين طلاب الجامعة وبين العلم .

أما الملك ( فاروق ) فحين استقبل طه حسين على مضض في أوائل الخمسينات قال له : أرجو أن تكون قد تخليت عن يساريتهك بعد أن أصبحت وزيراً !! أنا لا أريد منك يا دكتور طه الكلام الفارغ الذي تحدث به الناس وتكتبه في الجرائد !! يقول طه حسين : لزمّت الصمت.. وكان ردّي عليه بعد ذلك بيوم واحد أن أعلنت مجانية التعليم الابتدائي والثانوي،ولمّا أردت إعلان مجانية التعليم الجامعي رفض الملك وقال لرئيس وزرائه ( النحاس) إن طه حسين يريد أن يجعل البلد اشتراكية<sup>١٩</sup>.

طه حسين الذي استطاع أن يكون عصارة طيبة لمهدين مختلفين : الأزهر والسوريون أو الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية وامتدت حياته من أواخر القرن التاسع عشر عام ١٨٨٩م حتى أوائل الربع الرابع من القرن العشرين ١٩٧٣م.. لكن الحلقة المشرقة في هذه الحياة امتدت لأكثر من ثلاثين عاماً كانت بين ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢ وبعد هذا الاثراق وقف في أواخر عمره ضد تجديد طلابه الذين ربّاهم على قيم احترام العقل ،وتدريب الفكر وتنمية الشك في كل قديم حتى تثبت صحته ، وذلك حين وصف الأدب الجديد بأنه " يوناني لا يقرأ " الأمر الذي قاده إلى صراع مع طلابه وقف فيه المجدد القديم طه حسين ضد التجديد وليس هذا غريباً في كثير من الحالات ولعل الرجل على أهميته لم يرتفع إلى مستوى أعظم المتمازين الذين عناهم ( برناردشو ) حين قال : إن جميع المتمازين بدؤوا حياتهم شائرين وأتم هؤلاء المتمازين يزادون ثورة كلما تقدموا في السن "... ويمكن القول هنا : إن استمرار القدرة على التجديد حتى آخر العمر صفة لا يتمتع بها إلا الأقلية القليلة من بني البشر .. ولكن هل موقف طه حسين ضد التجديد في بداية الستينيات من هذا القرن يُلغي القيمة التاريخية له ؟ هذه القيمة التي نرى أنها سوف تظل سارية ،رغم موقفه هذا إذ من المؤكد أن الكثير من نواحي التجديد ،ماكانت لتحدث في الوقت الذي حدثت فيه لولا وجود طه حسين هذا الرائد العظيم ،حين عمّم التعليم ونشط الترجمة ودعا للأخذ بالمناهج العلمية الحديثة في الدراسة ،وبذلك كان حلقة مشرقة في الدعوة للإيمان بقيمة العلم في

حياة الشعوب، وتقديس حق الشعوب في الحرية، بحيث كان معلماً للأجيال التي جاءت بعده.

ولعل وقوف طه حسين ضد التجديد يمثل سلوكاً اجتماعياً دون أن يمثل سلوكاً فكرياً، والسلوك الاجتماعي يتأخر صفاؤه دائماً عن السلوك الفكري المجرد كما يقول (حنا مينة) في كتابه (هواجس في التجربة الروائية، ص ٢٧).

إذ منذ المعركة الضارية ضد كتابه عن (الشعر الجاهلي) صار طه حسين يميل إلى أن يكون (ثائراً) في الفكر (عاقلاً) في قضايا السياسة والمجتمع.

هذه المواقف من طه حسين ضد التجديد لا تمنع الرؤية العلمية الموضوعية له من تلاميذه فهذا أحد المجددين الشاعر (صلاح عبد الصبور) يقول في كتاب له بعنوان (ماذا يبقى منهم للتاريخ؟) ص ٣١:- لست أغالي إذا قلت إن من عاشوا بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٥٠ يستطيعون أن يقولوا انهم عاشوا في عصر طه حسين كما يقول الناس أنهم عاشوا في عصر شكسبير أو في أيام فولتير .. وهذا أحد تلاميذ طه حسين الذي أصبح فيما بعد من الكتاب المشهورين (الدكتور عبد الكريم الأشتر) يقول: كنا نعشق في كل أستاذ صفة" في أحمد أمين الوضوح والعمق، وفي أمين الخولي القدرة على الإثارة والآراء المتجددة، وفي عبد الرحمن عزام نقاء عرويته ورعايته للطلبة العرب ولكننا كنا نلتقي جميعاً هذا اللقاء المعقوي في ظلال هذه الشخصية الأسرة لا يكاد يغلت من أسرها أحد (طه حسين) شخصية تمثل في عقولنا وقلوبنا هذا الحضور الدائم الذي لا يغيب والمكانة الرفيعة التي لا تتأخر، والعطاء الخصب الذي لا يدانيه عطاء إن وجوده المعنوي كان يسبق حضوره المادي...."(٤).

إن طه حسين رجل المجابهة والتحدي مستمر في الذاكرة، لأن العقبات حتى ولو كانت كفت البصر، لم تنف أمام إرادته في صنع نفسه ليصبح مثلاً رائعاً للظامئ الذي لا يرتوي من المعرفة المقرونة بالعمل.

وإذا جئنا إلى طه حسين لنرى ما نريد أن نراه فأننا بذلك نظلمه وإذا جئنا إليه وفي أنفسنا مواقف مسبقة جاهزة نبحث عنها فإننا نتجنى عليه لأنه عمل وناضل في زمن غير زمننا الحاضر.



### هوامش :

- ١- دكتور طه حسين (الأيام) طبع دار المعارف بعصر ج (٣) ص ٣٢.
- ٢- دكتور طه حسين (الأيام) ج ١ ، ص ٤.
- ٣- الأيام، ج ٣- طبعة دار المعارف بعصر، ص ١٦٤ - ١٦٥.
- ٤- دكتور عبد الكريم الأستر - رجال رأيهم يعبرون حياة الجيل، مقال في جريدة البعث، ١٩٨٣/١١/٢٢.

---

### المراجع والمصادر:

- «دكتور لويس عوض - الحرية ونقد الحرية- الهيئة العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧١.
- «فتححي العشري - الإنسان كلمة- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة ١٩٨٨.
- «دكتور لويس عوض - دراسات في أدبنا الحديث - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٦١.
- «مئوية طه حسين، عدد خاص من مجلة أدب ونقد رقم (٥٣) كانون الأول عام ١٩٨٩.
- «قضايا وشهادات رقم (١) كتاب دوري ثقافي بعنوان طه حسين.







## الباب الثاني: من أعلام الغرب

### الفصل الأول

#### أعلام قدماء



## سقراط أول شهداء حرية الفكر

(٤٧٨ - ٣٩٩ ق.م)

" اعرف نفسك بنفسك " حكمة قديمة نقشها القدماء على باب معبد دلفي اليوناني .. من هذه الحكمة انطلق سقراط الذي نشأ بينما كانت أثينا تعيش أسوأ أحوالها .. لم يكن من أسرة متوسطة وإنما كان من الطبقة الدنيا كان أبوه حفاً وكانت أمه قابلة .. لم يكن جميل الطلعة بل كان قبيح المنظر ممقوت الشكل ولكنه ذكي القلب نافذ البصيرة شديد الغنّة، درس الناس حوله .. ولكن ما إن بلغ سن الرجولة حتى أحس أن ما في نفسه يخالف ما في أنفس الاثينيين وأن له ميولاً تخالف ميولهم وأخذ يحاور من حوله ولكن ذلك لم يصرفه عن واجباته الوطنية يشترك في الانتخابات ويجلس في جماعة الشعب وعندما انتخب في مجلس الشورى رأس جماعة الشعب، واشترك في الحرب غير مرة، وأظهر فيها شجاعة وتضحية بالنفس .

إن طريقة سقراط في الحوار جعلت الشبان يميلون إليه، لم يكن له مدرسة وإنما كان هو نفسه مدرسة مُنتقلة يحاور في الميادين العامة في الملاعب الرياضية. كان حسن الدعاية حيث لم يكن حواراه إلا دعابة متصلة وهزلماً مستمراً يخفيان تحتها الحق والجد ولم يكن له موضوع بعينه يدرسه ويحاور فيه، كما لم يحاول أن يلتمس من محاوراته مجداً ولا كسباً، بل كان يغر منهما كأنهما وباء.

### رسالة سقراط :

" إن الحياة بغير بحث ليست جديرة بالإنسان ، هكذا جعل سقراط شعار حياته لأنه كما يصف نفسه مُحِباً للحكمة وليس حكيماً .. وحين تمكن من نفسه طلع إلى الاثينيين يعلمهم بارتداد الأسواق يتحدث مع كل الناس لا يكثر بحال محدثه غنياً كان أم فقيراً شاباً أم شيخاً وخصص وقته لتحقيق الرسالة التي كان يعتقد أنه وجد من أجلها وهي أن يكون حافزاً للشعب الاثيني يحمله على الخير ، ويدفعه إلى التمسك بالعدالة .. ومن أجل هذه الرسالة أجعل سقراط شؤون منزله وأغفل أعماله الخاصة وازدري المناصب وخصص وقته لإيقاظ الناس من نومهم وإبعادهم عن التقاليد البالية، وخاصة إن إيمان اليونانيين أخذ

يضعف تدريجياً بالآلهة كلما ارتقى تفكيرهم واستنارت عقولهم نتيجة لتغيير نظرة المفكرين والأدباء نحو هذه الآلهة، بدءاً من القرن السادس قبل الميلاد فبعد هجوم دام طويلاً على الآلهة نادى ( جوراس ) بأن ( العقل سيد كل شيء ) فلا يجب احترام غيره، وتبعه سقراط زعيم الفكر الفلسفي في حملة عنيفة على الآلهة المتعددة، وأخذ يُعلم الأثينيين فكرة الإله الواحد، واعتبروه لذلك خارجاً على آلهة المدينة وكانت هذه واحدة من التهم التي أُعدم من أجلها ولكن إعدامه لم يمنع المفكرين والأدباء من بعده أن يُتابعوا مبادئه.

### الفلسفة .. من أجل الإنسان:

قال ( شيشرون ) .. "إن سقراط أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض لأنه يؤمن أن لا خير في معرفة تهمل الإنسان لتعنى بالطبيعة" (١).

ولا قيمة لأي علم مالم يتمحور حول الإنسان وقضاياها .. فعل ذلك في الوقت الذي كان الفلاسفة قبله يبحثون في أمور الطبيعة الخارجية في قوانين العالم القابلة للقياس .. وجاء سقراط لينادي بأن الفلسفة الحقيقية هي البحث عن ذات الإنسان وعن كنه نفسه، ولقد علق على نظريات الذين سبقوه بقوله: هذا الأمر حسن جداً ولكن هناك بالنسبة للفلسفة موضوعاً أهم من البحث في ماهية الأشجار والكواكب والنجوم .. وهو الراحن البشري .. ومن هو الإنسان؟ وما الذي يستطيع أن يؤول إليه..؟؟ من هذا الموقع الفكري الواقعي انطلق سقراط لسبر أغوار النفس البشرية.

### منهج سقراط ألب الحاقدين عليه:

لقد بهر سقراط مستمعيه بحدية البسيط البليغ في الوقت ذاته، وقدرته على كشف أخطاء الخصم، لأنه عاصر السوفسطائيين وأخذ بعض أساليبهم فعرض آراءه على شكل محاورات ليقول: ان مهمة الفلسفة ليست النظر إلى الطبيعة... بل تعليمنا كيف نعيش، لأن المعرفة الحقة عنده تنطلق من معرفة الانسان، وقد طابق سقراط بين الفضيلة والمعرفة وعنده أن جميع الأعمال السيئة تعود إلى الجهل وأما الفضيلة فتعود إلى المعرفة، وقد كانت نظريته العقلانية الواقعية هذه حول المعرفة مثار دهشة معاصريه لأنهم اعتادوا غيرها..

اتبع سقراط في حديثه مع الناس منهجاً جديداً في البحث كان يتصنع الجهل، ويتظاهر بأنه يُسلم بكلام محدثه، ثم يُلقني عليه الأسئلة ويشككه فيما يقول، ومن ثم يوقعه في التناقض وحين يصل بمحدثه إلى أن يشعر بجهله، يولد لديه، الاستعداد للمعرفة وهنا يأتي دور سقراط ( المعلم ) في توصيل تلميذه إلى المعرفة التي يبتغيها له .. وقد أثار منهجه هذا الإعجاب البالغ والعداوة الشديدة في آن واحد أقبل عليه الشباب وكرهه الخطباء

والشعراء والسياسيون لأنه كشف أمرهم وجعل البعض منهم سخريّة للناس وكان أول الذين هاجموه الشاعر الهزلي (أرستو فانس) الذي كان رجعيّاً يميّقت حرية الفكر وينفر من كلّ تجديد واعتبر سقراط من السفسطاقيين وشنّ عليه هجوماً في مسرحيته (السّحب) حيث صورته تصويراً مضحكاً، ونادى في آخر مسرحيته بأن العدالة تتطلب حرق سقراط وتلاميذه ومدرسته ... كلّ هذا يُضاف إليه منهج سقراط في البحث وعداوته للحروب الظالمة عندما كان عضواً في مجلس الشيوخ ... قد ألب عليه رجال السياسة والرأسماليين الذي أثروا من تجارة السلاح.. لقد هاجم هذه الفئات بقوله: " يدهشني تماماً راعي الغنم الذي لا يعترف بجريمه عندما يذبح جزءاً من قطيعه ويترك الجزء الباقي للموت جوعاً، كما يدهشني أكثر الحاكم الذي يُلقِي بنصف شعبه إلى الهلاك ويستغل النصف الآخر ثم لا يخجل من نفسه ولا يعترف بذنبه ... " (٢).

هذا الموقف الشجاع جعل كبار الحاقدين يطالبون بالانتقام من سقراط حين زعم أحدهم أنه أفسد له ابنه عندما كان تلميذاً عنده، ونجح هؤلاء الأعداء جميعاً في تقديم سقراط للمحاكمة عام ٣٩٩ ق.م. .... وبعد محاكمة صورية صدر الحكم بإعدام سقراط في فترة الحج عند اليونانيين وكانت العادة أن لا يُنفذ حكم الموت أثناء هذا العيد ولذلك كان على سقراط أن ينتظر في السجن حتى تنتهي فترة الحج، وكان أصحابه وتلاميذه يختلفون عليه بالسجن كلّ يوم وكانوا يزينون له الفرار من سجنه ولكنه رفض لأسباب سيذكرها عند مراجعته ضد أعدائه حين طالبت المحكمة سقراط أن يدافع عن نفسه بعد الحكم عليه بالإعدام بدأ بالاعتذار عن أسلوبه الذي لا زخرف فيه، وقال انه لا يحب البلاغة، ولا يعرف أبلغ من الحق، وأخذ يُفند مزاعم (أرستوفانس) في أنه يتقاضى أجراً عن التعليم، وأنه يُفسد الشباب....

أما عن إفساد الشباب فإنهم يأتون بمحض إرادتهم.... وعن أجر التعليم فهو كلام باطل لا يحتاج إلى ردّ .. وكان يمكن لسقراط أن يتجنّب التهم والمحاكمة لأنه بريء ولكنه إيماناً منه برسالته أراد لنفسه أن يبقى مثلاً للتضحية من أجل الواجب الذي يؤمن به ورمزاً للثبات على المبدأ ومن أجل تأكيد ذلك سنورد بعض أقوال سقراط نفسه لقضاة محكمته: ".... يارجال أثينا إن حكمتكم ببرائتي فلن أغير من سيرتي لكنني أستمر في أداء رسالتي لأن هذا هو واجبي، ولا ينبغي أن أتخلى عنه ولو أدى ذلك إلى الموت فالرجل لا ينبغي أن يتدبر أمحياته أو موته ولا يجوز أن يهتم إلا بما يقدمه من خير للناس، ومع أنني كسائر البشر خلقت من لحم ودم، ولي زوجة وأولاد فلن أحضرهم أمامكم كما يفعل غيري ليتوسلوا إليكم ويطلبوا براءتي، وأنا لا أفعل ذلك اعتداداً بنفسي، وأحتقاراً لكم بل لاعتقادي أن مثل هذه التصرّفات تقلل من قدرتي وتحط من شأنكم وتجلب العار على أثينا هذا إلى أنسني اعتبر

أَنْ من الحماسة استجداء القاضي بدل إقناعه فليس على القاضي أن يمنح العدالة ولكن عليه أن يكون عادلاً لا يتبع هواه.... " (٣).

هكذا أنهى سقراط دفاعه المجيد وتمسك بمواقفه وأصرّ على رأيه فحكم عليه القضاة بأغلبية ضئيلة وقبل الحكم رابط الجأش وعندما طلب إليه التعقيب على الحكم قال: " .. ((أيها الأثينيون لقد حكمتم عليّ بالإعدام وهذا لا يحزنني بل يُسعدني لأنني انتصرت على أعدائي . أفضل أن أموت حراً على أن أعيش عبداً...))" (٤).

كان بين الحكم بالإعدام وبين تنفيذه ثلاثون يوماً أغراه خلالها تلاميذه ومحّبوه بالفراغ من السجن وكان يقول: " إن صوتاً في داخلي يطلب مني أن أحترم قانون بلادي قبل احترام حياتي ، وحياة أبنائي ، وأنا لا أرد الشرّ بمثله..."

بعد زمن قصير أدرك الشعب شناعة الجرم الذي ارتكبه محلّفوا أثينا فنادى الشعب بمعاذيقه خصوم سقراط وأقام التماثيل لفيلسوفه الشهيد ومجدّد ذكره بشتى الطرق وخلّده المؤرخون في كتبهم والفلاسفة في محاوراتهم، ليبقى في ذاكرة الإنسانية ووجدانها أول شهداء حرية الفكر في تاريخ البشرية المعروف إذ كان قد عاش ما بين ٤٧٨ و ٣٩٩ ق.م.



## المراجع والمصادر:

- ١- دكتور محمد صقر خفاجة تاريخ الأدب اليوناني - نشر مكتبة نهضة مصر عام ١٩٥٦.
- ٢- دكتور عبد الرحمن بدوي - إفلاطون - مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥٤ ( مقدمة هامة عن سقراط).
- ٣- دكتور طه حسين - قادة الفكر، دار المعارف بمصر ١٩٥٦.
- ٤- أحمد أمين - زكي نجيب محمود - قصة الفلسفة الحديثة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩.
- ٥- جماعة من الأساتذة السوفييت - موجز تاريخ الفلسفة - دار الجماهير الشعبية دمشق ١٩٧٩،  
ترتيب: توفيق إبراهيم سلوم.
- ٦- الدكتور علي حافظ بهنسي - سقراط - سلسلة إقرأ، عدد ( ٧٨ ) دار المعارف بمصر ١٩٤٩.

---

## هوامش

- ١- موجز تاريخ الفلسفة جماعة من المؤلفين السوفييت، ترتيب توفيق سلوم- دار الجماهير الشعبية ١٩٧٩، ص ٨٦.
- ٢- دكتور محمد صقر خفاجة، تاريخ الأدب اليوناني - مكتبة نهضة مصر، عام ١٩٥٦، ص ١٦٦.
- ٣- المصدر نفسه ص ٧٠.
- ٤- الدكتور عبد الرحمن بدوي - افلاطون مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٤، ص ٦١.







## فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م)

### "سعادة الإنسان في العقل والحرية"

لا يمر يوم دون أن يتذكر الواحد منا ( فولتير الذي اقترن اسمه بـ حرية الفكر) منذ أن أطلق شعاره المجيد في القرن الثامن عشر قائلاً: " قد اختلف معك في الرأي ولكنني على استعداد لأن أدفع حياتي ثمناً لحقك في الدفاع عن رأيك". وذلك بسبب ما تتعرض له حرية الكلمة وحرية الفكر في الوطن العربي من ملاحقة واضطهاد .

احتل فولتير مكانة خاصة في حياة فرنسا، الفكرية فتحدث عنه تاريخ الثقافة كاتباً كبيراً وعالمًا وفيلسوفاً كما كان. محاجاً موهوباً وأديباً ساخرًا هجاءً، وقد بقي حتى آخر حياته المديدة ١٦٩٤-١٧٧٨م مناضلاً لا تلين قناته ضد الكنيسة والتعصب الديني كما كان يمقت الطغيان والملك.

ومنذ أن أصبح مشهوراً في الرابعة والعشرين من عمره ظل ولمدة ستين عاماً بعدها الشخصية الرائدة في بلاده. تعرض بسبب آرائه للسجن والملاحقات فسجن أكثر من مرة وكان يُطلق سراحه بشرط أن يغادر فرنسا .. ورحل نتيجة لذلك إلى إنجلترا وسويسرا وألمانيا ولم يتنازل عن شجاعته في إبداء رأيه، وفيما كان تلميذه " روسو" يخاف الخطر الذي يتعرض له كل من يحاول تحريك الجماهير الملتفة حول الملكية الفرنسية، نجد فولتير يقول: ".... إن شقاءنا ناتج عن خضوعنا للعادات القديمة التي يطلق عليها اسم " الشرائع"، وإن الشعوب تخضع للملوك لتستعبد أو تُسلب وإذا كنتم بحاجة إلى شرائع عادلة فاحرقوا مالدكم منها وضعوا جديدة غيرها .. جميع عاداتنا لا تصلح إلا طعاماً للنار " أيتها العدالة المقدسة .. اسمعي صوتك الرهيب القادم.." (١).

وقد احتال فولتير كي يعيش ويرصد حياته للحرية والكفاح في سبيلها، أن اشترى أرضاً في سويسرا وأرضاً أخرى في فرنسا وكانتا تتجاوران وذلك ترقباً من الاضطهاد من إحدى الحكومتين السويسرية أو الفرنسية بحيث يستطيع الفرار إلى فرنسا إذا وجد الحملة عليه من الأولى، أو إلى سويسرا، إذا وجد الحملة عليه من الثانية ...

## اثر مدينة لندن في حياة فولتير :

سافر إلى لندن هرباً من القهر والاضطهاد عام ١٧٢٦م وكتب إلى أصدقائه : " أعرف أنها بلد تحترم فيها الفنون وتكافأ وأن فيها فروقاً بين الطبقات دون فروق بين الناس، سوى ما يفرضه فضل كل منهم . إنها بلدٌ يفكر فيه الناس بحرية وتُبل دون أن يردعهم خوف دنيء، لو اتبعت هواي لا ستقر بي المقام هنا لاتحدوني سوى الرغبة في أن أتعلم كيف أفكر...

أمضى في لندن حوالي ثلاثة أعوام حتى عام ١٧٢٩ م أثرت تأثيراً عظيماً في مجرى حياته، إذ شاهد عام ١٧٢٧ جنازة ( نيوتن ) ودُش لما رآه في تكريم العبقرية والعلم والعلماء وهذا الإعجاب دعاه لأن يكتب " رسائل عن انجلترا " عندما عاد إلى وطنه، ثم كتب (مبادئ فلسفة نيوتن)، وقد أعجبه نظام الإنجليز السياسي كما أعجبته الحرية الشخصية الديمقراطية التي أظهرت فساد نظام بلده السياسي ... وفي عام ١٧٣٤ نشر كتابه، الشهير ( رسائل فلسفية ) الذي كان البداية الحقيقية لحركة التنوير في فرنسا القرن الثامن عشر وقد وصف فيه النظام الانجليزي المحبب إليه وأفكار المفكرين الإنجليز مما أثار حفيظة الفرنسيين فأجبروه على أن يترك فرنسا ثانية ..

## العمل عند فولتير :

آمن فولتير بأن العمل نصيب كل كائن بشري كما هو حقُّ هذا الكائن وشرفه، وكما يقول: إنني ألاحظ كل يوم أن العمل حياة الإنسان وهو يستجمع قوى النفس ويضفي عليها روح الهناء والغبطة، وتطبيقاً لهذا الإيمان كان يعمل نهاراً وليلاً بنشاط المرء حين يستيقظ من نومه، لم يعرف الملل يوماً ولم يطرأ عليه الكلال..

وقد قال (فاجيني) أمين سره الذي قضى في خدمته ما يقرب من ربع قرن: " إنه كان يعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم وإنه كان يوقظه ليلاً ليملي عليه ما يُريد أن يدونه .. " (٢).

كان فولتير يرى أن اللذة التي لا يشوبها وهم ولا زيف توجد في الزراعة وغرس الأشجار والنباتات حتى لقد قال يوماً: " انه لم يعمل إلا شيئاً واحداً معقولاً طيلة حياته هو زراعة الأرض " وكان كلما تقدم في السن ضاعف من عمله المتشعب وأعماله هذه لم تمنعه من دخول مسابقة لنيل جائزة المجمع العلمي الفرنسي وهو في الثمانين من عمره .. وكثيراً ما أبدى الأسف على وقته الذي يضيع سدى في لعبتي، الورق، والشطرنج، لأن ذلك كما يقول: ملهية يرتاح إليها الخاملون..

## فولتير .. والكتابة :

هوجم فولتير لأنه يصغر الأشياء العظيمة بشدة إيضاحه لها وجعلها في متناول الجميع وذلك إنه يعتبر الكتابة عملاً كما اعتبرها في مقدمة الفنون ولخص فن الكتابة بقوله إنه : " التعبير عما في الفكر تعبيراً دقيقاً ".

وفولتير لم يكتب كمحترف ولا سعياً وراء مجد ولكنه كتب لييسر نفسه على الورق وفي سهيل العمل وحده وأن ما يريده في هذا المجال هو أن يتكلم القلب ويسكت الكاتب، وأما من يكتب لمجرد الاعتقاد بأن الواجب يدعوه إلى ذلك فإنه عند فولتير لا يستحق غير اللعنة، ولا فاصل عنده بين الرجل وما يكتب.

يقول : ان ما أحبه في الأديب أن يمشي الكاتب فيه خلف الرجل لا يجب أن يسير الرجل في المؤخرة بل في المقدمة ولا يوجد عنده رجل وكاتب بل رجل يجمع الصفتين..

وحول طغيان العقل على الأدب نرى فولتير يقول : لن أتردد في إتلاف مؤلفي، لو تأكدت بأنه سينظر إليه كعمل من أعمال العقل. إن العقل يسمى وراء الأحكام والمجادلات الباهرة والتأملات وهذا ما يحط من مكانة الأدب.

كما أنه يميل إلى الإيجاز ولا يتجاوز في كتابته ما يستلزمه التعبير عن فكره وشعوره لحظة الكتابة، يقول : " لماذا أكتب مجلداً ما دامت تكفي بضع صفحات " (٣). وقد عاب على معاصريه لأنهم يكتبون مجلدات مقابل صفتين في حين لا يحتاج الأمر لأكثر من سطرين مقابل صفتين.. إن المدارس تمنح الجوائز لمن يفيض في التحرير، وهذا يعلم الطالب طرق الإبهام فالذي يجدر أن يكافأ هو الذي يضبط فكرته لأنه يعرف كيف يكتب بقوة... وبدلاً من أن نُسَمَّى الإفاضة جمالاً نسمى عيباً..."

ويرى فولتير أن الذي رفع قدر الشاعر (راسين) هو أنه كان لا يقول أكثر ممّا يجب، في حين أن غيره كانوا يقولون .. كل ما يستطيعون، وهذا ما جعل فولتير يتجنب التعميق والتصنع فهو يهتم في عمق الشاعر والتأثير لا في العبارات والألفاظ وبفضل هذا البعد عن التصنع والبلاغة المفتعلة في اللفظ مع نزاهته وإخلاصه في العمل ظلّ ستين عاماً - وهو عمر العطاء عنده - ظل يتجدد باستمرار، وظل يتجنب استعمال ما هو مُمل أو متعب حتى لو تناول الموضوع الواحد مراراً كما استطاع ألا يتقيد بطريقة واحدة وأن يبتعد عن التقليد لأن هناك طرقاً كثيرة كي يصبح الإنسان فنّاناً، وفناناً كبيراً.

أحب فولتير الأدب إلى درجة عبر عنها حين كتب لصديقه ( فورمون ) : " إنني لا أعرف ولا أريد أن أعرف في حياتي غير الآداب الجميلة.. " ويعرف عنه أنه إذا صادف عملاً أدبياً

رائعاً فإنه يتلوه باحترام ويشعر بالإجلال نحو صاحبه وأنه لا يتمالك نفسه عن معانقته لو كان حاضراً ..

ولعل الناقد الكبير ( سانت بوف ) كان على حق حين وصف " فولتير " بأنه .. " كان حين يبدأ الحديث في موضوع فإنه يعطيه حقّه أكثر من سواء وبمجهود أقل ... " (٤).

### سخرية فولتير :

بالإضافة إلى سخرية فولتير وتهكمه كان ذا حصافة عالية وذكاء متوقد ونكتة رائعة لم يتوان في استخدامها .. كشف في سخرياته اللاذعة نقاط الضعف في الأشراف وفي الكنيسة أكثر من أي بحث فلسفي .. ومن المعروف أنه لم يسخر من الدين والدولة بل سخر من ممثليهما الذين لم يكونوا أهلاً لذلك ..

يُروى عنه- أنه بعد موت ( لويس الرابع عشر ) باع القائم بأعماله نصف الجياد التي لا تحصى في اسطبلات الملك - علق قائلاً: ( كان خير وأبقى لو عزل نصف الحمير الذين يملؤون البلاط الملكي... " كما كتب يقول : " إن رجل الدين الغبي والجاهل يثير احتقارنا .. ورجل الدين الشرير يولد الرعب في نفوسنا ، أما الصالح المحسن البعيد عن الخرافات فهو الجدير بحبنا واحترامنا... " .

وصل إلى علم فولتير أن الملك " فريدريك " تحدث عن توصل فولتير إلى معرفة حقيقة المادة، فقال الأخير ينقد موقف الملك : " لا توجد غير قبعة حمار لتوضع على رأس ذلك العالم الذي يتوهم أنه يعرف حقيقة المادة ؟! ! .

وبسخرية اللاذعة يتحدّث عن أولئك الذي لا يتحولون أبداً عن آرائهم: " .... بأنه لا يعرف إلا وسيلة واحدة لعدم التحول عن الرأي وهي عدم إبداء أي رأي أو الإجابة عن " أي سؤال ! ! " .

بعد مجاملة امتدت طويلاً دعا الأمير ( فريدريك ) فولتير إلى بلاط والده فردّ قائلاً: " إنني أجد في مجيئي إلى بلاط سموكم الملكي وتقديم عبارات احترامي فخراً ثميناً وسعادة فائقة ولكن الصداقة التي تربطني مع عزلتي لا تسمح لي بمغادرتها ، ولا شك أنك تفكر مثل (يوليانوس) إن الأصدقاء يُفضلون على الملوك... " .

وعندما صار ( فريدريك ) ملكاً بقي فولتير على موقفه وأعلن أنه يفضل مدام ( دي شاتليه ) على كل بلاط في العالم .

ولما سخر الملك هذا من جهل بعض الناس. كتب إليه فولتير يقول: " إن جلالتكم لعلها أحق بالسخرية من الحيوانات ذوات القوائم التي تظن أنها تعرف كل شيء... " .

وبعد أن خرج من السجن الذي قضى فيه أحد عشر شهراً، جاء الوصي على العرش ومنحه ألفي دينار للتعويض عما أصابه فقال فولتير: " يا سيدي إنني أشكر سموكم على اعتنائكم بتأمين طعامي، ولكنني أرجوكم ألا تهتموا بإسكاني بعد الآن...".  
يُحكى عن لويس السادس عشر ملك فرنسا أيام الثورة الفرنسية أنه أطل من نافذة السجن في باريس فوجد الناس يحملون نعش فولتير الذي نقلوه من قبره الوضيع يريدون الاحتفال بدفنه من جديد في ضريح ضخم، فقال الملك وهو يشير إلى النعش: " كل ما نحن فيه من مصائب، جاءنا من هذا الرجل...". ١١١.

### الصداقة عند فولتير :

قرأ فولتير في أحد مؤلفات " بوب " الشاعر الانجليزي أن متاع الحياة في الراحة واليسر والصحة فصاح: " والصداقة والحب... إن الصداقة هي شهوة القلوب الكبيرة وهي أعظم تعزية في الحياة كما أنها أولى الفضائل...". (٥).

كما كان يقول: " لا توجد سعادة بغير أصدقاء يجب أن يسمو الإنسان على عوامل النجاح أيّاً كانت حسنة أم سيئة ولا بد أن يكون حساساً بشعور الصداقة إن الأصدقاء القدماء يملكون شعاب القلب". (٦).

وكان لفولتير أصدقاء فقد كتب لأحدهم عام ١٧٥٤م: إنه لمن أحب الأمور أن يحب بعضنا بعضاً ونحن في المائة من عمرنا، إننا الآن في الخمسين فعازلت أماننا صداقة خمسين عاماً أخرى...".

وعندما بلغ الخامسة والسبعين تقريباً كتب له:

"اشعر بأن قلبي مازال فتياً كلما فكرت فيك..".

"إن الكتاب الوحيد الذي تجب قراءته هو كتاب الطبيعة والدين الوحيد الذي يجب اعساقه هو أن يعبد الإنسان الله ويكون شريفاً...". (٧).

### فولتير وحرية الفكر :

ناضل فولتير من أجل حرية المعتقد حين وقف بحزم مع قانون حرية الضمير الذي أصدره ( ولیم بن ) في آخر القرن السابع عشر في ( بنسلفانيا ).. وقد اتخذ من العرب مثلاً على حرية الفكر والتسامح الديني أثناء نضاله من أجل الحرية الفكرية يقول: " إن العرب عندما فتحوا إسبانيا لم يُرغموا أحداً على اعتناق الدين الإسلامي...".

كما ندد بأولئك الذين يعذبون المفكرين بسبب آرائهم، هؤلاء الذين جعلوا قاتلي سقراط قدوة لهم، ويتابع مندداً باضطهاد الفكر في بلده قائلاً: " .. إن سقراط هو الفيلسوف الوحيد الذي قتله اليونان لآرائه وأفكاره.." ، ولم يلبث اليونانيون أن استنكروا فعلتهم التي كانت نتيجة دسيسة فعاقيوا الدساس وشهدوا تماثيل للفحشية وبذلك جعلوا موت سقراط تمجيداً للفلسفة، ثم يقارن بين التمثيل في عصره وفي العصور السابقة فيلاحظ أنه في العصور السابقة لم تكن هناك استجابات ولا مشائق ولا تمزق أعضاء المحكوم عليهم .

كان " فولتير " جمهورياً في عصر الملكية الذي وصفه : " إن اختراع مهاجمة الجار والفنك به يعتبر أساساً للحكم الملكي، أيهما أصلح أن يكون وطنك مملكة أو جمهورية..؟؟".

" إذا سألت الأغنياء عن رأيهم فإنهم يفضلون الأرستقراطية وإذا استفتيتهم الشعب فإنه يريد الديمقراطية ولا يوجد من يفضلون الملكية غير الملوك... ومع أنه لا توجد حكومة كاملة ولكن أحب الحكومات بغير شك هي الحكومة الجمهورية لأنها تقرب الرجال من المساواة الطبيعية..".

وقد دافع فولتير عن حرية الإنسان وعنده أن الإنسان حر لأنه يعي حريته الذاتية، وأن من يوجد فعلاً هو الإنسان المفكر.. " وهو لا يكون حراً إلا حينما يكون قادراً على تنقيته مايريد..".

كما وقف ضد الذين يقولون بـ (فطريسة المبادئ الأخلاقية) الأمر الذي لا يمكن معه إصلاح الإنسان أو تقدّمه وانتقد آراء ( باسكال ) و(روسو) خاصة اللذين عارضوا الثقافة لأنها تشوه الطبيعة الإنسانية..

واعتبر فولتير أن الرجوع إلى الحالة البدائية كما يريد روسو أمرٌ يتناقض مع الطبيعة الإنسانية الساعية دائماً نحو التقدم والتحضّر، وأن الإنسان المتحضّر يعيش أكثر تلاؤماً وانسجاماً مع طبيعته من الإنسان المتوحش البدائي...

ويرى فولتير أن انتشار الثقافة هو الدواء الأنجح ضد التمصب، يقول: " ثمة متعصبون باردو الأعصاب وهم القضاة الذين يحكمون بالإعدام على الذين لا جريمة لهم سوى أنهم لا يفكرون على شاكلتهم ..

وليس من دواء لهذا الداء المقيم إلا الفكر الفلسفي الذي إذا انتشر لطّف الأخلاق وهذا من حدة المرض..

إن شجاعة فولتير قادتته لأن يقول رأيه في كل مايعرض له ويراه غير موافق لحقائق الحياة فهو يغند افتراءات اليهود حول أنهم " شعب الله المختار" بقوله: " إنه من السخف

التفكير في أن الله صاحب العزة والجلال قد اختار اليهود وهم قبيلة من البدو الرحالة ليجعل منهم شعبه المختار..."

ومن كتب فولتير الهامة كتاب بعنوان ( تفسير التوراة ) وقد نقد فيه التوراة نقداً شديداً وهاجم الخرافات وهو يتحدث بهذا الصدد واعتبر أن الخرافة بالنسبة للدين مثل التنجيم بالنسبة لعلم الفلك، أو مثل الفتاة المجنونة بالنسبة للآم الحكيمه العاقله.. ويستنتج أن الخرافة الناتجة عن السفه والأنانية هي ألد أعداء العقل الإنساني..

تناول فولتير معظم جوانب الفكر الإنساني في كتاباته التي زادت حين جمعت عن ثلاثين ألف صفحة، وإذا كان بعضهم يرى أن أفكار فولتير عادية في يومنا هذا فإننا نستعير قول كاتبنا نفسه موضوع هذا الحديث - الذي كان على درجة عالية من الموضوعية وهو يوضح لنا كيف نحكم على الأجيال قال: " لقد طال مارَدَدنا بأنه لا يجب الحكم على تلك الأجيال بالقياس إلى جيلنا .."

إنه " فرانكو ماريا أدويت" المعروف عالمياً باسمه الأدبي " فولتير " ..



## مصادر البحث ومراجعته:

- ١- فولتير - تأليف سليم سعدة - إقرأ عدد (٧٢) نشر دار المعارف بمصر.
- ٢- فولتير، سلسلة زمني علماً - تأليف: أندريه كريسون، ترجمة دكتور صباح محيي الدين، منشورات عويدات - بيروت تشرين الأول، ١٩٦١.
- ٣- أعلام الفكر الفرنسي - نشر دار الشرق الغرب / مصر، د/تا، ترجمة حبيب سعيد.
- ٤- مايكل هارت - كتاب المائة الأوائل، ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سنانو - دار قتيبة للطباعة والنشر (دمشق).
- ٥- موجز تاريخ الفلسفة - جماعة من الاساتذة السوفييات تعريب: توفيق ابراهيم سالم، نشر دار الجماهير الشعبية دمشق ١٩٧٩ ج ١.
- ٦- سلامة موسى كتاب- هؤلاء تلموني - نشر دار سلامة موسى للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٩٦٥.
- ٧- سفير عبده - نفسيات المشاهير - منشورات دار النصر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٦.

## هوامش:

- ١- عباس محمود العقاد - ساعات بين الكتب - مطبعة مصر ١٩٥٢، ص ٣٦٣.
- ٢- سلامة موسى - هؤلاء تلموني - دار سلامة موسى للنشر والتوزيع ط ٣، ١٩٦٥، ص ٦٧.
- ٣- سليم سعدة - فولتير إقرأ العدد ٧٢، ص ٢٢.
- ٤- المصدر نفسه ص ٧.
- ٥- المصدر نفسه: ص ٧٢.
- ٦- أعلام الفكر الفرنسي - مجموعة من الكتاب، ترجمة حبيب سعيد، القاهرة ص ٦١، دار الشرق الغرب.





## جان جاك روسو

١٧١٢ - ١٧٧٨ م

### خلق الإنسان حراً...

( جان جاك روسو ) طفولة مشردة في جنيف دون أسرة، طفولة عصامي مشبوب الانفعال، متمرد اشتغل خادماً وتشرد كثيراً ..

ولد " روسو " عام ١٧١٢م، وماتت أمه عند ولادته يقول: " فقدت أمي حياتها بولادتي فبولادتي بدأ سوء حظي .. ".

بقي له والده - اسحق - كثير الخيال سريع التأثر يحب نفسه يميل للعاطفة أكثر من ميله للعقل.. نَمَى الوالد في طفله حبّ الوطن لأنه وإن رأى أماكن كثيرة لكنه لم ير أجمل من وطنه..

علم ابنه القراءة واعتاد أن يجلس معه كل ليلة بعد العشاء للقراءة حتى منتصف الليل حيناً وحتى مطلع الفجر أحياناً... (١).

وبهذا اعتاد الطفل القراءة، وصار يستعير الكتب من أقاربه ليقراء، بينما والده يعمل في النهار كان ذلك قبل العاشرة من عمره وأثر في نفسه في هذه المرحلة (بلوتارك).

بعد قليل تزوج الوالد وأجبرته الحياة أن يترك ابنه بعد العاشرة بقليل، فاضطر هذا الأبْن للتنقّل بين البطالة والتشرد، فما إن يترك منزلاً كان يخدمه حتى ينتقل إلى آخر... وبعد سنوات صار يخدم سيدة ويقراء معها كتب (فولتير) ويسمع إليها إذا تحدثت وقد رغبت هذه السيدة أن يصبح - روسو - كاهناً بناءً على نصيحة أحد أقاربها الذي كان رأيه بالفتى -روسو- " أنه محدود الذكاء جاهل جداً لا يصلح إلا كاهناً في إحدى القرى..." فشلت محاولات السيدة وهرب الفتى من هذا الجو...

سافر ( روسو ) إلى باريس وعمره تسع عشرة سنة ومعه رسائل توصية إلى الكتاب الكبار ونزل بفندق للفقراء. وعندما كان يتناول الطعام في بيت أحد الباريسيين سخر حتى الخدم من طريقته في تناول الطعام إذ عاش في بيئة ريفية فقيرة ...

في باريس تعرّف بـ(فولتير) و(مونتسكيو) و(ديدرو) ... وبينما كان روسو مشرداً ضائعاً في شوارع باريس كان فولتير يعيش في قصر يطل على نهر السين.. وفي إحدى المرات دعا (فولتير) المشهور (روسو) الفتيير إلى أن يؤويه في قصره.. ولكن روسو اعتبر هذه العروض نفاقاً ومداهنة.. ونشبت المعركة بين الرجلين، قال فولتير: " لو كان لأحط الحيوانات ولد، لكان جان جاك روسوا!".

ردّ روسو: " إن المضحك فولتير واحد من أعضاء ديوان التفتيش لاهم لهم سوى إعدام الأبرياء..".

كان روسو يحتقر المال ويهاجم فولتير الذي ( تبرز ) وابتعد عن المعذبين وقضاياهم. ظلّ روسو يقرأ في الحداثق فترة طويلة من حياته وبدأت معرفته بـ(ديدرو) تتحول إلى صداقة فكلاهما فتيير، وكلاهما أديب، وبينهما تشابه كبير في الأدواق، والميل إلى الحلم رغم قسوة الواقع والفتور.

أمضى روسو جزءاً كبيراً من حياته مريضاً ضعيف البنية نحيف الجسم يشكو الأرق كان كثير الفقر والألم دون أن يشكو، عاش حياةً لاحدً لتناقضها، جاع في طفولته وشبابه وعرف بنفسه ظلم الأقوياء للفقراء عانى الإضطهاد وعرفه عن قرب.. ومع ذلك صار روسو عظيماً.. وهنا نتذكر قول الناقد البلغاري الشهير (كارانفيلوف) حين يرى أنه من العجيب حقاً أن ينسكب كل هذا الوحل على هذه الطفولة وعلى هذه الفتوة ولا تبقى أية لطخة مهما ضلّت على روحه ... وأن -روسو- قد عبر وحول الحياة دون أن يلطخ جناحي طائره المائي الصغير ومثله (غوركي) الذي أمضى سنوات طفولته في وحل الحياة وفي وحول ضيقتي الأتق دون أن يوسخ ريش صقره الصغير ( كتاب أبطال وطباع - كارانفيلوف ) كلا الرجلين قد صاغ من شقاء الحياة وحولها إبداعاً يتلاءم مع عصره، ومُتطلبات المظلومين حوله.. فهذه الطفولة المعذبة جعلت روسو- يربط بشكل مبكر بين فقدان الحرية وبين الملكية الخاصة فهو يقول: " ظهر الشرُّ في البشرية حين رسم أحدهم حدوداً حول أرضه وقال: هذا ملكي...". إن روسو يعتقد أن هذا التصرف هو اصل التفاوت بين البشر وبدءاً من هذه الفترة التاريخية استمر الإنسان يدفعه الطمع إلى أن يملك ويملك ونشأت الحروب .. وولد القانون الذي شرع ليدافع عن ملكية المالكين، ويقف في الغالب مع الأغنياء ضد الفقراء، فإذا سرق الفقير شيئاً يسد به الرمق قالوا: إنه مجرم ولكن إذا عاش الغني يتمصّ دمّ العامل والفلاح عاش مستريحاً غير مُذنب يحترمه الجميع ! !

ورأى روسو أن الحرية ليست فاكهة تنمو في كل طقس ومن ثمّ فهي ليست في متناول الجميع " لذلك نذر الكثير من كتاباته للدفاع عن هذه الحرية لدرجة أن جعل من الشعارات

الهامة في كتابه " العقد الاجتماعي " القول: إن البشر يولدون أحراراً ويبقون أحراراً، ومتساوين في الحقوق واعتبر أن من يتنازل عن حريته يفقد صفته الإنسانية ويصبح عبداً والعبودية كما يفهمها " روسو " هي للسيد والعبد معاً لأن الذي يستعبد إنساناً لا يستطيع أن يقول عن نفسه بأنه حرٌ .. وكم من المصائب والخوف كان بالإمكان إنقاذ المجتمع منها لو أن رجلاً خلع أول سياج أحاط بقطعة أرض، وصاح في جماعته: حذار من الإصغاء لهذا المغتصب ... وأنكم لها الكون ولو نسيتم ولو لمرة واحدة إن ثمرات الأرض إنما هي لنا جميعاً، أما الأرض نفسها، فليست ملكاً لأحد وكما أن الكوارث تنشأ من ملكية البعض للأرض دون البعض الآخر كذلك فإن معظم مصائب البشرية تنشأ حين نعمل لإسعاد فرد واحد مقابل إتعاس وإفقار مئة فرد مقابله ..

هذه الأفكار الجريئة الرائدة في زمنها كثرت الأعداء حول روسو - الذي حين سمع بموت لويس الخامس عشر عام ١٧٧٤م قال: " يا إلهي ما أشد حزني ! ! فسئل: لماذا تحزن؟ فقال: لأنه كان يُقاسمني كراهية الشعب، أما الآن فيجب أن احتل هذه الكراهية وحدي .. " كان روسو مفكراً عقلانياً جريئاً وقف عامة الناس ضده وحملوه كحاملوا " فولتير " مسؤولية جميع الاضطرابات التي اجتاحت أوروبا بعد ذلك .. حتى لقد جاء في أغنية ( غافروش ) الساخرة في رواية ( البؤساء ) لفكتور هيجو إنها غلطة ( فولتير ) إنها غلطة ( روسو ) ..

لم يصبح روسو عظيماً في تراث الإنسانية دون أن يقدم قربان الذي تستحقه العظمة إذ اشتراها بمهر غال من الفقر والتشرد والعمل المتواصل، ويظهر ذلك في البرنامج اليومي الذي وضعه لحياته في الأوقات القصيرة التي أتيح له فيها الاستقرار إذ كان لا يكف عن العمل والقراءة حتى كَوّن نفسه بالمطالعة وعشق الطبيعة وتحسس آلام المظلومين، وقراءة كل ما استطاع من تراث القدماء والمحدثين، وإن استقراره لفترة قصيرة أثمر هذا الذي تركه من آثار، والكل يعرف أنه بقي حتى الأربعين من عمره فقيراً مشرداً ثم صمم أن يحمل القلم في يده ليرتفع كالسنديانة فوق النظام الملكي ويدعو للجمهورية والحرية ويقف بحزم ضد الملكية الخاصة التي يعتبرها منبع كل الشرور، واستمر بعد الأربعين يتقدم ويصنع نفسه بالفكر العقلاني والعمل والتصميم.

في عصر لويس الخامس عشر الذي بدأ مع بداية حكمه ١٧١٥ بلغت التناقضات الاجتماعية ذروتها، القليل يقضي حياته في رفاهية مفرطة والكثيرون بن الشعب يموتون جوعاً وقد تجردوا من أبسط الحقوق الإنسانية، وصاروا تحت رحمة الحاكمين ..

في هذا العصر المضطرب كان فولتير يدعو إلى استنارة الفرد عن طريق تهذيب العقل وترقيته وهاجم كل الذين حالوا دون تنوير أذهان الشعب .

وفي هذا العصر المضطرب كان روسو تلميذ فولتير الذي سلك طريقاً مغايراً قد دعا إلى الثورة الاجتماعية التي وضع أسسها في كتابه " العقد الاجتماعي ".  
فهم لويس الخامس عشر ما يحدث حوله من غليان فقال كلمته المشهورة " وبعمدي الطوفان " .

طالبات السلطات السويسرية بإعدام كتاب روسو ( العقد الاجتماعي ) وحرقه فكان موقف فولتير رغم اختلافه مع تلميذه روسو مثار إعجاب لأنه كتب قائلاً : " لا أقر كلمة واحدة مما كتبت ولكن سأقف مدافعاً حتى الموت مؤيداً حقك في أن تقول ما تريد " .

### دروس في حياة " روسو "

تلقى روسو درساً عملياً على يد "كاهن" كان يرعاه... طلب روسو بعض المال من الكاهن، وكان قد رأى أن الناس يعطونه الصدقات حتى يجمعها فقال الكاهن الذي أراد من هذه الحادثة درساً: " ... أنا مسؤول عنك ويجب أن لا أفسد نقوداً وضعت أمانة في يدي ... " . ثم منحه من ماله الخاص...

وبدأ نقاش بعد الدرس بين الكاهن والفتى حول سير العظماء مما أثر في حياة الشاب.  
مرّ ( روسو ) على صاحب كوخ وكان جائعاً فاطعمه خبزاً جافاً ولم يشبع .. وشعر صاحب الكوخ بوجوع ضيفه الفتى وغاب قليلاً وأحضر قطعة خبز ومعها قطعة لحم وعجة... أكل روسو وأراد أن يدفع النسيء، رفض الفلاح .. سأل روسو: لماذا تصرفت بهذا الشكل ؟ أجاب الفلاح: نتظاهر بالمرح خوفاً من الضرائب الثقيلة ..

تأثر روسو للحادثة وشعر بأن الظلم يخفي حقائق الناس ويشوههم، فهذا الفلاح الذي كسب خبزه بعرق جبينه لم يستطع أن يظهر على حقيقته، وعاش في خوف دائم من الظلم .. تنقل روسو بين أكوخ الفلاحين المتشابهة .. وهناك حادثة في طفولة " روسو " كانت درساً بالغ الأثر وتفصيل الحادثة أنه اتهم بكسر أسنان مشط. احتج على هذا الاتهام، لأنه لم يكسرها دافع عن نفسه بغير جدوى، وعومل كما يُعامل المذنب، فموجب على ذنب لم يرتكبه ... فتألم من هذه العقوبة ولم ينس الحادثة وكتب عنها بعد ذلك بخمسين سنة وقال: " .... لو قدر لي أن أعيش مائة ألف سنة ستظل في نفسي لأنني كنت ضحية مالم أفعله .. ولو رأيت ظالماً يعتدي على إنسان لعاقبت ذلك المعتدي في الحال، ولا أبالي بما يحدث لي، ولو كان الحكم عليّ بالموت مائة مرة .. " .

وهناك مُعلّم بارز في حياة " روسو " كان مرشده من المهد إلى اللحد وهو " بلوتارك " يقول روسو: " عندما كنتُ في السادسة وقع في يدي فحفظته .. فرافقني طول حياتي ... ". وكان فولتير ( أستاذه وخصمه اللدود في المستقبل ) قد أغراه بالدرس أكثر من غيره من خلال مآكثبه في " رسائل فولتير الفلسفية " .. نعم أغراه بالدرس وأول مادفعه إلى الكتابة وذلك باعتراف " روسو " نفسه !!

### العقد الاجتماعي ... ملاح:

بدأ روسو كتابه ( العقد الاجتماعي ) بجملة شائرة تقول: " خلق الانسان حراً وهو مستعبد في كل مكان، وليس لإنسان ما سلطان طبيعي على أخيه الانسان، وإن تنازل المرء عن حريته يعني تنازله عن رجولته، وهناك تناقض بين كلمة ( حق ) وكلمة (عبد)... " إن إنسانية الإنسان تنتفي عندما لا يمارس حريته، والسيادة لا يمكن أن تمارس بالإنابة فهي إما أن تمارس بالذات أو لا تمارس أصلاً وليس هناك طريق وسط. يرى روسو أن الجوع انتحار، ومن المؤلم إلى حد القتل أن يرى الإنسان أطفاله يموتون جوعاً بجريمة الأغنياء.

والسعادة هي أن نجعل الثروة بيد أكبر عدد من أفراد الشعب، إذ هنا فقط نقضي على منتهى الفقر ومنتهى الغنى وهنا لا يشتري الغني الفقير بماله، ولا يضطر الفقير أن يبيع نفسه لسد حاجته وفقره، ويصبح شيئاً من الأشياء لا وجود لكرامته الإنسانية، وهذا هو مفهوم "الاغتراب " الذي كان روسو أول من استخدمه بهذا المعنى.

الحرية عنده هي الخضوع للقوانين، الشعب الحر يخضع ولا يُستعبد، له رؤساء لا أسياد، يخضع للقوانين لا للأفراد، ذلك أنه بقوة القوانين لا يخضع للأفراد .

كثيرون اعتبروا روسو رائد العاصفة العظيم ومبدع حقبة جديدة، واعتبروه أكثر تأثيراً من فولتير هذا واحد من أساقفة (باريس) يقول في " عظة " له :

"إن روسو قد ألحق ضرراً أكبر كثيراً مما ألحقه فولتير وأكثر من كل الانسكلوبيديين مجتمعين".

وعندما صدر كتابه " العقد الاجتماعي " عام ١٧٦٢ وبعد كتاب " إميل " منعت حكومتا فرنسا وجنيف تداول هذين الكتابين وطورد روسو، لينتقل بين عدة أماكن ويسافر إلى إنجلترا عام ١٧٦٦ حيث غدا هناك " مواطن شرف " وعاد ليموت بعيداً عن باريس في منطقة ريفية جميلة وبعد انتصار الثورة الفرنسية حمله الثوار المنتصرون إلى مدافن العظماء في

باريس بعد ستة عشر عاماً، قضاها مدفوناً في أحضان الطبيعة، واحتفل بنقل رفاتة احتفالاً عظيماً لأنهم كانوا يعتبرون كتابه ( العقد الاجتماعي إنجيل الحرية )... كما اعتبر كتابه " إميل، " إنجيل التربية ..

صدر كتاب العقد الاجتماعي حين كان من الخطر أن يرفع رجل صوته ، لكن " روسو" لم يبالي وطرح كل ما يفكر فيه بروح قوي وأسلوب ثائر ولغة مؤثرة كتب عن حقوق الشعب وحقوق الفقراء، مخالفاً السائد في عصره الذي يلخصه القول: " ... إذا كان الحكام كالذئباب وحب أن يكون الشعب كالغنم ...".

تأثر روسو في كتابه هذا بما كان يحدث في إنجلترا وما كان يحدث في الماضي البعيد في عصر أفلاطون وسقراط وأرسطو.. وأصبح كتاب "العقد الاجتماعي" إنجيل الثورة الفرنسية بعد وفاة روسو ١٧٧٨ ففي سنة ١٧٨٨م كان قادة الثورة يقرؤون العقد الاجتماعي في الشوارع ويهتفون له، وعنه قال ناهليون: " لو لم يكن روسو ما حدثت الثورة الفرنسية " فروسو بذور الثورة فيما كتب وشاركه في ذلك عدوه اللدود " فولتير"، إذ لم يجرؤ على النقد الحر أحد قبل الثورة الفرنسية إلا فولتير وروسو اللذين كانا من عشاق الحرية والصراحة في الرأي والقول، فكتب روسو يدافع عن الفقراء وينتصر للعامة تتوده العاطفة والوجدان الحي وقلبه الحساس وكتب فولتير يقوده عقله وذكاؤه النادر، وإطلاعه الواسع، يعلي من شأن العقل والمواهب العقلية، مطالباً بنقل السيطرة من رجال الكنيسة إلى رجال العقل والتفكير ..

كان فولتير لا يعطف على الفقراء في حين كان روسو يتألم لهم ويدافع عن حقوقهم ..

وقد قيل: إن السر في عظمة فولتير إنه كان ينادي بما كان يفكر فيه الشعب .

والسر في عظمة روسو انه كان ينادي بما يشعر به الشعب ..

حين كان " فولتير" و" روسو " كان الصوت الحر والرأي الصريح .قال أحد قادة الجيش للملك " لويس السادس عشر": " في أيام لويس الرابع عشر لم يجرؤ أحد أن يتكلم.... وفي عصر لويس الخامس عشر كان الناس يتهايمسون وفي عصر جلالتهم قد رفعوا أصواتهم..."

صار روسو أحد عمالقة الفكر المؤثرين بكتابه " العقد الاجتماعي " و" إميل ".

ولكن الناس لا ينسون كتابه الهام " الاعترافات " الذي لم يكن لكتاب من التأثير في الأدب الفرنسي على مدى قرن من الزمان مثلما كان لهذا الكتاب، فقد كان " الأم" لكتب الاعترافات التي كتبها الرومانسيون الأول ، كما قد فتح هذا الكتاب في فن القصة القصيرة مقاصير الحياة الداخلية كما يقول " رومان رولان" (٢).



## هوامش

- ١- رومان رولان - آراء روسو الحية - دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦١ ، ص ١٣ . ترجمة الدكتور محمود زايد.
- ٢- المصدر نفسه ص ١٥٤ .

## المراجع والمصادر :

- ١- جان جاك روسو - الاعترافات - دار الكاتب العربي - بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٨ ج ١ .
- ٢- جان توشار - الأفكار السياسية - وزارة الثقافة - دمشق - ترجمة ناجي الدراوشة ج (٣) .
- ٣- محمد عطية الأبراشي - جان جاك روسو المصلح الاجتماعي ، دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الأولى ١٩٤٦ .
- ٤- كارانفيلوف - أبطال وطباع - ترجمة ميخائيل عيد - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق ١٩٨٢ .
- ٥- مايكل هارت - المائة الأوائل - ترجمة خالد اسعد عيسى وأحمد \_ غسان سبانو - دار قنطرة للطباعة - والنشر دمشق ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ .
- ٦- عبد اللطيف شرارة - معارك أدبية - دار العلم للملايين ط ١ ، تشرين الأول ، ١٩٨٤ (المقدمة) .
- ٧- سمير عبده - نفسيات المشاهير - منشورات دار النصر - بيروت ط (١) ١٩٨٦ .
- ٨- حبيب سعد - أعلام الفكر الفرنسي - مجموعة بحوث مترجمة ، دار الشرق والغرب - بولاق ، مصر - دون تاريخ .







## الفصل الثاني:

### محدثون



## برنارد شو (١٨٥٦ - ١٩٥٠)

### " العظيم هو أبعد الناس حديثاً عن نفسه "

تقدم ( برنارد شو ) نموذجاً لعقل متفتح يؤمن بالحياة، ويضع التطور فوق التقاليد، كما أنه يصلح نموذجاً ليكون أديب أفكار، لا أديب ألفاظ ويصلح فوق ذلك ليكون مثلاً للتربية الذاتية التي تقوم على الاختبار الفعّال في صنع النفس، وأن التربية المدرسية أياً كانت درجتها، إنما هي تأهيل فقط وخطوط عريضة، عاش ( برنارد شو ) أربعاً وتسعين سنة، عاش ثمانين سنة منها في قراءة الوعي والتساؤل والتبصر يقول: " لقد كسبتُ شهرتي بمثابرتي على الكفاح كي أحمل الجمهور على أن يعيد النظر في أخلاقه ... وحين أكتب مسرحياتي أقصد أن أحمل الشعب على أن يصلح شؤونهُ وليس في نفسي باعث آخر للكتابة إذ إنني أستطيع أن أحصل على لقمتي بدونها .. وبهذا نعلم أنه كان يقرأ ويكتب من أجل الآخرين لا لمصلحة شخصية ..

### حياة دون طفولة

تفتح " شو " على الحياة بين أبوين غير متفقين فاعتمد على نفسه وأحس المسؤولية ووضع لحياته هدفاً .. أمضى بعض السنوات من طفولته في مدرسة ابتدائية كانت هي كلُّ ما كسب من التعليم المدرسي لأنه ترك المدرسة ليعمل مع أبيه ( محصلاً ) يجمع إيجارات المباني التي تملكها إحدى المؤسسات، مقابل أجر متواضع، ولكن ذلك العمل أكسبه ما هو أروع، وهو دراسة أحوال الفقراء وكيف يستغلهم المالكون؟

ولأن حياته كانت في بدايتها نضالاً ضد الفقر، فقد جعل من مكافحة الفقر هدفاً رئيسياً لكل ما كتب باعتبار أن الفقر عنده مصدر كلِّ آثام البشر، وأن الفقر معناه الضعف والجهل والمرض والقمع والنفاق....

تحمل ( برنارد شو ) مسؤولية العمل لكسب قوته وهو طفل .. وقضى زمناً لا طعام له غير البطاطس المسلوق ولا كساء غير بدلة واحدة يلبسها في كل الفصول، وقد انسحب ذلك على كافة مراحل حياته فيما بعد، إذ بلغ به التقشف على أن يقتصر طعامه على النبات

، لا يقرب الخمر، ولا يقتني من الأثاث غير السهل البسيط، ولا يرى في الشهوات الجسدية ما يستحق أن يتهالك عليه ..

### برنارد شو ضد القيود... لماذا؟

لعل عدم خضوع ( شو ) للتقاليد وميله العارم نحو الحرية نابغ من أمرين: الأول عام، هو أصله الأيرلندي والثاني خاص هو وضعه الأسري....

ولد في ( دبلن ) في أيرلندا والأيرلنديون معروفون بالدأب في طلب الرزق ونزعة التمرد، مع حب الفكاهة، وقد ألجأهم الحكم الأجنبي البريطاني إلى التمرد وألجأهم الفقر إلى طلب الرزق والكدح وأعاتتهم الفكاهة على الضحك ورفض السلطة..

وأما عن وضعه الأسري، فقد ولد عام (١٨٥٦م) لأسرة فقيرة وكان والده رجلاً معتداً بنفسه، حلولنكتة، سكيراً، ولعل هذا الأب أثر بآبائه من الميل للسخرية وحبها .. وكانت الأم مولعة بالموسيقى ترفض التقيد بالتقاليد .. وكان هذان الوالدان أميل إلى إهمال الأبن وتركه وشأنه في كل حال ... ووجد ( شو ) في جو هذا البيت كل ما يؤهله لنمو في شخصيته غير خاضع لسنة أو عرف.

والى جانب الأب والأم كانت له أختان .. ويعلق ( شو ) على عدد أسرته بطريقته المعتادة في السخرية فيقول: " إن ميلاد عبقري يحتاج إلى هذه التجربة التي سبقته بولادة بنتين لم يطلع العمر بواحدة منهن، أما الأخرى فقد عاشت .... " (١).

يقول ( شو ) إنه مدين لوالدته بتوجيه فطرته فمنها ورث حب الموسيقى كما ورث عن أبيه الجهر بالرأي ولا يبالى بمخالفة المألوف، ومن والدته ورث الصلابة، ومن والده ورث التمرد على سلطان التقاليد، كما ورث من البيت الدعوة ليصبح نباتياً لا يأكل اللحم .. أن العيش بين أبوين لا يتشاركان في غير الثورة على التقاليد كان له الأثر الكبير في حياة ( شو ) الفكرية . درج برنارد الصغير وهو متفتح الذهن والعينين وتعلم القراءة وهو في نحو الثالثة من عمره، ومن أقواله الماثورة في ذلك " إنني ولدت قارئاً ولا أذكر زمناً كنت فيه من الأميين " (٢).

تعلم ( شو ) الاعتزاز بالنفس من أبيه ولكن أهم ما استفاده منه هو تحريمه المسكرات على نفسه إذ أن عبودية الأب للمشروبات الروحية المسكرة ولدت عند الابن ردة فعل، فجعلها من المحرمات في حياته .

كان يقرأ منذ الخامسة من عمره وعند العاشرة أصبح الكتاب المقدس وآثار شكسبير جزءاً منه، وانتهى من قراءة أدب ( ديكنز ) في الثانية عشرة من عمره، وكانت قراءاته في

طفولته بتوجيهه الذين حوله، وقد أتى وهو دون العاشرة على " ألف ليلة وليلة " و" روبسون كروزو " وعندما كبر قليلاً بدأ بالاطلاع واستعارة مالم يستطيع شراءه من الكتب، وتعلم اللاتينية والإغريقية والفرنسية وأصبح يختار ما يقرأ، وكان يروى المكتبات العامة واهماً نُصِبَ عينيهِ أن العقل هو الوسيلة الوحيدة لفهم الحقائق والتفاهم معها.

### شوو.. ضد الإكراه في التعليم :

لأن ( شو ) لم يتعلم في المدرسة شيئاً ذا قيمة ، دعا دائماً إلى التّعلم الحر لأنه يستثير الشوق في النفس.. وله رأي في هذا المجال وهو أنه يعتبر من الإجرام أن نحاول إكراه الأولاد على تعلم أشياء رغم إرادتهم، إن إرغامهم على تعلم مالا يحتاجون إليه مثل إكراههم على أكل النّشارة.. ولعل إيمان ( شو ) بهذه القضية كان من أهم أسباب نجاحه حيث اختار طريقته بنفسه ولم تغارقه عادة التوسع في المطالعة منذ الطفولة حتى أدرك الرابعة والتّسعين . وعن حُبّه للمعرفة يقول بسخريته المعروفة : " إنني لم أحترم آدم دائماً لأنه انتظر حتى تغويه امرأة.. قبل أن يقطف التفاحة من شجرة المعرفة ..ولو كنتُ موضعه لأتيت على كل تفاحة في الشجرة عند أول فرصة يُدير صاحب الحديقة ظهره لي!..

### الفن رسالة:

آمن ( شو ) دائماً برسالة المعرفة الاجتماعية وسخر دائماً من مذهب ( الفن للفن ) قال بأسلوبه للاذع "..... إنني أنكر ( الفن للفن ) الفن بغير فائدة أو رسالة، لسبب واحد ذلك أنه أعظم من أن ينشده أحدٌ من الناس...". ورسالة الفن هذه تنبع عند ( برنارد شو ) من إيمانه بتغيّر الطبيعة البشرية حين نريد ذلك يقول : " لاشيء أعظم قبولاً للتغيير من الطبيعة البشرية إذا بادر المولكون بهامبكرين في تعهدها وتهذيبها ..... " (٤).

إن إيمانه بالمعرفة المفيدة جعله يقف ضد المعلومات ( الحشو ) التي تملأ الدماغ دون حاجة إليها أو استعداد لتقبلها ويقف مع المعرفة التي تنفذ إلى الذوق والفطنة ، المعرفة العملية المتصلة بحقائق الحياة..

يحدد ( برنارد شو ) درب العظمة التي يرى أنها تتجاوز السعادة الشخصية . يقول بطل مسرحيته ( قيصر وكليوباتره ) الذي اعتبره الكثيرون ( شو ) نفسه ليس المهم عندي ما أحب وما أكره إنما المهم عندي أن أفعل ما يلزم ولا متسع عندي للاشتغال بنفسي..

والعظيم عنده هو الذي لا ينشغل بما هو موجود، بل بما هو مستطاع، يقول: " إن فلتات الطبيعة التي نسميها بالعظماء لا تسجل ما أدركته الإنسانية بل تطمح دائماً إلى ما هو

مأمول ومستطاع.. كما أن العظيم عنده هو أبعد الناس حديثاً عن نفسه وحين يستطيع رجل عظيم أن يعرفنا بقدره وجب علينا شنقه...؟!".

### شوو.. الإرادة وحرية الرأي

يُعتبر ( برنارد شو ) من المدافعين عن حرية الرأي وحرية النقد وحرية الاجتماع، وتحدث أكثر من مرة عن جنائية كبت الحريات من هؤلاء الذين يتحكمون بالآخرين، يقول: " إن الحضارة لن تتقدم بغير النقد ولا مناص لها كي تتجنب العفن والركود من إعلان حرية المناقشة .. " وحق الحرية مقدس عند ( برنارد شو ) ويؤمن بأن حرية الإنسان تنمو بالتربية منذ الولادة وغاية الحرية هي البطولة ..

وعن دور الإرادة والعزم في الحياة نرى (شو) يقول: "... إذا لم تكن لك عينان وأردت أن تنظر وأصررت على محاولة النظر وجدت لك عينين، وإن كانت لك عينان وأردت كما أراد الخلد أو السمكة التي تعيش تحت الماء - ألا تنظر فقدت عينيك " وإذا كنت تحب طعم الأوراق الطرية على رؤوس الشجر وجمعت إرادتك كلها في عنقك، فسوف يكون لك في النهاية عنق طويلة كعنق الزرافة.."

وقال يُحدّد قانون الحياة عنده أقول لكم: " إنني طالما أدركت أمامي شيئاً خيراً لن أهدأ حتى أبلغه أو أهد إليه الطريق.. وذلك عندي هو قانون الحياة...".

ويحدثنا ( شو ) أن الحياة البسيطة يمكن أن تكون منبعاً دائماً للإبداع وذلك حين يعترف: " لم أقم بمغامرات بطولية .. كل ما حدث أنني عشت حياة عادية، وكل ما كتبت في مؤلفاتي من كتب ومسرحيات هو قصة حياتي، وما عدا ذلك فهو الإفطار والغداء والعشاء لا يختلف عن أي روتين عادي...".

ويرى ( شو ) في شكسبير مثلاً على العبقرية المرتبطة بالعمل لأن شكسبير الطفل هجر المدرسة مبكراً ليساعد أباه، لكن ذلك لم يُبعده عن هدف حياته .. إن عمله هذا مع إرادته جعل حياته القصيرة - التي لم تتجاوز الخمسين عاماً إلا بقليل - حافلة بالعطاء الخالد المتجدد مع الزمان.

شو الذي تعلمنا منه فيما ترك من آثار: ان الحياة الحقّة هي التصميم على الحياة خارج الدورة العادية للحياة كما يعيشها العاديون من الناس لأنه يؤمن أن الجهد والفكر هما الأساس الفعلي لكل عطاء إنساني نبيل وهو القائل "إن طريق الحياة تمر عبر مصنع الموت...".

## مع الشباب والتجديد :

أما رأيه حول التجديد في الأدب، فيرى أن الأفكار الجديدة تستحدث لنفسها الصنعة اللازمة لها كما تشق المياه المجرى الذي تسير فيه ورجلُ الصنعة الذي لا أفكاره، يشبه في عدم جدواه مهندساً يشق قناة لا ماء لها.. ولا بد في البداية من التقليد في العمل إلى أن ينضج الشاب فتلق عليه الأفكار طالبة التغيير.. كما يقول: " إن الأعلام في كل فن يبدؤون حياتهم بالتقليد ولا يزالون يزاولونه حتى تنضج أفكارهم الخاصة إلى الحد الذي يتيح لهذه الأفكار أن تلج عليهم طالبة التغيير...".

كما يبحث الشباب على الوضوح، لأنه أعظم وأثمن المواهب، لأن موهبة المعلم الحقيقي هي الوضوح، وأنا - يقول شو: يمكنني أن أوضح أي شيء لأي إنسان وأجد متعة في ذلك.. كما حاول (شو) أن يبين للشباب خطر عدم المعرفة لأنها تحول الإنسان عن إنسانيته، وكذلك تفعل المعرفة عندما لا تقترن بالعمل، فمن الأمان حقاً للشباب أن يعرف وأن يؤمن بما يعرف وأن يعمل بما يؤمن... وحين سأل أحد الشباب ماذا عليه أن يعمل كي يكون مؤلفاً، أبتتن صناعة الكتابة؟، أجاب (شو): " ليس هناك حاجة لأن تتعلم كيف تكتب إذا لم تكن قد اهتممت بموضوع ما تكتب عنه وفي نفسك شيء تقوله فإذا وجدت الموضوع ووجدت الاهتمام فإن الكلمات ترد إلى ذهنك بسهولة...".

كما يحذر ( شو) الشباب من الإيمان الأعمى الذي يحجب التطور هذا التطور الذي يخشاه معظم الناس، ويدعو إلى الإيمان بالعقل لأن العقل لا يحل مشكلة إلا يثير جنبها عشرات المشكلات الجديدة وهنا يكمن التقدم المستمر.. ويرى ( شو) أن أولئك الخياليين الباحثين عن السعادة الذاتية إنما يعيشون في جحيم، وأن الشعور بالسعادة هو من نصيب أصحاب الواقع العمليين الذين يعيشون ويعملون ويواجهون الأشياء كما هي بعزيمة وإرادة..

## برنارد شو والقارئ

إن أهم ما يميز ( شو) كتابةً أو حديثاً هو أنه يفاجئ القارئ أو السامع، وعدم مخاطبتهما بما يألان أو ينتظران.. لأنه يرى أن هذا الإغراب في طرح القضية كالجرس الذي يُنبه السامع أو القارئ إلى ما سوف يأتي، ثم يبدأ بعرض ما يريد بظرفه وفكاهته ومقدرته على رسم الشخصيات، الأمر الذي يجعلنا بفضل فاعليته الفاتحة نرى الشخصيات التي أبدعها أكثر واقعية في نظرنا من شخصيات الحياة الحقيقية ولهذا الكاتب مسرحيات عديدة لا يمكن نسيانها بسهولة لما فيها من مواقف تتصل عميقاً بحياتنا اليومية.. فمن هذه المسرحيات

مسرحية ( حيرة طبيب) المصدرة بمقدمة طويلة حول استغلال بعض الأطباء استغلالاً قبيحاً والمسرحية تؤكد هذه المقولة..

ومن يقرأ مسرحيته ( بيت القلب الكسير) يستقر في وجدانه معنى هام ونبييل: هو أن الحياة تمشي نحو الدمار عندما لا يكون للإنسان هدف وإن الإيمان بهدف ما والعمل من أجله يحمي الإنسان من السقوط..."

ولا ينسى قارئ (شو)، مسرحيته الشهيرة ( جان دارك ) هذه الفتاة التي اتخذت المسرحية اسمها دفعت حياتها من أجل إيمانها الذي اختلّف عن إيمان الآخرين .. وأنها حين حققت ماكانت تصبو إليه - تحرير فرنسا وهزيمة أعدائها - تنظر حولها لتجد أخلص الناس يتخلّون عنها ويخونونها ويذّبرون لها المؤامرات يريد (شو) أن يقول: إن البطلة عاجزة عن تدبير المؤامرات ضد الآخرين وقت السلم لكنها مليئة بالمواهب الخلاقة حين يكون الوطن في خطر زمن الحرب كما أن الأبطال مُجبرون دائماً على الحرب في أكثر من جبهة ".

### السخرية عند برنارد شو:

قال ( شو) إن أسلوبه في المزاح هو أن أقول الحقيقة، وقال أيضاً: إن أسلوبه هو أن أتعب غاية التعب في استنباط ما ينبغي أن يُقال ومن ثم أقوله بأدنى العبارات إلى الاستخفاف.

وكان لـ (شو) من المفارقات البارة ما جعلته مُنقطع النظير في العصر الحديث .حيث أظهر الكثير من الحقائق في ثوب الفكاهة وأظهر الفكاهة في ثوب الحقيقة..

وأدب (شو) حافل بالسخرية اللاذعة لأنها أسلوبه في قول الحقيقة ونودّ هنا أن نأتي على بعض سخرياته في مختلف الجوانب على سبيل الأمثلة فقط يقول عن تحرر الإنجليز من التقاليد مُشيراً إلى حقيقة استعبادهم للتقاليد: " لن يكون الإنجليز أمة عبيد، إنهم أحرار في أن يصنعوا ما تسمح لهم به الحكومة والرأي العام.."

- وعن هؤلاء الذين يهتمون بأنافتهم لدرجة يرون أن الرجولة تبدو في الأناقة، يقول: " إنه جنّتلمان انظر إلى حذائه !! ".

-وعن العاطلين بالوراثة الذين يستغلون جهود غيرهم نراه يصرخ: " لاحقاً لنا باستهلاك السعادة بغير إنتاجها إلا كحقتنا باستهلاك الثروة بغير إنتاج."



وحين قابله أحد الصحفيين الذي استأثر بالحديث كله ولم يسمح له أن يتحدث كلمة واحدة قال: " فلما انصرف سمحتُ له بنشر الحديث بشرط أن يكتفي بما قلت ويحذف كل ما قال!!".

وعن المبالغة في تقديم الطعام للضيوف يقول رأياً هو " إن الأكل الكثير يقلل من حفاوة اللقاء لأن الإنسان لا يتكلم وهو يأكل ! وعندما اقترحت عليه فنانته جميلة أن يتزوج بها عسى أن يركزاً طفلاً، له رأس أبيه العبقري ووجه أمه الجميل كان جوابه " اقترح جميل ولكن أخاف من مكاييد الوراثة فيأتي طفلنا وله رأس أمه الفارغ ووجه أبيه البشع..".

يُروى أن رجلاً سميناً التقى (شو) فقال السمين: " إن مَنْ يراك يا مستر (شو) يظن أن في بريطانيا مجاعة، ووردناردشو قائلاً: بل إن مَنْ يراك يظن أنك سبب هذه المجاعة!!.

وسأله أحدهم عن رأيه في العالم حوله قال (شو): " العالم مثل رأسى غزارة في الإنتاج رسوء في التوزيع " والمعروف عن ( شو ) غزارة شعر لحيته وطوله ، بينما رأسه يكاد يخلو من الشعر.

لم يَكف (برنارد شو) عن السخرية حتى في أحرج لحظات عمره، قال وهو على فراش الموت، حول التزامه الطعام النباتي لمدة (٦٤) سنة: " لي الحق أن تُشيعني قطعان البقر وأسراب من الخراف والدجاج و أحواض تحوي الأسماك ..... من الحق أن تمشي كلها في حدادٍ عليّ..".

وبصورة عامة يرى (شو) أنه عندما يكون الشيء مُضحكاً أبحث عن الحقيقة المخفية، ويرى أن كل طُرْفَة هي كلمة مخلصَة من أجل الحقيقة..

### مواقف في حياة برنارد شو:

عندما منحته لجنة نوبل جائزتها لعام ١٩٢٥ رفضها وكتب إلى أمين سرّ لجنتها يقول: " إن هذه الجائزة كطوق النجاة الذي أُلقي إلى السابح بعد وصوله إلى برّ الأمان..".

وعندما فرض عليه قبول المبلغ المترتب على هذه الجائزة، تبرع به من أجل قضايا فنية وأدبية .

عاش (شو) نباتياً -كأبي العلاء المعري في تراثنا العربي - يجتنبُ الخمر وهو يقول ..  
إنني مدين بصحتي الجبارة وذخيرتي الهائلة من النشاط لهاتين الخصلتين لأن الذي يحشو بطنه بالأجسام المتينة لا يستطيع أن يقوم بأفضل عمل.."

وأما عن ظاهرة التدخين فهو يؤمن أنه من السّخف أن ندفع المال كي ننظف مداخننا بعد أن نكون قد ملأنا غُرُفنا بالأدخنة القذرة المنبعثة عن السيجارة البالغة الأذى وكان يرى في التدخين عادة بعيدة عن الجمال لأنها تُضايق الذين لا يمارسونها.

كان (شو) مُناهضاً للاستعمار بكل ألوانه وللاستعمار البريطاني خاصة ودافع دفاعاً حاراً عن (الفتى زهران) الذي أعدمه الإنجليز في حادثة ( دنشواي) الشهيرة في مصر العربية ، وجاءت كتاباته حول هذه القضية حارة بحيث لم تضارعها كتابة في صدق الدفاع وشدة الغيرة على المظلومين ، وتحدث عنها حتى ربط غُلاة المستعمرين بين اسم (شو) وبين حادثة دنشواي لكثرة ما دافع وكتب ضد جرائم الاستعمار وبشكل عام فإن كتابات (شو) تقف مع المظلومين .. مع المرأة .. مع الشباب .. مع حق الإنسان في العيش الكريم ، واستطاع أن يحول هذه المواقف التي يؤمن بها إلى أعمال فنية ..

في سنة ١٨٨٢ م قرأ (شو) كتاب " التقدم والفقر " لـ "هنري جورج" كما قرأ في السنة ذاتها كتاب " رأس المال " لـ "ماركس" ..

وتركت هذه القراءات أثراً بعيداً في نفسه ، بحيث صار يؤمن أنه من المبعث محاربة الشرور الاجتماعية بالتعاليم الدينية ، فالحرب والفقر والجريمة صمدت أمام المواعظ قروناً طويلة ، وأن الكلام البليغ لا يقضي على الفقر وأن الذي يقضي عليه هو الثورة الاجتماعية.

على الرغم من إيمان (برنارد شو) بضرورة الثورة الاجتماعية ، نراه أبرز أعضاء الجمعية الغابية ، التي لا تؤمن بالثورة بل تدعو إلى الإصلاح دون عنف هذا في مواقفه الاجتماعية .. ولكنه في كثير من أعماله الفنية غير بعيد عن جوهر الماركسية عندما يربط بين الأخلاق وبين الأحوال المادية .. وعندما يؤمن بضرورة - القوة - الثورة لبناء المجتمع الاشتراكي ويعتقد (شو) أنه من الحظ الكبير للمثقف أن يهتدي إلى الفلسفة المادية منذ شبابه ، لأنها تضيء العقل ، وتشد الإنسان إلى الواقع من أجل تغييره.

ترك (شو) موطن ولادته - [إيرلندا] - المستعمرة من قبل بريطانيا وهو في العشرين من عمره ، ليذهب إلى إنجلترا كغريب كأجنبي ، كغاز كمنتصر .. وكأنه يقول : " لقد أخضعت (إنجلترا) بلدي (إيرلندا) وما عليّ سوى أن أخضع بدوري إنجلترا لي " ، وتحقق له ما أراد إذ هو حسب قول البعض : قد قشط جلد لندن وأجبر كثيرين ألا يتحدثوا عنه فحسب بل عن أفكاره أيضاً .. لذلك يمكن القول إن مغادرته لبلده - وهو في العشرين من عمره - لم تكن احتقاراً ولا خيانة لأنه ظل طوال حياته المديدة يحمل على كتفيه - آلام أول مستعمرة إنجليزية .. من خلال نضاله من أجل تحرير بلده من الاستعمار البريطاني .

يُعطى شو للحرية معناها المحسوس القريب إلى أذهان العامة من الناس حين يصنعايقوله : إنها وقت الفراغ الذي يصنع فيه المرء ما يحلو له ، لا ما يجب عليه ..”  
ويصف الكسل بأنه أخطأ الجرائم الاجتماعية ، حين يتحدث عن العاطلين بالوراثة أولئك الذين يرتكبون جريمة الكسل والكسل شيء غير طبيعي ، ومُمل ، ولا يمكن لأحد أن يصبر عليه .

يقول ( شو ) : ” إن جميع المتأزين بدؤوا حياتهم تأثرين ، وأعظم هؤلاء المتأزين يزادون ثورة كلما تقدموا في العمر ولعل هذا القول لا ينطبق على إنسان مثلما ينطبق على قائله نفسه الذي ظل إلى التسعين من عمره مثار إعجاب ودهشة حيث لم يبدُ عليه ضعف أو انحطاط .. وظلت مواقفهُ إلى آخر عمره ، كما كانت في بدايتها ، فهو الذي رفض أن يزور الولايات المتحدة الأمريكية حتى لا يرى سخرية القدر بوجود تمثال للحرية في بلدٍ يمتنح الإنسان أينما كان .. ذلك البلد - أمريكا - الذي انتقل من البدائية إلى الانحلال دون أن يعرف الحضارة ..

برنارد شو هذا الذي حين مات (٢) أصدر ( جواهر لال نهرو ) رئيس وزراء الهند ورجلها العظيم أمراً بتعطيل الدراسة في المعاهد الهندية ثلاثة أيام جِداداً على وفاة أحد أفاضل الأدب وأنصار الحرية في العالم كان ذلك في عام (١٩٥٠) والذي يبدو أن شعوب العالم قد استفادت من برنارد شو كثيراً من الدروس بينما بريطانيا ظلت بعيدة عن أفكار وقيم هذا الرجل .

### من مذكرات شو :

لم أتعلق بالوظيفة لأنني دائماً كنت أرغب في إحراق مراكيبي ، كنت أسأل نفسي إلى متى أظل في هذا العمل؟ رغم أنني لم أكن أعرف قيمة نفسي وما هو مصيري؟ ولكن أحد المتأثرين في الحسابات عندي قال لي ذات يوم : ” إن كل طفل يعتقد أنه سيصبح عظيماً ..”

ذهلت لأنني كنت أعتقد أنني وحدي الذي يعتقد ذلك في نفسه لاشيء يدل على أنني ولدت لأصعد سلم المجد ، ولقد كان هذا الادعاء من موظف صغير في شركة متواضعة يبدو ادعاءً فظيماً ومُرعباً ..

استفدت من عملي في الوظيفة ، إذ تعودت على الدأب اليومي وأن أتعلم أي شيء بدلاً من أن أحلم بكل شيء ..

لقد تخلصت من الادعاء الذي تربى عليه أبناء عمي وهو التفاخر بالأجداد .  
كنتُ أميناً في الشركة وكانت أمانتي عبئاً على ضميري لأنها كانت مؤهلاً للعمل الذي  
أكرهه ، وقد بدأت نشاطي الأدبي خلال هذه الفترة عام ١٨٧٦ استقلتُ لأقذف بنفسي إلى  
لندن ولأنضم إلى أمي بعد أن توفيت أختي ( أجنس )  
وبعد أكثر من ثلاثين عاماً قررت أن أعود ثانية إلى بلدتي الأصلية ومررت على البناء  
القديم الذين كنتُ أعمل فيه استقبلني أحد الموظفين بلباقة .. لم يتذكرني !!  
لقد ظل هذا الموظف يحضر إلى هذا المكان كلَّ يوم منذ ثلاثين عاماً ، وأنا أجوب العالم  
طولاً وعرضاً .

كنتُ أميناً في الشركة وكانت أمانتي عبئاً على ضميري لأنها كانت مؤهلاً للعمل الذي  
أكرهه ، وقد بدأت نشاطي الأدبي خلال هذه الفترة عام ١٨٧٦ استقلتُ لأقذف بنفسي إلى  
لندن ولأنضم إلى أمي بعد أن توفيت أختي ( أجنس )  
وبعد أكثر من ثلاثين عاماً قررت أن أعود ثانية إلى بلدتي الأصلية ومررت على البناء  
القديم الذين كنتُ أعمل فيه استقبلني أحد الموظفين بلباقة .. لم يتذكرني !!  
لقد ظل هذا الموظف يخضر إلى هذا المكان كلَّ يوم منذ ثلاثين عاماً ، وأنا أجوب العالم  
طولاً وعرضاً .



### هوامش :

- ١- برنارد شو (حياتي) ، نُشر على حلقات في مجلة ( الهلال ) القاهرة راجع عدد أيار ١٩٦٦ .
- ٢- المصدر نفسه .
- ٣- المصدر نفسه .
- ٤- المصدر نفسه .

### مراجع عامة ومصادر:

- ١- عباس العقاد - برنارد شو (إقراء) عدد ( ٨٩ ) نيسان ( إبريل ) ١٩٥٠ ، دار المعارف ببصر .
- ٢- برنارد شو، دليل المرأة الذكية - مطابع دار القلم - القاهرة .
- ٣- برنارد شو " حياتي " نُشر على حلقات في مجلة الهلال المصرية ١٩٦٦ .
- ٤- سلامة موسى " هؤلاء علموني " - سلامة موسى للنشر والتوزيع الطبعة الثالثة ١٩٦٥ .
- ٥- ج ب كوتس - قادة الفكر الحديث -
- ٦- خالد القشطيني " في ذكرى برنارد شو " مجلة الآداب عدد ( ٨ ) ، آب ١٩٦٠ .
- ٧- دكتور علي الراعي، مقال عن (شو) مجلة الفيصل عدد ( ٩٣ ) كانون أول ( ديسمبر ) ١٩٨٤ .





## هيلين كيلر (١٨٨٠-١٩٦٨)

### "الإرادة ... انتصار على العاهات"

بعد ولادتها بخمسة أشهر أصيبت هيلين بالتهاب في الدماغ فقدت معه السمع والبصر معاً..

وبعد انقضاء أربعة عشر ربيعاً مُظلماً عليها قالت بكل ثقة: " سأذهب إلى جامعة هارفارد ذات يوم..".

" الجو دافئ" أول جملة نطقتها .. وعرفت معنى كلمة (حب) بأنها الخطوط غير المرئية بين روحها وأرواح الآخرين..

ترجم كتابها الأول ( قصة حياتي) إلى خمسين لغة ومنها لغتنا العربية..

\*\*\*

" هيلين كيلر " ليست وحدها مَن قُست عليهم الحياة في هذا العالم ولكنها مَن قُلت من أمثالها استطاعت أن ترتفع فوق قسوة الحياة وشقت الطريق الوعرة بمساعدة الأب والأم والمعلم ، وفي أحيان كثيرة لا يوجد واحدٌ من هؤلاء في حياة بعض هؤلاء العظماء.. وتذكر هنا في تراثنا العربي " أبا العلاء المعري " و" بشار بن برد"، والدكتور طه حسين، والشاعر اليمني عبد الله البردوني ، وسواهم في تراثنا الحديث.

ولا أنسى أنه في أحد أيام عام ١٩٦٥ انعقدت ندوة فلسطين العالمية في جامعة القاهرة حين قام كفيف ليتحدث باسم الوفد الفلسطيني اقتاده أحدهم إلى منصة الخطابة وشرع يقرأ بالإنجليزية بطريقة ( بريل) وكانت كلمته التي تترجم فوراً من أبلغ ما سمعه الحاضرون في تلك الندوة.

### سمكة .. خارج الماء

ولدت كيلر في ولاية ( ألاباما) الأمريكية عام ١٨٨٠م ولادة طبيعية ولكنها أصيبت وهي في الشهر الخامس من عمرها بالتهاب في الدماغ مما جعلها تفقد حاستي السمع والبصر معاً.. وبعد ذلك اكتشفت أنها لا تستطيع النطق ، وشيئاً فشيئاً أحست أن الآخرين يتفهمون بنمير

الاشارات التي كانت مُجبرة على استخدامها .. وظلت تشعر بالغبرة حتى التحقت بمعهد الأطفال المكفوفين في ( بوسطن ) وقالت بهذا الصدد لقد سرّني جداً أن أجدهم يعرفون الأحرف الهجائية اليدوية ..

وتحدثت معهم ( بلغتي الخاصة ) المنتمية إلى العشوائية التي يتخبط فيها أي أبكم مع العالم الخارجي..

بالنسبة ( كيلر ) لم يكن باختيارها أن تبدأ رحلة الحياة صمًا بكماء ، كما لم يكن باختيارها أن تولد في مجتمع الفردية والمال والعنصرية والعنف ولكن والدها ذا القلب الكبير كان يروي لها أفضل القصص ( قصصه ) فهو أحد القصصيين المشهورين بتهجئتها عن طريق لمس يدها ولم يكن يسره شيء أكثر من أن تُعيد سرد القصة في لحظات مناسبة وكذلك والدتها التي كانت تقرأ لها قصة فتاة صمًا كيفية وقالت ( كيلر ) عن والدتها : " ... حديث أمي كان لي كنزٌ كبير لن أبوح به للآخرين ولا أنسى أن بداية تحركي نحو عالم النور كان بفضلها .. "

وفي معرض حديثها عن انتقالها إلى معهد المكفوفين ( بوسطن ) قالت : كنت في بلدي سمكة على الشاطئ أما الآن فأنا أعيش في الماء لقد كان الأطفال في هذه المدرسة يضعون أيديهم فوق يدي حين أتحديث إليهم ، وكانوا يقرؤون الكتب بأصابعهم .. وكان التحاقني بهذا المعهد من الأحداث المهمة في حياتي ..

بعد أحد عشر درساً من المعلمة ( ساليغان ) في المعهد ببوسطن أعلنت الطفلة ( كيلر ) التي بلغت العاشرة من عمرها أنها ستتعلم كيف تتكلم بفمها ، كما يتكلم غيرها من الناس وليس بأصابعها كشخص أبكم ، وغدت تقول لكن دون وضوح " لست الآن بكماء " ... وهنا بدأت رحلة النضال الشاقة لتتخلص من عالم الظلام والصمت فعن تعلمها النطق قالت : " كنتُ أضع إحدى يدي فوق حنجرتي بينما أحسّس باليد الأخرى حركات شفّتي وكانت آنستي ( فولر ) قد درّبتني على النطق بالطريقة التالية : " جعلتني أمّر يدي برفق على شفّتيها وأحسّسها عندما تتحدث .. اشتقت أن أقّلدّها .. "

### ( الجو دافني ) ، أول جملة نطقتها ..

تقول كيلر : " لا يمكن أن أصف اللحظة عندما نطقت أول جملة ( الجو دافني ) ... لأنني تحررت من سجن رهيب ، والطريق على أمثالي وعرة ، ولكن بإرادتي من جهة ، وجهد آنستي ( سوليغان ) من جهة أخرى استطعت أن أتخطى جميع العقبات ، ولقد أدهشتني السهولة في الكلام بالنسبة إلى التهجئة بالأصابع .. في البداية لم أكن أفهم شيئاً إلا إذا لمست



.. ولكن آنستي تهّجت لي مرات ومرات كلمة ( فكري ) وقد عرفت بعد ذلك أن هذه الكلمة تعبر عما يدور في الرأس وعرفت أن هناك كلمات تدل على الأفكار مثلما هناك كلمات تدل على الأشياء ..

إذن هناك كلمات لا يمكن لمسها ، وعرفت معنى كلمة (حب) بمساعدة الاكتشاف الجديد وعرفت - أنه أي الحب - الخطوط غير المرئية بين روحي وأرواح الآخرين وكشفت بهاء لحظات التواصل مع الإنسان.

### ميلاد الروح

تعتبر ( هيلين كيلر ) يوم لقائها بمعلمتها في (٣) آذار (مارس) من عام ١٨٨٧م تعتبره عيد ميلاد روحها إذ بدأت على يدي هذه المعلمة تقرن الكلمة بالفعل، والفعل بالكلمة وعرفت منها أن لكل شيء اسماً وعليها لذلك أن تتعلّم الأسماء ...

تقول عن معلمتها " لم تكن تضايقني بالأسئلة إنما تريد أن استوعب ما أقدر عليه ... لا مابتريديني هي أن أحفظه..."

لقد وهبني الأنسة ( سوليفان ) الشجاعة وحالت دون أن أتوقف عن محاولات الكتابة، ... في أكثر من حادثة كان بإمكان واحدة منها أن تغير مجرى حياتي... لقد أيقظت المعلمة روح التلميذة وعلمتها القراءة بلغة الأصابع في حوالي السابعة من عمرها.. أول ما تهّجت لي كلمة (دُمِيّة) ثم قدّمت لي قطعاً من الكرتون عليها حروف مطبوعة بشكل نافر، عرفت أن لكل كلمة مطبوعة معنى.. وقادها الكرتون النافر إلى الكتاب المطبوع " وبدأت أبحث في كتاب المبتدئين عن الكلمات التي أعرفها .. وهكذا بدأت القراءة عندما أوشكت المعلمة على الموت، قال بعضهم يريد تخفيف بعض ألها : " شدي حيلك فإن هيلين لا يمكن أن تمضي بدونك.." .... المعلمة أجابت والأسى يجتاح كيائها: " إن ذلك يعني أنني فشلت"، لقد كان هدف هذه المعلمة أن تحرر هيلين .. تحررها حتى منها، حتى من الحاجة إليها.. وبعد ذلك تذكرت عملها الدؤوب وشعرت أن التلميذة لن تفشل .. وصدقت نبوءة المعلمة حين قالت التلميذة بعد ذلك: " قد يظن الناس أن المعلمة تركتني .. لا إنها لم تتركني فما زالت إلى جوارتي في كل حين .. إن العجب يملؤني وأنا أفكر بفارق الظلمة والنور في حياتي قبل مجيئها وبعده ، إذ الحق أقول: إن عقل معلّمتي وروحها المتأزنان ثم تفهمها السريع لي وحكمتها المحببة هي التي جعلت أولى سنوات تعلّمي جميلة للغاية، كانت هذه المعلمة تؤمن أن عقل الطفل يشبه جدولاً صغيراً بحاجة إلى التغذية كي

يتوسّع ويتحول إلى نهر عميق .. إن بإمكان أي معلم أن يأخذ طفلاً إلى غرفة التعليم ولكن ليس بمقدور أي معلم أن يجعله يتعلم، فالطفل لن يقبل على التعلم إلا إذا كان مسروراً ..

ظلت المعلمة ترافق تلميذتها (هيلين) لمدة خمس عشرة سنة ترافقها في الصف وتنقل لها المحاضرات والدروس عن طريق لمس اليدين وكذلك الأفلام السينمائية والمسرحيات. ظلت المعلمة كذلك إلى أن وافتها المنية عام ١٩٣٦م.

تقول ( كيلر ) عن نفسها : " أتيت إلى هذا العالم وفتحت عيني على النور وانتصرت كما ينتصر أول طفل في العائلة وعشت أنعم بحواسي ربيعاً قصيراً واحداً تملؤه أغاني الطيور ، وصيفاً واحداً سخياً بالفاكهة والورود ، وخريفاً ما أجمل لونه الذهبي ، ثم جاء عام ١٨٨٢م ليخلق عيني وأذني ويغرفني في حالة من الغيبوبة .. لا أذكر متى اكتشفت أنني أختلف عن الآخرين .. " .

كان على كيلر أن تقوم بأداء مهمتين معاً على امتداد ثمانية عشر عاماً، مهمة الانتصار على عاهاتها ومهمة ارتشاف العلم وتواصلت في نفسها فكرة الالتحاق بالجامعة تقول : " دفعني إلى ذلك شوقي للسباق مع الفتيات المبصرات والسماعات " وفاجأت أصدقاءها في مدرسة (كامبردج) للبنات "سأذهب للجامعة ذات يوم " وتحققت أحلامها الواحد تلو الآخر فمن معهد ( بوسطن ) إلى مدرسة الصم ( بنيويورك ) إلى مدرسة ( كامبردج ) للبنات إلى جامعة (كامبردج) في (هارفارد) وكان ذلك في خريف عام ١٩٠٠م تقول : " كانت الخطّة أن تكون معي مدرستي لتحضر الدروس ثم تلقنني إيّاها وكانت طريقتي الوحيدة للسمع هي قراءة الشفاه بيدي ، فالشخص الذي يقرأ لي أو يتكلم معي يتجهجى بيديه وهو يستخدم الأحرف الهجائية اليدوية ، يتجهجى بيد واحدة فقط وأنا أضع يدي برفق فوق يد المتكلم ووضع اليد هذا يسهل الإحساس كما تسهل الرؤية فأنالا أحسّس كل حرف بأطول مما تنظر أنت كل حرف بمفرده عندما تقرأ .. ومع الزمن تحولت من قراءة كتب الأطفال إلى قراءة الكتاب العظيم وعرفت عن طريق الكتب كيف أن الإنسان عن طريق كفاحه بالفكر قد تقدم كثيراً .. "

### الإرادة أو لا ..

حين صممت ( كيلر ) أن تدخل الجامعة كانت تمتلك قوة في داخلها أقوى من صلوات سواها من المعوقين والمقربين وأعرق من الشك الذي ينتابها بين الحين والآخر - كانت تلك القوة تلح عليها لأن تختبر مقدرتها بالمعيار نفسه الذي يستخدمه من يملك حاستي البصر والسمع .. ولأنها كانت تؤمن أن تقدم العالم نحو الأفضل مسكون بأرواح العظماء الذين قهروا بإراداتهم كل عوامل الإحباط واليأس ..

وتخرجت من الجامعة عام ١٩٠٤م بدرجة ممتازة وألفت كتابها الأول ( قصة حياتي) الذي كان درساً في الإزادة للإنسان في كل مكان، وترجم إلى خمسين لغة منها اللغة العربية، وألفت كتابها الثاني ( عالمي الخاص) عام ١٩٠٨م وأعقبتهما بكتابين ( السلام عند المساء) عام ١٩٣٢و(ليكن لنا إيمان) عام ١٩٤١.

إن " كيلر" كانت تتقن الكتابة بأحرف (بريل) النافرة وتستخدم آلة طبع خاصة، ويرى أنها نادراً ماكانت ترتكب أخطاء طباعية لقد كانت متمكنة من اللغة حاضرة الذهن دائماً..

### الحضارة عند كيلر

قامت كيلر بجولة في معظم أنحاء العالم لتدفع الأمل إلى نفوس ذوي العاهات المختلفة ومشوهي الحروب، وكانت تؤمن أن السلام يبقى حلاً مادامت هناك نفس واحدة تحيا في عزلة الظلام، ولا شك أنها كانت بذلك تبين جرائم الحروب الامبريالية، التي تترك كثيراً من البشر سجناء هذه العزلة وكانت تؤمن أن الحضارة لم تُعد مسألة إقليمية ..

إن عملها من أجل ذوي العاهات هو مادعته بعمل الحياة) وقد مارسه طوال حياتها الفاعلة، لأنها كانت تجهز نفسها للقيام به منذ طفولتها، واستمرت تقوم بهذه الرسالة إلى أن وافتها المنية في حزيران ( يونيه) من عام ١٩٦٨م وخلفت وراءها مسيرة حياة أشبه بالمعجزة.. وما كانت تزور بلداً إلاً منحها جائزة أو وساماً أو لقباً لقد كانت ( كيلر) وستبقى مثلاً حياً ورائعاً لإرادة الخروج من ظلمات اليأس حتى لمن يسمعون ويبصرون ..



## المصادر والمراجع:

- ١- هيلين كيلر - قصة حياتي - ترجمة أمين موسى قنديل.
- ٢- هيلين كيلر - ( معلمتي آن سوليفان ) - ترجمة الدكتور فوزي حسين النجار - دار المعرفة - القاهرة، د/تا.
- ٣- الناجحون - كيلر - المرأة المعجزة - دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٠.



## لويس باستور (١٨٢٢-١٨٩٥)

### " أهم ثلاثة ألقاب عندى : الإرادة، العمل والصبر "

لا يستطيع أحد من البشر أن ينكر دور العالم العظيم " لويس باستور " ... هذا العالم الذي ارتبط اسمه بتخفيف آلام البشر، والذي جعل من الإرادة والعمل والصبر، أهم ثلاثة أركان في حياته شاد عليها هرم نجاحه...

إن الإرادة هي التي تفتح أمامنا الباب، باب المهنة السعيدة الناجحة، وال... ليجتاز بنا العتبة في مرحلة يتحتم فيها علينا الصبر والتقرب ثم يُقبل النجاح متوجاً جهودنا الصادقة . كان الصبر على العمل، أهم ما يتصف به، وصلاية الرأي أبرز مزاياه وقد تحقق في حياته قول " ماريو بوزو " في رواية " العراب " "العظماء لا يولدون في العظمة إنهم يعظمون..." .

إن باستور لم يولد عظيماً بل صنع عظمته بإرادته وصبره، كتب عنه أحد معلميه، يقول: " ... هو أودع رفاهه في الصف وأصنهم وأبعدهم عما ينم عن مخايل النجابة وما يتوسم منه الخير " (١).

هذا ما رآه معلمه في واقعه المنظور .. ولكن الواقع الممكن الذي صار إليه " باستور " من صنع إرادته ، كان جاداً في طفولته شأنه في صباه وكان ذا نهم للإطلاع لا يشبع ، كثير اليقظة والتساؤل في سبيل المعرفة ، لجة أن أحد معلميه عنقه لكثرة أسئلته قائلاً له : " دعني ياهذا أقول لك مرة أخرى بأن عمل التلميذ ينحصر بالإجابة عن الأسئلة لا بالغاها... " !!

### بين الوالد والمعلم :

كان والد باستور " دباعاً " أراد لابنه أن يكون مثقفاً أوفده إلى ( باريس ) بعد أن أنهى دراسته الإعدادية في ( أربوي ) كي يتابع تحصيله في ( دار المعلمين ) لكن المرض أقعده عن متابعة الدراسة هنا، وبعد أن تعافى أرسله والده إلى الكلية الملكية التي تخرج منها عام ١٨٤٠ يحمل ( ليسانس ) في الآداب وكان يدرس الرياضيات في الوقت ذاته وحصل بعد عامين على ( بكالوريوس ) في العلوم التي أولع بها حاداً رغم عدم تفوقه في الكيمياء التي صمم أن يكون ذا شأن فيها ، رغم نصيحة أصدقاء والده الذين قالوا : " .. يسوؤنا أن يضيع وقت ابنك

سدىً في علم لا طائل تحته ولا جدوى...". ولكن الوالد كان يثق بكفاءة ابنه، ويثق بما لديه من استعداد وجلد الأمر الذي دعاه ليرد على ناصحيه من الأصدقاء بقوله: "أستطيع أن اعتمد على ابني في حسن اختياره ولا ريب عندي أنه لن يختار إلا الأصوب..".

وحين شعر الفتى أن ثقة الوالد تهتز لضعفه في الكيمياء كتب إليه يقول: "... عفوك أسأل ورضاك، أرجو منك أن تثق بي وأن تصبر علي سأكون عند حسن ظنك بي كلما ثابرت ألا بعض حلمك يا أبي.."(١).

تابع "باستور" منهج الدكتوراه في الكيمياء (بباريس) بنشاط وذهب يعطى بعض الدروس اليومية كي يكسب نفقاته الخاصة ويتابع تعليمه وراح يقنن في طعامه وشرابه ووقوده حتى يوفر على ذويه وكثيراً ما عضه الجوع.. كتب عن هذه الفترة من حياته يقول: "... كان الجوع يشتد بي كان الصداق من الناحية الأخرى يلم بي على أعنف ما يكون وهكذا كان الألم يمحو الآخر أو هكذا كان يخيّل إليّ يُنسيني الصداق وطاة الجوع..".

كان لأستاذه في الكيمياء أثره البالغ في تقدّمه في هذا العلم. دفعه الإعجاب إلى أن يتحدث لوالده عن هذا الأستاذ بقوله: "...فهو استاذ موهوب حقاً، وهو ليس عالماً فحسب؛ بل شاعر كذلك، يثير حب الاستطلاع في سامعه إلى أبعد حدود الإثارة، ويلهب الخيال بلفظه الأنيق وبيانه المجنّح"(٢).

كان من أثر هذا الأستاذ أن بدأ الطالب (باستور) يُجهز أطروحتين للدكتوراه في هذا العلم ..

بدأت أخباره تصل إلى والده الذي قال: "... تهلّل كل من في الدار لأنبائك السارة فنحن أعجز من أن نحكم على أطروحتك، ولكننا نستطيع أن نحكم على خلّك وأنت من أراضيتنا يا بني باجتهادك.."(٣).

### باستور وحقيقة أصل الحياة:

تقدم باستور نحو النجاح العظيم باجتهاده الذي أرضى والده بينما تخلف رفاقه فحسدوه، وبدأ كثير منهم يصوب إليه سهام النيرة.. ولكنه تابع بكل جهده اكتشاف لغز الحياة والموت. قال: "أرجو أن أوفق في خطواتي قريباً بالإجابة عن سؤال الأجيال بالآلا يستغرق طويلاً بحث هذا الموضوع الشائك خاصة أن الناس يؤمنون بأن الحياة تنشأ تلقائياً من مادة ميتة حسب مقولة (أرسطو) الشهيرة "الحياة تنشأ من جسم رطب يجف أو جسم جاف يرطب..".

وذكر " فرجيل " شيئاً قريباً من قول " أرسطو حين قال: " إن النمل ينبثق إلى الحياة من جيقة ثور". وأمام ثبات واستقرار هذه القناعات المسبقة الجاهزة في عقول الناس حوله، كان عليه أن يتجراً على هذا الإيمان القديم وأن يستعد في الوقت نفسه كي يتحمل رشقات سهام المؤمنين به لأن أكثرهم علماً كان أشدهم انتقاداً، وتطاولاً عليه إلى حد أن نعتوه بالمشعوذ والمهرج ..

وحين أعلن بعض العلماء من معاصريه للناس صحة الخلق التلقائي الذي قال به أرسطو.. ابستم " باستور" وقال لزوجته ماقاله لأبيه في رسالة: " التجارب بعيدة عنهم كل البعد، أما ما يقولونه عني فلا قيمة له عندي ولا شأن وعلى رجل العلم أن يفكر بما سيُقال عنه في الأجيال المقبلة لا بالتجريح أو المديح الذي يُندق عليه في حاضره ..".

وقد وصل الجدل حول أصل الحياة إلى لجنة أقرت رأي باستور الذي يقول بأن الحياة وحدها تستطيع أن توجد حياة أخرى وهكذا انتصر باستور حين توصل إلى اكتشاف حقيقة أصل الحياة فصار عميداً لجامعة العلوم في (ليل).

### باستور .. وحفظ الحياة،

بعد أن اكتشف حقيقة أصل الحياة، بدأ يفكر بقضية أخرى لعلها أعظم أهمية من الأولى وهي: كيف يحفظ الحياة؟ اشاع عنه ذلك لدرجة أن الناس، هرعوا إليه عندما هبط داءٌ خطير بدودة التز .. تدمروا عندما لم يجدوا الدواء المناسب بالسرعة المناسبة .. وكان يردُّ عليهم بالصبر أخذ الموت أحد أبنائه، وما جفت دمعته حتى اختطف الثاني، ثم تطاول على ولده الثالث فهمس في أذنه صديق حميم: " ... أما أن تتابع عملك في مثل هذه الظروف القاسية فجرة ما بعدها جرة.."

أجابه باستور: " أجهل يا صاحبي مايتعلق بجرأتي كل الجهل، ولكن أعلم ما يتعلق بواجبي كل الملم ..."(٤).

هذا العلم بالواجب جعله يلزم عمله رغم العواصف حوله بحيث كان يعمل ثماني عشرة ساعة كل يوم.. بعد تجارب تميزت بالصبر أعلن " باستور" أن مرض دودة التز موروث عن بيض موبوء، ونادى بإبادة هذا البيض عند ذلك حاول تجار البيض الانتقام منه وأطلقوا الشائعات ضده وكان يجيب دائماً بالصبر إلى أن تحول الناس إلى الإيمان بما قال . أقام له سكان القرية التي اشيع أنه طرد منها تمثالاً تقديراً له .. وعندما وصله علم ذلك قال معلقاً: " ((.. أنا لا أجد في الرخام مجداً وشرفاً فإنما مجدي وشرفي في تخفيف أذى النكبة التي ألمت ببلادي ولو على حساب التضحية بشخصي...))."

وحين تعجب الكثيرون من أن عمله الدؤوب لم يعد عليه بغير العيش الشريف المتواضع ومنهم نابليون الثالث عندما التقى به قال باستور يرد عليهم: " يحط العالم من قدر نفسه إذا عمل في سبيل نفعه الشخصي . " .

صار باستور شهيراً إلى حد كانت فرنسا تهرع إليه عند كل وباء يؤثر في اقتصادها.. على أثر صفقة فاسدة خسرت بلاده مع الملائيين، اكتشف مبدأ التعقيم ( البسترة الذي جاء نسبةً إلى اسم باستور ) والذي ينعم به العالم جميعه .. قضى بعملية التعقيم هذه على الطفيليات التي كانت تعيثُ فساداً في طعامنا وشرابنا في عام ١٨٦٧م نشر دراسته الشهيرة عن التخمر، وطارَت شهرته واعتبرته الأوساط العلمية (أعظم حجةً للكيمياء في عصره). توصل باستور نتيجة تجاربه إلى أهمية عملية التطهير أثناء العمل الجراحي، تطهير اليدين والضمادات والمشارط لأنها تحمل ملايين الجراثيم التي يحفل بها الهواء، وكانت النتائج باهرة منذ البداية حيث انخفضت نسبة الوفيات في العمليات الجراحية خلال عامين من ٩٠٪ إلى ١٥٪ ... .

عارضه بعض معاصريه في نظرية التعقيم لأنها جديدة ولكنه انتصر عليهم كما انتصر على الجراثيم ..

بينما ظل يتابع معاركه العلمية من أجل حفظ الحياة استمر الرجعيون في معاركهم ضده، حتى وصل حقد بعضهم وحسده إلى أن دعا باستور للعبارة حين لم يستطيعوا الاعتداء عليه، وكان ردّ العالم الكبير :

" إن مهنتي تنحصرُ في شفاء الناس وتخفيف آلامهم لا في ترويعهم أو قتلهم.. " .

— من اكتشافات (باستور)، (التحصين) التلقيح كما عرفه اليوم وذلك بحقن الجسم السليم بجراثيم المرض ولكن بشكل مخفّف وقضى على " داء الكلب " عند الأرانب وذلك بتلقيح الأرانب بلعاب الكلاب المسعورة، ثم طبق الأمر نفسه على الإنسان فنجح وهلّلت باريس لانتصار عالمها فأنشأت بلديتها معهداً باسم باستور تقديراً له وتخليداً ...

### باستور ... والوطن

ما كانت نجاحات باستور العلمية الباهرة لتمنعه من المشاركة في الدفاع عن حرية الوطن حين يدعو الواجب، ففي ثورة عام ١٨٤٨ قدم في سبيل بلاده ما كان يدّخره وهو (١٥٠) مئة وخمسين فرنكاً وهو يقول " " لن أتركاً عن التضحية بنفسي إذا دعا الداعي ولا على إن قضيتُ على مذبح الحرية.. " (٥) .



عندما غزا " بسمارك " فرنسا واستباح حماها ثارت حمية العالم الرصين ... وحين حال مرضه ( الشلل ) دون رغبته في القتال لم يجد للتعبير عن احتقاره لما فعله الألمان خيراً من ردّ شهادة الدكتوراه الفخرية التي كانت قد منحته إياها جامعة (بون) يقول في ذلك " ((... يدفعني ضميري الحي إلى إعادة شهادة الدكتوراه إليكم، دلالة على سخط عالم فرنسي واشمئزاه من بربرية القيصر والذين يؤازرونه من ذوي العنجهية والغرور، ويتوقون مثله إلى استمرار المذابح بين شعبيين عظيمين، وأطلب منكم أن تمحو اسمي من سجلات جامعتكم...)).

وكان ردّ الألمان عليه : " .. ونحن رغبةً منا في الاحتفاظ بسجلات جامعتنا نثبته لا تشويهها شائبة نُعيد إليك كتابك ههنا مردوداً مع السخط..".

هذا بعضُ مآقده العالم العظيم ( باستور ) من أجل وطنه ،ومن أجل البشرية، وبسبب نجاحاته انهالت عليه ألقاب الشرف، ومُنح الأوسمة ،واقامت الاحتفالات من أجله وقدره الملايين من البشر..

وكل هذا المجد لم يغيّر من سير العمل عنده فقد ظل على تواضعه ،وعلى صلابته في الدفاع عما يعتقد أنّه الحق وظل كذلك يضع كل إمكاناته في كلمة كانت شعار عمره كلّهُ وهي (العمل) فصار عظيماً.

...

احتفل العالم بعيده الذهبي الخمسيني ( يوبيله ) في باريس عام، ١٨٧٢ فقال له : " ليستر. " أحد الجراحين الكبار : " لقد جاءت أبحاثك نوراً على ظلام الجراحة، وغيّرت العمليات من عمل طبي مجهول العقبة، إلى فنّ علمي مُفيد على وجه التحقيق، ويُدين لك الطب بفضل باقٍ على الدهر أبداً...". وفي حفلة أقيمت على شرفه بجامعة (ادنبرة) جاء ممّا قيل عنه : " إن العالم أجمع مدان لباستور بفضل لم يدن لأحد قبله ..".

مثل باستور بلاده في مؤتمر طبي عالمي في لندن ولم يعرف أنّه مثار إعجاب الآخرين ولما أخبروه بأنه المعني بهذا الترحيب الحار أطرق حياءً وقال : " شكراً لتقدير العلم في شخصي المتواضع...))

حين دخل المجمع العلمي الفرنسي كان الفيلسوف ( رينان ) على رأس هذا المجمع رحّب بالعالم الجليل فقال : " إننا نرحب بك أجمل ترحيب وأحرّه فانت مُقبل إلينا فوق كل شيء، بأمجادك وعبقريتك ونبوغك وبشهرة مستفيضة من الاكتشافات الرائعة فأهلاً بك وسهلاً...".

كان ضعيفاً حين احتفل العالم بعيده السبعين فأنا ابنة في قراءة خطابه الذي جاء فيه ..: " .... ما أعظم سعادتي عندما أراكم، عندها أعتقد اعتقاداً جازماً بأن العلم والسلام سينتصران على الجهل والحروب ورغبتني إليكم إلا تأذّنوا لبعض ساعات اليأس التي تمرّ بها الأمم، أن تثبط عزائمكم، وليكن لكم إيمان بأن الأمم ستتعلم أخيراً كيف تتحدّ لا للخراب والدمار ولكن للتعاون الوثيق، وأن المستقبل ليس للمنتصرين الغزاة بل لمنقذي الإنسانية وتخليص الجنس البشري ...".

عام ١٨٩٥ قال: " .. معذرة لا أستطيع.. " حين قدّموا له كأس حليب .. وهكذا ودع الحياة واحد من أعظم الرجال الذين أنجبتهم فرنسا، رجل سخر العلم لنفع الإنسانية...

وليس هناك ما هو أعظم من التكريم الذي لاقاه العالم الكبير رجل السلام والإنسانية، الذي أَرْضَى والده ( الدباغ ) بالجهد والعمل المتواصل الأمر الذي جعله يصنّف في مكان متميّز بين المئة الأوائل في تاريخ البشرية ..



## المراجع والمصادر:

- ١- جورج سلستر - عباقرة العلم في الغرب - دار العلم للملايين - بيروت د/تا.
- ٢- جورج سارتون - تاريخ العلم - دار المعارف - القاهرة طبعة أولى، ج ٢: ١٩٥٧.
- ٣- مايكل هارت - المائة الأوائل - دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة (٢) ١٩٧٩ - ترجمة خالد أسعد عيسى - أحمد فحسان سبانو.

---

## هوامش:

- عباقرة العلم في الغرب - مصدر مذكور.

١- ص ٢٢٦

٢- ص ٢٢٧

٣- ص ٢٢٧

٤- ص ٢٣٥

٥- ص ٢٢٧.





## مكسيم غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦م).

" من المستغرب أن تكون طيباً بينما من حقك أن تكون شريراً "

تولستوي

عاش غوركي في بيت جدّه لأمه مع جدته، كان الجدُّ أنانياً غليظ القلب والطباع يحمل عداً للناس أجمعين يحاول الاستعانة بالله لتدمير حياتهم وإزالتهم من طريقه .. أما جدّته فكانت على العكس تماماً رحيمة تحب الناس وتصلّي لله كي يهبهم العون والخير حتى خيل للطفل أن هناك إلهين :

أحدهما لجدّه: جبارٌ قاسٍ منتقم.

وثانيهما لجدته: شقيقٌ غفور رحيم .

كان الجد والجدّة قطبي الوجود عنده: البغضاء والمحبة، الشر والخير، كان الجد يضربه بدون سبب، وكانت جدته تسمح جراحه وأحزانه ..

وهذه الجدّة كما يقول غوركي " أدخلتني الحياة اللذيذة على صعوبتها بين الناس وحين أفكر بهايّزول الألم كلّه والجراح جميعها ويتغيّر كلُّ شيء، ويصبح أكثر جاذبية وأعظم تشويقاً ويبدو الناس أفضل مما هم..."

" قبل جدتي كنت مدفوناً في الظلمات، ولكنها ظهرت فأيقظتني وأخرجتني إلى النور.. وأصبحت طوال الحياة الصديقة، الكائن الأقرب الأعز المفهوم وقد أغناني حبّها النزيه للعالم وملأني بأساً لحياة صعبة.."

\*\*\*

وصل إلى الصف الثالث في المدرسة، وأخذ شهادة ثناء أعطاهها لجدّه الذي طواها باعتناء دون أن يفتحها وقال للصبّي: " حسناً يا الكسي لست قلادة أعلقك بعنقي فإذهب بين الناس واحصل على خبزك.." .

إن ذلك المردُّ فجر حياة طافحة بالحوادث، معقدة غريبة يستحيل وصفها، إن  
أولها في خاطري كحكاية كثيفة رواها لي جني طيب القلب لكنه واقعي حتى درجة

أعلن المستقبلون الروس في بيان شهير لهم في مطلع القرن العشرين رفضهم  
لعمراء روسيا الماضين وهو (بوشكين) بقولهم: " لنلقِ بوشكين من سفينة العصر " ١١.

أيهم ( مكسيم غوركي ) قائلاً: " بوشكين هو بداية كل البدايات عندنا .. " لعل  
تصلح أن تكون مفتاحاً لشخصية غوركي العظيم الذي لا يُنكر للعظماء قبله بل  
- تسليم، من خلال إيمانه بمبدأ التعاقب في الحركة التاريخية للثقافة وإيمانه بأن  
عن القيم النبيلة عند السابقين يُسهم في تطوير الأدب المرتبط بحركة الجماهير

العليم الذي صنع نفسه بنفسه وسط المشاق والمصاعب والتشرد والحرمان.. إذ بدأ  
سكافياً ثم مساعد مساح أرض، ومساعد طاهٍ في سفينة واشتغل بستانياً وفراناً كما  
انما جوالاً وحمالاً في الميناء.. إن مرارة الحياة هذه أوحى له أن ينتحل اسماً  
من المرارة فكان اسمه المستعار ( غوركي ) الذي يعني المر... وعندما نشر أولى قصصه  
الاستمرار كان عمره أربعة وعشرين عاماً وذلك بعد أن تعرّف على أحد الثوار المنفيين  
ببريا.

### غوركي .. حياة بلا طفولة،

ولد ( ألكسي مكسيموفتش بشكوف ) الذي اشتهر بـ ( مكسيم غوركي ) عام ١٨٦٨، لأب  
مجاراً ومات هذا الأب وعمر الطفل أربع سنوات فذهبت به أمه إلى بيت أهلها وتركت  
في هناك في رعاية جدته الطيبة الذكية الواسعة الاطلاع، والتي أفادت الطفل كثيراً .  
في المدرسة ولكنه في الصف الثالث اضطر للعمل يتجول في البيوت يجمع الورق والخرق  
بها .. يستمر في المدرسة التي أجبر على تركها بعد ذلك، ليشتغل صبيّاً في حانوت ..  
ثم في الأطلاق ويمسح الأرض عند أحد المهندسين .. وهرب من ثم ليشتغل حمالاً على  
البن في الفولغا وعمره إحدى عشرة سنة... وبعدها اشتغل في سفينة حيث انتهت  
لذا لم يعيشها... وبدأ حياته ( مع الناس ) - كما سمى أحد كتبه - بواباً وحمالاً  
.. بدأت حياة غوركي هذه مع الناس الذين أثر بعضهم فيه بعمق .. منهم تلك  
التي سبق ذكرها بقصصها وأغانيها الشعبية والثاني طاهي السفينة التي كان يعمل بها  
- والذي كان مولعاً بالمطالعة حيث نقل هذا الولع إلى الصبي المشرد ( غوركي ) .

ومن المؤكد أنَّ الطفولة المفقودة في حياة كاتبنا كانت وراء فكرته النبيلة بإنشاء الأدب العالمي للأطفال لأنه أدرك من خلال طفولته أهمية الكتاب في تربية الروح الروحية...

ورغم أن هذا الحلم لم يتحقق في حياته إلا أنه تجسّد وصار حقيقة فيما بعد. خلال عشر سنوات قضاها غوركي بعيداً عن قريته، عمل دون توان على تثقيب، طالع المؤلفات الكلاسيكية - الروسية والأجنبية ووضع مجموعة من القسائد، الفلاح العتيق وغيرها...

وعرضها على صديقه (كرولينكو) مؤلف رواية (الموسيقى الأعمى) الذي نصحه بقرض الشعر مُطلقاً وانصاع غوركي لنصيحة صديقه، كما كان يبيت من شعر سائين "بوشكين" ترسب في أعماق روحه ليحجّله الناقد الأول لما يكتبه أو يصدر عنه: "أيها الشاعر أنت المحكمة العليا لذاتك..."

إضافة للمؤثرين الهامين السابقين في حياة غوركي، فإن رحلة كبيرة إلى أراضيه سيراً على قدميه عام ١٨٩١م زاول خلالها مختلف الأنواع منها الفلاحة... وكان الكثير من صور هذه الرحلة مرجعه الأول في أعماله الأدبية، وبعد هذه الرحلة حياة غوركي الأدبية التي قسمها بعض الدارسين إلى مراحل تبدأ الأولى عام ١٨٩٢م بعد سبعة أعوام ١٨٩٩م.

وتستمر المرحلة الثانية سبعة أعوام أيضاً من ١٩٠٠-١٩٠٧م وفيها تبلورت غوركي الكاتب الروائي وفي هذه المرحلة وضع روايته الخالدة (الأم) عام ١٩٠٦، وأهم أعماله نظراً لأهمية المشاكل التي عالجتها ولجّدها وأسلوبها الفني والتمثيل حياة أشخاص من الواقع الفعلي إذ أن بطل الرواية وأمه اشتركا في مظاهرات عام ١٩٠٢م وقد عاشا إلى ما بعد ثورة عام ١٩١٧ حيث صدرت الرواية بشكلها النهائي الرقابة منعتها من الصدور قبل الثورة..... والأم في هذه الرواية من النماذج الخالدة التي أضافها غوركي إلى النماذج البشرية التي خلقها المبدعون قبله. هذه الرواية تبرز على ضعفها المائل في حياة لا تعرف غير الخوف والدموع. وعندما اك للحياة طرقاً أخرى غير الدموع والخوف مارست إيمانها الجديد عندما تنقلت بين وعلى ظهرها كيس وفي يدها حقيبة... تتحدث إلى الناس بهدوء وجراً أن يندمى بها... أن تشترك في مظاهرة يقودها ابنها بطل الرواية الذي قال مشيراً إلى رثته والدته له ونضاله: "إنها لسعادة نادرة أن يدعو المرء أمه أمّاً في الدم والروح."

وفي هذه المرحلة كتب أشهر مسرحياته (العوام) عام ١٩٠٠م (في القاع) عام ١٩٠٢م هذه المسرحية الرائعة التي يتحدث فيها عن مراقبته عشرين سنة لحياة الناس... تُرجمت إلى معظم اللغات ومثلت في برلين أكثر من مئة وثمانين مرة...

وكتب (المصطفون) المسرحية التي صوّر فيها المثقفين المبتذلين بتفاهاتهم وريائهم والذين يذرفون دموع التماسيح على مصائب الشعب ويحاولون تبريرها على أنها ضرورة كما يبتدعون التسويغات لأي ظلم.

وامتدت المرحلة الثالثة من حياة غوركي حوالي تسع سنوات ١٩٠٨-١٩١٧م دافع فيها عن بلاده كجندي متطوع في الحرب الأولى ويقف مع الثورة ويقود الحركة الثقافية باتجاه التقدم ويحرر صحيفة (الحياة الجديدة) ويرأس تحرير مجلة "الآداب العالمية" إضافة لإسهاماته في تحرير عدد من المجلات الأخرى..

أما المرحلة الرابعة من حياة غوركي فقد امتدت من ثورة (اكتوبر) تشرين الأول الاشتراكية عام ١٩١٧م إلى عام وفاته ١٩٣٦م وكتب فيها روايته الضخمة (سيرة أرنامونوف) صوّر فيها الإنسان ينحط ويتدهور نحو الحيوانية إذا عاش عيشة البطالة والفراغ لأن العمل يحد ذاته مفخرة الإنسان .. كما أرّخ في هذه المرحلة للكتاب الروس العصاميين الذين بلغوا حسب تقديره ثلاث مائة كاتب منهم صانعو الأحذية والخياطون...

### القيصر... يعترض!!

منذ بداية القرن بدأ نجم (غوركي) يلمع وانتخب عام ١٩٠٢م عضواً في أكاديمية العلوم دون أن يحمل شهادة علمية.. الأمر الذي جعل القيصر (نيقولا الثاني) يعلق على انتخابه قائلاً: "إنه لحادث طريف حقاً!!" .. وكتب إلى وزير معارفه يقول: "أمركم أن تلغوا قرار الأكاديمية بانتخاب غوركي في عضويتها..." !!

واحتج (تشيخوف) و(كورلنكو) على قرار القيصر بإلغاء انتخاب غوركي بأن أعلنوا التنازل عن عضويتهم في الأكاديمية ذاتها إذا امتنع قبول غوركي...

وعندما اعتقل غوركي عام ١٩٠٥م وُجِّه به في السجن قال المفكر الفرنسي (أناتول فرانس): "إن قضية غوركي هي قضيتنا جميعاً وأننا نهتم بأمر حريته..." .

### غوركي... ضد اليأس

في مطلع القرن العشرين أصاب اليأس عمالقة الكتاب الروس فانتابت الحيرة بعضهم بسبب عدم وضوح الطريق نحو المستقبل ... أما غوركي فقد أدرك الأوضاع الجديدة التي



يمكن أن تولد من رحم اليأس والظلم وكان لحياته الخاصة واحتكاكه بالطبقات الشعبية المسحوقة الفضل في ادراك الوجهة الجديدة لحركة التاريخ ولعل ذلك يتنخّص عندما يعلق (غوركي) على مسرحية (الخال فانيا) لأستاذه " تشيخوف "، كتب يقول: "لقد أصبحت الصميم حقاً ولكن ما الذي تطمح إليه بهذه الضربة؟ فهل يبعث الإنسان من جديد؟، لقد جاء دور البطولات والكل يُطالب بالأدب المثير النّير؟ الأدب الذي لا يشبه الحياة، وإنما هو فوقها وأفضل منها وأبدع" ولعلّه بهذا القول أيضاً قد وضع أهم اسس الواقعية الاشتراكية على الاطلاق .. وهو أنها لا تكتفي بتصوير الحاضر مستفيدة من الماضي وإنما تمتد أيضاً لترود آفاق المستقبل..

ومن كان مثل غوركي يغني لأجل الكادحين، يغتني بالمعرفة كما يغتني من الحياة الواقعية، لا يمكن أن ييبأس، وإنما البذي يجعله قوياً هو أنه يُساعد على التقدم ويكون معاصراً في كل جيل.

### غوركي.. الإيمان بالإنسان:

انطلق غوركي من الإيمان بأن الأدب هو: علم الإنسان لأن مادة الكاتب المبدع هي الإنسان في أعماله في أفكاره في أحاسيسه ومشاعره.. وكلّما تعمق الكاتب في حياة الناس لمس أفكار قرائه وأحاسيسهم .. لقد وصل إيمان غوركي بالإنسان إلى درجة شعر معها ان الإنسان شمس تضيء في صدره، يقول من قصيدة له بعنوان (الإنسان) :

" إنني في ساعات التعب الروحي "

أستدعي الإنسان بقوة تصوراتي "

الإنسان هو شمس تضيء في صدري.. "

إنني أحترق لأضيء ظلام الحياة.. "

وكما أنه لم ينزع الثقة من الواقع كذلك يقف بحزم ضد تحقير الإنسان وشتمه الأمر الذي شاع في أدب الربيع الأول من القرن العشرين يقول: " الإنسان ليس مخلوقاً حقيراً كما يصوره المجتمع الطبقي .. الإنسان هو المعجزة الوحيدة على الأرض، وكل المعجزات هي نتاج إبداعه وإرادته وعقله وخياله ويقول أيضاً: " خلال كل حياتي لم أرَ الناس إلا أبطالاً حقيقيين، الناس الذين يحبون ويستطيعون العمل يضعون نصب أعينهم هدف إطلاق كل قوى الإنسان من أجل الإبداع من أجل تنظيم الحياة بشكل يليق بالإنسان، والإنسانية، وكما يراها غوركي - ليست مجرد حب جامع للناس بل هي كذلك سعيٌ نشيط لمساعدتهم كي يصبحوا أحسن وأسمى من أجل تقريب النصر الحاسم على الأوضاع اللاإنسانية .

أن القيمة العالية لمجموعة كبيرة من مؤلفات غوركي وخاصة ثلاثيته بسيرة حياتي : الطفولة - مع الناس - جامعاتي - تكمن في تصويره الرائع لكيفية تكوين الإنسان لنفسه ولكيفية تحويل ذاته إلى شخصية عظيمة ، بعد أن يتغلب على الظروف .. وفاعلية الإنسان لا تظهر فقط في ارتباطها بالعالم الخارجي بل تظهر كذلك في علاقتها بالإنسان نفسه ..

في هذه الكتب المتعة البطل هو المؤلف الذي تحدث عن سعيه لكسب قوته وتنقله من مكان إلى آخر ، وعن المبادئ التي تقلقه : مثل الاشتراكية - العدل - التقدم - المعرفة - المؤثرات في حياته ، تلك الجدة التي نبهت حواسه الخلاقة وغرست فيه روح النضال من أجل المثل العليا ... هذه الجدة المفعمة بروح الإنسانية ، رغم حياتها القاسية المؤلمة .. وتحديث عن الأدب الروسي وتأثيره على نفسه : قصائد ( بوشكين ) وقصائد (ليرمنتوف) التي قال عن إحداها :

" لقد هزنتني وبخ صوتي وأنا أتلوها.. "

حياة غوركي كما تبدو في كتبه واقعية مثالية وبهذا فاحز (إنجلز) عندما خاطب البورجوازيين الصغار بقوله : "... نحن الماديين في الواقع أكثر مثالية منكم بألف مرة لأننا نقود الجماهير إلى الأمام بقوة.. (١) وهذا قريب مما عبّر عنه الروائي العربي السوري ( حنا مينة ) حين قال : " لقد وجدت الرومانسية حيزاً لها في الواقعية عند غوركي في نشيده ( نذير العاصفة فهو نشيد رومانسي يعانق الثورة ويوحى بها وينذر القياصرة بالعاصفة القادمة ) . (٢) .

هذا الواقعي الرومانسي وصفه أحد أصدقائه في ذكرى ميلاده الستين بأنه آخر المتنبيين بالانقلاب المرتقب ، وأول كاتب عظيم توجه نحو الحركة العمالية ويقول : " ستأتي إلى العالم لتنقذه... " لأن الواقع الروسي كان خانقاً رهيباً كما يخبرنا غوركي في (طفولتي) . يصعب عليّ أن أصدق أن هذا الماضي كان حقاً على ذلك الغرار.. ولكن الحقيقة فوق كل شفقة ورحمة.. وأنا لا أكتب هنا عن نفسي بل عن البيئة التي مازال يعيش فيها الروسي العادي.

### غوركي .. جزء من وعي الشعوب :

لأن " غوركي " ربط بين عمله كأديب وبين نضال الشعب التحرري فقد أصبح من أكبر البناة للثقافة الاشتراكية وأصبح إبداعه جزءاً من وعي الشعوب التي تعمل من أجل التقدم لما يدعو إليه من تربية الناس على المواقف البطولية وعلى الشجاعة في ممارسة الحياة ، ولأن " غوركي " كان القنطرة التي ربطت بين ماضي بلاده ومستقبلها ، وبين بلاده والعالم...

وقد حيّا ( رومان رولان ) الكاتب. الفرنسي هذه القنطرة برسالة بعثها إلى غوركي عام ١٩١٨م حين قال : " إنني أحبّ هذه القنطرة إنها تسمو فوق الطريق ، وسيظل يراها أولئك الذين سيأتون بعدك زمناً طويلاً " . وبهذه القنطرة احتفل الاتحاد السوفييتي عام ١٩٣٢م بمرور أربعين عاماً على حياة غوركي الأدبية وتغيّر اسم القرية التي ولد فيها ( نيجيني ) ليصبح اسمها باسم ابنها البار الذي خلّدها ( غوركي ) .

قال ( مولوتوف ) خطبةً جاء فيها : " .. إن موت غوركي أعظم خطب عرفناه بعد خسارة لينين كان كاتبنا ، الكبير يقف في مصاف جبابرة كتابنا أمثال بوشكين ، غوغول ، تولستوي - وهو المتّم لتقاليدهم الأدبية بل إن أثره أفعل فينا من أي أديب روسي آخر .. " (٣) . ولن نجد في ختام هذا القول عن غوركي خيراً مما قاله ( خرابتشنكو ) في نهاية كتابه ( ذات الكاتب الإبداعية ) ...

" إن أعمال غوركي نبغ لا ينضب من الحكمة الحياتية والجرأة الإبداعية والإيمان بالإنسان وقواه الخلاقة ... " .

### الأم نبغ الحياة الطافرة:

إن إيمان مكسيم غوركي العميق بالحياة يتجلّى بأجمل صورة في ( نشيد للأمهات ) كتبه ذات يوم يقول فيه :

لنحتفل بالمرأة الأم التي لا يعرف حبّها الموانع هي التي أرضعت الكون  
كل ما في الإنسان من جميل ، كل ما يملؤنا حبّاً للحياة يصدر عن أشعة الشمس وعن  
حليب الأم ..

المرأة أم العالم وماهي تلك لأنها تنجب له الأولاد وحسب ، بل وهذا هو الأساسي لأنها  
تكوّن الإنسان مُعطيةً إياه خيرة مباحج الحيد ..

الأزهار لا تتفتح بدون الشمس والسعادة لا وجود لها بدون الأم .  
والحب لا وجود له بدون الأم ( المرأة ) والشعراء والأبطال لا وجود لهم بدون الأم .  
كل اعتزاز العالم بمبعثه الأمهات .

كل ماهو جميل على الأرض يتولد من الحب للمرأة .

الأم عدو الموت ...

أيتها الأمهات أنتم ملايين ومئات الملايين ..

فلَمْ لا تصرخُن قائلات لأولادكن الذين فقدوا الصواب ..

كفى ! إننا نمنعكم عن التقاتل فيما بينكم..

جئنا بكم إلى الدنيا من أجل الحياة من أجل العمل ..

من أجل أن تزدهر عبقريتكم الخلاقة..

من أجل أن تجدوا الفرج..

من أجل أن تجعلوا الحياة أكثر صواباً وأكثر عدلاً وأكثر جمالاً ..

فلنمجد المرأة الأم اليبنوع الثر للحياة الظافرة..

هذه بعض ملامح الرجل الذي قال له " تولستوي " يوماً : " من المستغرب أن تكون طيباً بينما من حقك أن تكون شريراً.. " لأن الحياة لم تكن طيبةً معه ولكنه صمد للبيئة والقدر وشروط الحياة وانتصر عليها على حد تعبير (حنا مينة).



## مراجع ومصادر:

- ١- مكسيم غوركي - طفولتي - ترجمة المحامي سهيل أيوب ، دار التقدم - موسكو - المؤلفات المختارة / المجلد (١).
- ٢- مكسيم غوركي - بين الناس - جامعاتي/ المجلد (٢) - دار التقدم - موسكو.
- ٣- جلال فاروق الشريف - مراسلات غوركي - تشيخوف - دار دمشق للطباعة والنشر ط (١٩٨٢).
- ٤- حنا مينة - كيف حملت العلم - دار الآداب - بيروت - ط (١٩٨٦).
- ٥- سلامة موسى - هؤلاء علموني - سلامة مؤسسة للنشر والتوزيع ط (١٩٦٥).
- ٦- دكتور فؤاد أيوب - مقدمة رواية الأم - دار البيضة العربية للتأليف والنشر ١٩٦٥.
- ٧- إبراهيم كارانفيلوف - أبطال وطباع - ترجمة ميخائيل عبيد - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.

## هوامش:

- ١- مؤلفات مكسيم غوركي - ترجمة المحامي سهيل أيوب - دار التقدم - موسكو، المجلد الأول ص ٩.
- ٢- حنا مينة - هواجس في التجربة الروائية - دار الآداب بيروت ، ط (١) ص ١٠٩.
- ٣- خرابتشنكو - ذات الكاتب الإبداعية ترجمة ، نوفل نيووف وعاطف أبو جعرة ، وزارة الثقافة ١٩٨٠ ، ص ٤٨٠.





## كازانتزاكي (١٨٨٥-١٩٥٧)

" واجبنا ... أن نقف أمام الهاوية بكبرياء.. "

قادني الفيلم السينمائي الممتاز ( زوربا اليوناني ) إلى رائحة ( نيقوس كازانتزاكيس ) الروائية التي أخذ عنها هذا الفيلم، وهذه تقود القارئ إلى مؤلفاته الأخرى مثل ( الأخوة الأعداء ) و " المسيح يصلب من جديد ".

و " الكابتن ميخائيل " ومن مسرحياته : تسيوس - عطيل يعود - المسيح وبوذا و. بروميهوس وكتب أخرى عن الرحلات وبعد ذلك إلى كتابه الممتاز ( الطريق إلى غريكو ) الذي هو مذكرات كازانتزاكيس ، ترجمة الشاعر ممدوح عدوان..

وكازانتزاكي كاتب ومفكر يوناني معاصر، وقمة شامخة بين كتّاب الأدب العالميين إذ حقق شهرة عالمية كشاعر وروائي.. وُلد في جزيرة كريت اليونانية عام ١٨٨٥م، درس الفلسفة والقانون في جامعة ( أثينا ) ثم انتقل إلى جامعة باريس حيث درس الفلسفة ثم عاد إلى وطنه واعتزل عامين في دير للرهبان، وكان اعتزاله فترة تأمل عميقة اجتزّ معها الكثير من أفكاره الموروثة، وزادت رؤاه وضوحاً وشمولاً، وخرج إلى الحياة بعد ذلك ليبدع ويكتب من خلال التفاعل مع الإنسان. كان غزير الإنتاج في قوّة وإبداع، متفتح الفكري حرة وحيوية..

ومن أشهر أعماله الشعرية ( الأوديسة ) وهي ملحمة تصور المسار الفكري للكاتب نفسه.. ترجم الروائع الكلاسيكية من الأوروبية إلى اليونانية مثل الكوميديا الإلهية ( لدانتلي ). ( فاوست ) لـ ( جيته ) وهكذا تلك زرادشت لـ ( نيتشه ).

تحوّل في مرحلة لاحقة من عمره إلى الرواية التي كشفت عن قدراته الإبداعية الفذة في تمكنه من الأسلوب وتأمله العميق للحياة، حين اكتشف في نفسه عند سنّ الخامسة والأربعين نضجاً فنياً وأصبحت الطريق ممهدة للإبداع، حيث أعطى أعظم أعماله في السنوات التسع الأخيرة من حياته التي انتهت عام ١٩٥٧م.

....

إن أدب كازانتزاكي محليّ وعالمي في آن معاً، فشخصياته اليونانية في سماتها وأخلاقها تصلح لأن تكون نماذج عالمية من حيث القضايا التي تطرحها وطريقة معالجة هذه القضايا....

من أدبه نتعلم أن الحياة لنا ومن أجلها نعيش ونناضل لأن الحياة ذاتها انتصار على الموت.. والحب والعمل زادنا في مسيرة الحياة، وسبيلنا إلى الانتصار على اليأس.. والحب والعمل لا يكونان إلا للإنسان الحر، الذي يجرب حياته كل لحظة ولا يقنع بأفكار مسبقة مزروعة، أو قوالب محفوظة..

يقول على لسان ( يانكوس ) بطل روايته (المسيح يُصلب من جديد) "وهكذا يكون الإنسان كائنًا حيًا، يتكلم ويعترض ويُسائل.. وإن أسلحتنا لمواجهة الحياة: العمل والصبر والحب....".

\*\*\*\*

كانت الحرية أول رغباتي الكبيرة، أما الثانية والتي تعذبني كانت الرغبة في الطهارة البطل مع القديس هذا هو النموذج الأمثل للإنسان.. لذلك قرر " كازانتزاكي " أن يكون ( يوليسيس ) الرحالة الباحث رمزه المثالي، فسافر كما تسافر طائرات ( الجت ) تغذيه قوة اندفاع من انفجارات عدم رضاه الذاتي، كما يقول ( كولن ولسون ).. يوليسيس هذا توصل إلى إنسان نبيل عن طريق المعاناة.. وبسبب ذلك فقد عُدا كاتبنا رمزاً للرجل الذي يرفض التنازل عن البحث وقد استمر في البحث عن إجابات حتى لحظة وفاته...

من هذه الزاوية كتب مسرحية رائعة عام ١٩٤٩م (كريستوف كولومبس) تسلط الضوء على الرجل الذي تسيطر عليه شهوة السفر والمعرفة، ولا يبتعد عن هذا الاتجاه في حياته، إن كازانتزاكي كان يمجّد دائماً في حفلات تكريمه: " العقل البائس الذي لا يمل من البحث الدائم..".

\*\*\*\*

" إن حياتي الشخصية لها بعض القيمة.. ولكن القيمة الوحيدة التي أعرفها جيداً كانت في تلك الجهود من أجل الصعود من درجة إلى أخرى للوصول إلى أعلى نقطة يمكن أن يتقود إليها الصمود والعناد....

ويُشير إلى أن الكثيرين يصلون إلى الدرجة الأولى أو الثانية ثم يتهاوون لاهئين في منتصف الرحلة ولا يصلون إلى ذروة واجبهم، مع أن واجب كل إنسان حقيقي أن يحمل صليبه ويصعد جملته....



لعلنا هنأستطيع أن ندرك لماذا كان هذا الكاتب يعتبر نفسه متجدد الشباب ،وهو في الرابعة والسبعين من عمره ؟ ولماذا احتفظ بالثقة الفائقة بالنفس تلك الثقة التي رفضت أن تتمرغ .. تروي زوجته ( هيلين كازانتزكي ) : " ... في باريس كان مريضاً ،درجة حرارته مرتفعة والأطباء مُضطربون ، لقد فقد الجميع الأمل ... لكنه ظل متماسكاً ،طلب قلماً وأملى عليّ الكلمات التي ينطق بها القديس: قلت لشجرة اللوز حديثني عن الله ياأخت.. فأزهرت شجرة اللوز..."

\*\*\*

يقول: طوال حياتي كانت هناك كلمة تعذبني وتجددني هي كلمة ( الصعود ) وسأتابع الصعود وأنا أمزج الواقع بالخيال وسترون آثار الخطا الحمراء التي خلفتها ورائي وأنا أصعد وهذا الأثر الدامي هو العلامة التي ستبقى بعد فنائي.. وهناك أربع درجات حاسمة في صعودي: تحمل كل منها اسماً مقدساً: المسيح، بوذا، لينين، يوليسيس، أماما خلفته من آثار سيقول: " إنني رجلٌ صعد جبل مصيره الوعر وكانت هذه الآثار هي تصوير هذا الصعود...".

إن ما يميّز الإنسان هو أنه ليس سفينة شراعية بل سفينة ذات محرك صغير قادر على قيادتها حين تعزُّ الريح...

إن الذي أثر في حياتي إلى أبعد الحدود، أكثر بكثير من المدارس والمعلمين أكثر من المتع والمخاوف الأولى، التي انتابتنني من رؤيتي للعالم ،والذي هزني بطريقة فريدة: هو الصراع بين كريت وتركيا.. كنتُ أتعجل أن أكبر لكي أسير في الطريق التي سار فيها جدي، وأبي، وأحارب، كانت هذه البذرة ومنها راحت شجرة حياتي كلها تنمو وتبرعم وتزهو وتثمر.. كان التوق للحرية هو الذي أثار نفسي في البدء، وتسَلَّقت قمة الحرية الصعبة الشاقة: الحصول على الحرية أولاً من الأتراك، وبعد ذلك الصراع الجديد للحصول على الحرية من الأتراك الداخليين: الجهل والحق والحسد، من الخوف والكسل من الأفكار الخادعة المضللة .. وأخيراً من الأصنام كلها حتى أكثرها محبة واحتراماً وبهذا فبان ولادتي ككريت حين كانت كريت تُقاتل من أجل حرّيتها جعلتني أدرك منذ طفولتي أن هذا العالم يحتوي على خير أعز على النفس من الحياة وأحلى من السعادة: هو الحرية..

أثناء الحروب كانت قريتي ( ميغالوكاسترو ) تتلاشى كي تتسامى أمامي جبال كريت ،وكانت قوّة كريت في داخلي فوق قوتي تتحكم بي، وكانت تمنعني من الاستسلام الذي حاولتُ أن أسقط فيه مرات عديدة وتغلّبت على الخوف منذ الطفولة، انطلاقاً من احترام النفس وفكرة أنني كريت التي ولدت في نفسي الكبرياء والعناد والبسالة ومع هذه جميعاً تفرح لكونك إنساناً ..

من أجل ذلك رفض كازانتزاكي أن يكون قديساً كما رُسم له لأنه يرى أن القديسين صاروا أكثر إذعائاً إنهم يحنون رؤوسهم دائماً ..

"..... لقد كان لذي حدس أن الرجل الحقيقي هو الذي يقاوم ويكافح ولا يخاف عندما يقتضي الأمر أن يقول :لا..".

إن من واجبتنا أن نحدد لأنفسنا هدفاً أبعد من الفردية وأبعد من عاداتنا المريحة والمقبولة وأسمى من نفوسنا وأن نجد ليلاً ونهاراً من أجل تحقيق هذا الهدف.."

كنتُ شرهاً للمعرفة أسرع إلى المكتبات واشتري المخطوطات عن الأراضي البعيدة والمكتشفين العظماء وقد نزلت بقلبي بذرة (روبنسن كروزو) بشكل واضح ونما في نفسي حب القديسين الجدد، الذين لم يكونوا ينسون الصداقات وكانوا يأخذون كل ما يرغبون بالعمل المتواصل.."

لا أنسى حتى بعد مرور سنوات طويلة ذلك اليوم الذي حصلت فيه كريت على حريتها، والذي أوصل الحرية إلى بلدي أمثال ذلك الراعي الذي يعقب بروت الماعز، والذي عاد لتوّه من الحرب حيث قاتل كالأُسود وعندما تلّقى ورقة ثناء مطبوعة تهنئة على أعماله الباسلة تصفه بالبطل قرأ المراسل الورقة، لم يفهم الراعي !!، قالو له : إنك بطل إن وطنك يُرسل لك هذا الثناء، تحفظه لك ولأولادك.. مدّ الراعي يده ومزّق الثناء وألقاه في النار وقال: قلّ لهم: إنني لم أحارب كي أتلقى هذه الورقة، لقد قاتلتُ كي أصنع تاريخاً، قلّ لهم: لا أريد أي جزاء حاربت لأنني كنتُ أريد ذلك هذا هو العمل الأول في حياتي..."

إن علامة السعادة عند كازانتزاكي أن يقفز قلبه مثل العجل الصغير، وكان يحدث له ذلك حين يُقابل شروق الشمس أو لوحة فنيّة أو امرأة أو فكرة جديدة..

يحدثنا في مذكراته أن الأرقام الزوجية تجري مُعاكسةً لقلبه، ولا شأن له بها، لأن حياتها مرتبة بشكل مُريح جداً، إنها تقف على أقدامها بثبات كبير، وليس لديها أية رغبة، في تغيير مكانها فهي قانعة ومحافظة ومستقره لقد حلّت كل مشكلة، وحولت كل رغبة إلى واقع وهدأت، الرقم الفردي هو الذي يتلاءم مع إيقاع قلبي فحياة الرقم الفردي ليست مرتبة بشكل مُريح والرقم الفردي لا يحب العالم بالشكل الذي يراه عليه، بل يرغب في تغييره والإضافة إليه، ودفعه إلى الأمام، يقف على قدم واحدة والأخرى جاهزة في الهواء وهو راغب في الرحيل إلى أين؟ إلى الرقم الزوجي التالي من أجل أن يتوقف قليلاً، يلتقط أنفاسه ويستحضر رقماً جديداً.. "ودائماً يتذكر كازانتزاكي القول الكريتي "عُد إلى حيث فشلت وغادر من حيث نجحت..". فإن فشلت فسأعود الهجوم حتى لو لم يبق إلا ساعة واحدة من العمر..."

تقدمت بثقة كأنني أعرف وجهي الحقيقي، وواجبي الوحيد أن أعمل هذا الوجه بأكثر ما أستطيع من صبرٍ وحُبٍّ ومهارة، أن أعمله؟ ما معنى ذلك؟.. معناه أن أحوله إلى لهب وإذا كان لدي الوقت قبل مجيء الموت، أن أحول هذا اللهب إلى ضوء، بحيث أن ملك الموت لن يجد - حين يأتي شيئاً في كي يأخذه إلا القليل من العظام..

" إن الأمر الذي ساعدني في الوصول إلى هذه الثقة أكثر من أي شيء آخر، هو أن أسلافي فيهم جميعاً آثار عربية، فهم فخورون وعنيدون، ومعتدلون في طعامهم، كانوا يخزنون حبهم أو غضبهم سنوات عديدة في صدورهم دون أن ينبسوا بكلمة ثم بغنة ينفجرون... والقائدة بالنسبة لهم ليست الحياة بل العاطفة، وقلبي يخفق فرحاً حينما أصادف نخلة تظنُّ أنها تعود إلى مسقط رأسها في القرية.. "

\*\*\*

إن هناك تعاقدًا غامضاً بين الأرض التي ولدنا عليها، وبين أرواحنا التي نمت فوقها، وتناماً كما تُرسل الجذور أمراً سرياً إلى الشجرة كي تزهر، وتحمل الثمار كي تبرر وجودها وتصل إلى الهدف من رحلتها.. كذلك فإن أرض الأسلاف تفرض وصايا صعبة على الأرواح التي ولدتها ويبدو أن الأرض والروح مصوغتان من المادة ذاتها وتقومان بالهجوم ذاته والروح هي التي تحقق الانتصار الأكمل..

(كان والدي شجرة سنديان بجذع صلب وأوراق خشنة وثمر مرّ بلا أزهار وكانت كل شجرة تذبل في ظله وأنا الآخر كنتُ أذبل في هذا الظل.. كنتُ أفكر في والدي فيجبُ قلبي ولهذا كنتُ مجبراً على كتابة كل ما كنتُ أرغب في نقله بدلاً من أن أصبح مكافحاً عظيماً في مملكة الفعل - بسبب خوفي من والدي - لقد كان هو الذي حوّل دمي إلى حبر.. لقد سلكْتُ طريقاً لم اختره بل هو الذي اخترني.."(١).

بدأت أكتب لكي أحول صرختي الداخلية وأمنع نفسي من الانفجار، كنتُ أتمنى أن أحول الكلمات إلى أفعال، ولكن العمل انحطّ إلى كلمات وتحوّل الدم إلى حبر وبدلاً من إشهار الرمح وشنّ الحرب فإنني أمسك بريشة صغيرة وأكتب..

لقد كان لقائي بـ (زوريا) متأخراً لقد سبق ذلك أن انحدرتُ إلى حامل قلم لا شفاء له.. طوال حياتي وأنا واقع تحت سيطرة الشخصيات البطولية العظيمة، ربما لأنني قرأت حياة القديسين بكثير من التأثر في طفولتي، وكنتُ أتوق لأن أصبح قديساً بدوري، ثم بعد ذلك وهبتُ نفسي، وبالانفعال ذاته للكتب التي تتحدث عن الأبطال الفاتحين والمكتشفين والدون كيشوتيين وحالماً يُصادف أن تجمع شخصية ما بين البطولة والطهارة أحوز على

نموذجي من الكائن البشري وبما أنني لم أستطع أن أكون قديساً أو بطلاً فلقد حاولت عن طريق الكتابة أن أجد العزاء عن عجزتي.

كنتُ أعرف أن ما أكتبه لن يكون كاملاً من الوجهة الفنية ذلك أنني تعمّدت تخطّي حدود الفن.. وكلّما كتبتُ أكثر تعمق إحساسي بالكتابة، كنتُ أكافح ليس من أجل الجمال بل من أجل الخلاص، وإذا كنتُ أكتب فلأن الكتابة كانت سندي الوحيد في كفاحي وحين نهج بالكتابة أو بالعمل مجرى نهر فإن الحقيقة تجري فيه وتتخذ مساراً لم تكن لتتخذهُ لولا تدخلنا ومساهمتنا.. ربّما كانت الكتابة لعباً في عصور التوازن والانسجام، ولكنها اليوم مهمّة جسيمة لم يُعد الغرض منها التسلية والمساعدة على النسيان، ولكن الغرض من الكتابة تحرير الإنسان على بذل قصارى جهده لتجاوز الوحش الكامن في أعماقه..

في كلّ ما كتبتُ كنتُ أفرش الأرضية من الأساطير، أو العصور القديمة، إلا أن المادة الحديثة وحيّة تُعاني من مشاكل معاصرة ومن عذابات أيامنا وكنتُ أرى دائماً أن فنان اليوم المبدع إذا قام بالتعبير عن أعماق توجساته الداخلية تعبيراً صادقاً ومتكاملاً فإنه بعمله هذا يُساعد إنسان المستقبل على أن يولد قبل ساعة من مواعده وأن يكون هذا الإنسان أكثر شُرباً من الكمال.

إن قيمة الإنسان لا تكمن في النصر، بل في الكفاح من أجل النصر وأن القيمة الأكثر روعةً تكمن في شيء واحد فقط هو أن يعيش ويموت بشجاعة دون التنازل بقبول أي جزء. جاهدت كثيراً كي أعثر على مُصطلح بسيط دون رقعة تزيينية المصطلح الذي لا يثقل على عواطفني بنغاه فيُحطّمها، متذكراً قصة ذلك المتصوف المسلم العطشان الذي أنزل الوعاء في بئر لكي يسحب الماء ويشرب، رفع الوعاء فرآه مليئاً بالذهب أفرغه وأنزله من جديد ثم سحبه فكان مليئاً بالفضة أفرغه وقال: "أعرف أنّك مليء بالكنوز يامولاي، ولكن أعطني فقط بعض الماء لأشرب: أنا عطشان، أنزل الوعاء ثانية وسحب الماء، ثم شرب، هكذا يجب أن تكون الكلمة: دون زينات، "كنتُ مفتوناً بثلاثة من مخلوقات الله: الدودة التي تصير فراشة، والسمكة الطائرة التي تقفز من الماء محاولة تجاوز طبيعتها، ودودة الحرير التي تحول أحشائها إلى حرير..."

ثالثت حياتي غاية في البساطة لدرجة أن اعتبرها بعض الناس معقدة بشكل خطر، وتلّ ما فعلته في حياتي البسيطة، حاول الناس أن يكسبوه معنى مختلفاً ويتكهّنوا حوله بما هو مُختفٍ وكامن... حياتي بسيطة حتّى أنني لا أفعل شيئاً حتّى أنني لا أدخن.. (٢).

ذات يوم سألت نباتات شوكية شجيرة الورد: ألا تعلّميننا سرك كيف تصنعين الورد؟ أجابت شجيرة الورد: "سري بسيط جداً يا أخواتي الشوكيات إنني أعمل طوال

الشتاء بصبر وثقة وحب وشيء واحد يستولي على ذهني: الوردة يلسعني المطر وتعريني الريح من أوراقها ويسحقني الثلج، لكن شيئاً واحداً يظل مستولياً على ذهني: الوردة هذا هو سري يا أخواتي...".

كي يستمر الواحد منا في الصعود كما يُحب أن يسميه الكاتب لابد أن ينظر إلى نفسه بمعرفة وتواضع لأن ذلك الذي يعتقد أنه على القمة لن يتقدم أبداً إلى الأعلى. لنسمعه يُقارن نفسه مع صديق شاعر عاش معه طويلاً، يقول: "كنتُ خالياً من السذاجة وغير واثق من أي شيء، لم أولد أميراً، ولكنني كنتُ ساجداً كي أصبح أميراً، أما صديقي فلا شك أنه وُلد أميراً وليس عليه أن يُعاني، وأن يُكافح كي يصبح أميراً وليس عليه أن يتوق إلى القمة، طالما أنه كان واثقاً أنه قد وصل إليها. كان مُتقنماً أنه فريد من نوعه، ولن يتنازل لمقارنة نفسه بأي فنان آخر حياً كان أم ميتاً، وقد منحته هذه السذاجة قوة وثقة في النفس عظيمنتين".

في داخل كل إنسان مُتكاملاً، مركز غامض يدور حوله كل شيء آخر، وهذا الدوران الغامض يوحد بين أفكاره وأفعاله ويُساعده في العثور على الانسجام الاجتماعي أو اختراعه. هذا المركز بالنسبة للبعض هو: الحب ولآخرين هو: الجمال ولغيرهم هو: المعرفة والتعطش إليها، ولغيرهم: الذهب أو السلطة.. إنهم يفحصون القيمة النسبية لكل شيء وفقاً لهذه العاطفة المركزية وبالعكس الإنسان الذي لا يُحس نفسه محكوماً في داخله من قبل سلطان مُطلق فحياته غير المحكومة والمشوشة تبعثرها الرياح الأربع.

يقول كازانتزاكي: "كان الأمر الهام بالنسبة لي، أنني يجب أن أجد أو (أخلق) هدفاً مُنسجماً مع نفسي ذاتها وابتاعه أستطيع إثارة إمكانياتي ورغباتي الخاصة إلى أقصى حد ممكن وعندها أخيراً سأكون مُتعاوناً بانسجام تام مع كَلِيّة الكون..".

كنتُ أعتبر الأمل الميتافيزيقي طعماً مغرياً، لا يتنازل الناس الحقيقيون لضممه، كنتُ أريد كل ما هو أكثر صعوبة: "الإنسان الذي لا يئن ولا يستراجع ولا يعرضي مُتسولاً راجياً. الإنسان الحقيقي ليس غنمة وليس كلب حراسة، أو ذئباً أو راعياً، إنه مُلك يحمل مملكته معه ويتقدم".

ما أجمل أن تكون حياً ومعك حواسك الخمس الأبواب الخمسة التي يدخل العالم منها- وهي تعمل بشكل جيد:

ما أجمل أن تقول: "إن العالم جميل، وأنا أحبه.. إن أثنى الغنائم العقلية التي حصلت عليها في بلدي هي أنني أدركت بأن عظمتها ليست في الجمال بل في الكفاح من أجل الحرية لم يكن جمال بلادي هو الذي دلّني على الطريق، وأدخلني في الرجولة بل المسؤولية. تلك هي الثمرة المرة التي كنتُ أملك بها في يدي وأنا أدخل بيت أبي بعد هودتي من رحلة الأشهر

الطامة في دموع بلادي، رجعت وصرخت بثقة، " أين أجدر روحاً عنيدة بالآلاف الجروح مثل  
روحي، تستمع لاعتراضي؟ بهدوء وإشفاق، أعتصر كمشةً من التراب الكريتي في راحتي  
يدي، أضعها في التربة دائماً خلال تجوالي وأنا أضغطها في كفي لحظات الألم العميق، فأستمد  
بها القوة العظيمة كأنني استمدتها من الضغط على يد صديق حبيب وغالب، هذه التربة هي ما  
نقوت دائماً وأبداً وهي ما ساكونه دائماً وأبداً..

إذا ما ناله كازانتزاي عن (كريت).

أما ما قاله عن قريته الصغيرة (ميغالوكاسترو) فكان رائعاً يتفجر بالناس الحقيقيين  
الذين لا يدركون الموت، يتحسّسهم على وشك الخروج من بين سطور الصفحة تقريباً على حد تعبير  
أوليفر ديلسون (٣).

### هؤلاء ... علموني :

إلى ما بقي خالداً في نفسي معلم الصف الأول الذي كنت أنظر إلى أسلوبه والعصامه  
التي لا تترك شيئاً، ولكن بعد أن عرفت الطبيعة البشرية بشكل أفضل باركتُ عصا المعلم المقدسة  
التي أتمتتنا المعاناة، هي المرشد الأعظم في ذلك الصعود الذي يقود من الحيوان إلى  
الإنسان. وبقي كذلك خالداً في نفسي والذي يوم أن هبت عاصفة عاتية في الصيف ذهبت  
معها وأنا ومؤونة الشتاء وبكى الناس واستنجدوا لكن والدي قال: عندما قلت لنذهب  
معهم " لم نذهب أخرس. لم أنس هذه اللحظة طوال حياتي وأعتقد إنها نفعني كدرس  
عظيم في أزمات حياتي.. كنت دائماً أتذكره وهو واقف بهدوء دون حراك على العتبة دون  
أن يلعب أو يتوسل أو يبكي.. بلا حراك كان يقف يرقب الخراب وحده، بين الجيران،  
والحفاظاً على كرامته البشرية..".

أما إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يفكر في الموت.. " لكنني أخالف هذا  
القول.. الإنسان هو الحيوان الذي يفكر في ديمومة الحياة.. " (٣).

"أنا سجننت الموت" هكذا قال جدي!!

والتي، حققت ذلك، قال: " بعدم خوئي منه.."

والتي، أننا نستطيع أن نقهر الموت إلا أننا نستطيع أن نقهر خوفنا منه.. هكذا يقول  
الديبلي الذي وسعت التلال روحه وحصنتها..

" أدت من شيخ كان يعظ الشباب ليعث فيهم الشجاعة حدقوا في الخوف، في عينيه  
أما، إن استطعتم عندها فإن الخوف سوف يُولي هارباً".

وتعلمت من سمكة رأيتها بين أسماك عديدة كانت تلعب في الماء، سمكة نشرت زعانفها بغتةً وفقرت خارجة من الماء لكي تتنفس الهواء، رأت في نفسها قدرة أكبر من أن تعيش في الماء، تاقت لأن تتعدى حدودها وتصبح عصفوراً ولو لوهلة قصيرة هذه الوهلة عندي هي الأبدية، رأيت فيها كريت بلدي السمكة التي تقفز لكي تتجاوز الضرورة وتتغلب على الحرية.. (٤).

سأظل كشجرة تهب عليها الريح، ويسقط عليها المطر والشمس وسأظل أنتظر بآهة، فساعة الإزهار والإثمار التي يطول انتظارها لابد أن تأتي ..

وقد لخص (كازانتزاكي) رحلته الفكرية بكلمات وردت في مذكراته (الطريق إلى غريكو) "... أنا مثل الحكيم الصيني القديم بدوت وكأني ولدت أشيب عجوزاً مغعداً بلاية بيضاء كالثلج، ومع مرور السنين صارت اللحية شهباء، ثم راحت تسود تدريجاً ثم تساقطت، في سنوات شيخوختي انتشر رغب ناعم دقيق على خدي، لم يكن شبابي إلا مجموعة من المقلقات والكوابيس والتساؤلات وسنوات نضجي لم تكن إلا إجابات متعثرة.

كان شبابي ورجولتي يدوران حول قطبي الألم والأمل، لكنني الآن في شيخوختي أقف أمام الهاوية هادئاً ودون خوف لم أعد أذل نفسي .. أعرف تماماً أن الموت لا مفر منه، لا محالة، وأعرف كذلك أن قيمة الإنسان لا تكمن في النصر، بل في الكفاح .. النصر.. (٥).

" إن أسلحتنا في هذا الكفاح: العمل والصبر والحب " كما جاء على لسان أ. أ. أ. كازانتزاكي ..

يؤمن كازانتزاكي أنه لم يعد بمقدور أحدها أن يعيش مُعزلاً لأن العيش مع الآخرين ومن أجلهم يضمن الخلود الذي يتخطى قوانين الطبيعة حيث تنهي حياتنا بالموت وهذا يحتاج منا إلى البطولة لأنه وكما يقول: " ليس تحت تصرفنا إلا دقيقة واحدة من هذه الدقيقة إلى أبدية، إذ لا وجود لأي نوع آخر من الخلود.."

تقول زوجته في مقدمة كتابه " تقرير إلى غريكو"

" ... وفي السنوات الثلاث والثلاثين التي قضيتها إلى جانبه، لا أذكر أن من تصرف واحد من جانبه، كان نقياً دون مكر وبرئاً وعذباً، بلا حدود .. وقاسياً مع نفسه فقط وحين ينسحب إلى عزلته فإنه كان يفعل ذلك لإحساسه بالملامة المطلوبة منه قاسية وأن ساعاته محدودة وجاء (كيرون) (٣) عليه اللعنة - وحده .."

٣ كيرون: ناقل أرواح الموتى إلى هيدس - عزرائيل، توفي الكاتب عام ١٩٥٧.

زهرة شبابيه نعم، فقد كان الوقت الذي مات فيه هو الوقت المناسب للإزهار والإثمار بالنسبة لكل ما بدأه، ذلك الرجل الذي أحببته والذي أحبك صديقك (نيقوس كازانتزاكي)" ١٥ حزيران ١٩٦١.

هيلين.ن. كازانتزاكي

شاء قدر كازانتزاكي أن يحمل آمال شعبه في الحرية والطموح إلى المجد المؤسس على تاريخ عريق وكان بحق أحد المناضلين الكبار من أجل حرية اليونان، وكانت حياته ملحمة حب وحرية، ويشعر القارئ في كل ما كتب دفع العلاقات الإنسانية كما يحس بعبق اليونان المجيد .... ورغم الطعم الفكري والروحي واليوناني، يجد القارئ أيًا كانت جنسيته أو فكره أو عقيدته، يجد نفسه بين سطور كلماته صورة إنسانية صادقة التعبير.

إنه في كل ما أبدع إنسان مترفع.. وجوده مشروع إنساني يختاره بوعي ويفرضه والحياة عنده قبول للتحدي .

يتساءل: ماهو واجنبا؟ ويجيب: أن نقف أمام الهاوية بكبرياء.

آثر أن يكتب على شاهد قبره في جزيرة كريت

" لاأهاب شيئاً

لا ألمع في شيء،

إنني إنسان حر"

وافته المنية عام ١٩٥٧

من أعمال الكاتب :

"الأوديسة" ملحمة حاكي فيها هوميروس.

زوربا اليوناني - رواية

المسيح يُصلب من جديد - رواية ترجمة شوقي جلال- القاهرة، رسالة إلى غريكو

تقرير إلى غريكو) سيرة ذاتية ترجمة- معدوح عدوان.

الإغواء الأخير للمسيح- ترجمة - إسامة مفزليجي.

الإخوة الأعداء- رواية ترجمة اسماعيل المهدي - القاهرة.

□□



## المراجع والمصادر:

- ١- كازانتزاكي- تقرير إلى غريكو- ترجمة معدوح عدوان، دار ابن رشد للطباعة والنشر ج١- ط١- ١٩٨٠، والجزء الثاني الطبعة الأولى ١٩٨٣.
- ٢- كولن ولسون- الشعر والصوفية- نشر دار الآداب - بيروت - الطبعة الأولى- ١٩٧٢.
- ٣- كازانتزاكي - زوربا اليوناني - ترجمة جورج طرابيشي - منشورات دار الآداب، ط١ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٥.
- كازانتزاكي:
- ٤- المسيح يصلب من جديد- ترجمة شوقي جلال - مراجعة دكتور نعيم عطية- الهيئة المصرية العامة- للتأليف والنشر - ١٩٧٠.
- ٥- كازانتزاكي - الحرية والموت، رواية ترجمة سعد زغلول نصار، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.
- ٦- كازانتزاكي - الإغواء الأخير للمسيح رواية ترجمة .. أسامة منزلجي - دار المدى للثقافة والنشر ١٩٩٥،

## هوامش

- ١- تقرير إلى غريكو- ترجمة: معدوح عدوان، ج٢/ص ٢١٦.
- ٢- المصدر نفسه، ج١ ص ٤٤.
- ٣- الشعر والصوفية - دار الآداب، بيروت، ص ٢١٧.
- ٤- تقرير إلى غريكو، ج٢ ص ٥٢ / ٢١٧.
- ٥- المصدر نفسه ج٢ / ص ١٩١.
- ٦- المصدر نفسه ج٢ / ص ٢٣١.
- ٧- المصدر نفسه ج١ / ص ٩.

□□



## غابريل غارسيا ماركيز " ١٩٢٨ - ؟ م "

### " واجب الكاتب الثوري أن يكتب جيداً "

المبدعون هم الذين يسعون إلى القاعدة العريضة للحياة التي هي الناس أما المدعون فيريدون من هذه القاعدة أن تزحف إليهم.. ويكبر المبدع بقدر ما يذهب إلى الناس لينتقل بهم إلى العوالم التي يريد... ومن هؤلاء الكبار الروائي الكولومبي العالمي (غابريل غارسيا ماركيز)، ومن النادر أن يؤثر كاتب في حياته بالآخرين كما أثر هذا العملاق.. الذي قاده إبداعه لأن يصبح في فترة قصيرة في مصاف المبدعين الذين تميزوا بطرائقهم الخاصة في تناولهم للواقع..

ولد ماركيز عام ١٩٢٨، في مدينة (أركاتكا) بكولومبيا وهي مدينة صغيرة من مدن المنطقة الحارة الضائعة بين البحر وكتبان الرمال وفيها أنهى دراسته الابتدائية، وكان شغوفاً بحكايات جده وجدته اللذين نشأ في رعايتهما.. يقول ماركيز عن جده: " كان رجلاً عظيماً وهو أهم من أثر في تكوين شخصيتي، مات وأنا في الثامنة أما جدتي فكانت مذهشة رأيتهما دائماً في ثوب الحداد وكانت تسكنها حكايات خرافية أيقظت مخيلتي، لم يحدث أي أثر هام في حياتي بعد الثامنة. كل ما أثر في تكوين شخصيتي كان قبل ذلك.

شهد ماركيز الخراب الذي حلّ بقرية، والعزلة الباردة التي أطاحت أعز الناس إليه: جده وجدته.. شهد شحوب وتبدد عالمه القديم فلم ينس أن يعود إليه عامراً بالحنين والدهشة.

فكتب عمله الكبير " مائة عام من العزلة " الذي «زج فيه الواقع بالخيال.. لقد كان الزمن هو الأقوى فبعد تقلبات كثيرة عاد، فمحا كل شيء..

وعندما أغلق دكتاتور بلاده الصحيفة اليسارية التي كان عضواً في هيئة تحريرها، انتقل مورد رزقه فانغمس بلهفة في الحياة الثقافية وبدأ يطوف بين عواصم العالم إلى أن استقر به المقام في باريس فمارس أعمالاً عديدة، وعرف الفقر على حقيقته وهنا يقول: "... لم أكن أعرف الفرنسية فصرت أجمع الزجاجات الفارغة وأبيعها، وأقوم بتوضيب الصحف.. كنت

أدافع عن حياتي وقد ظللتُ ثلاث سنوات طوال أعيش المعجزة اليومية، بينما تنمو في الأعماق المראה الهائلة..".

وبعد ذلك انتقل إلى (كاركاس) وربطته علاقة وثيقة بالناشر الكوبي (فيديل كاسترو) كما ربطته علاقة مماثلة بالناشر العالمي الشهيد (تشي غيفارا) وانتقل عام ١٩٦١م إلى المكسيك وبقي الأمر كذلك حتى عام ١٩٦٧ حيث نفى نفسه طوعاً إلى (برشلونة) طالباً الهدوء الضروري الذي يستطيع معه مواصلة إبداعه، ولكن ذلك لم يبعده عن وطنه (كولومبيا)، يقول: غادرت الوطن ولكنني مازالت أحياء في (كولومبيا)...

يُعلل ماركيز سبب محبته الإقامة في برشلونة " بأن حركة حياتها مطردة ودفعها إنساني وهي مدينة منفتحة على البحر والعالم وفيها كل الأفكار الحافزة للطموح وكلما مرّ زمنٌ ازداد شعوري بالارتياح كما لو أنني في بيتي، فيها شعرت بالحرية وحين يشعر الكاتب بالحرية فإن خير ما يفعله أن يستريح إلى الكتابة.. ويعلل ماركيز السبب الخفي لاختياره برشلونة مكاناً لإقامته في أنه يعود إلى تعرفه على القشتالي (رامون فينييس) في كولومبيا وهو طفل وكان (فينييس) يملك مكتبه مليئة بالمجلدات القديمة يومها - يتذكر ماركيز - " دخلت المكتبة طلبت كتاباً لاحظ صاحب المكتبة، أن الكتاب لا يُناسب سنّي، وقال: "عُد متى انتهيت منه وافقت، قرأت الكتب التي نصحتني بها هذا القشتالي.. قرأت الكتاب الكلاسيكين، وكنت شديد الحماسة لقراءة "كافكا" و"جويس". وكانت لغتي حينئذ سيئة مفرطة الزخرف عصية على الفهم، فنصحتني (فينييس) النصيحة الجوهرية التالية:

"حاول أن تكتب كما تتحدث إذا فهمنا حديثك فأجدر بنا أن نفهم ماتكتب ومن يومها عرفت نفسي جيداً.. ولم أندم على ولادتي، برجى الحوت وزوجتي "مرسيدس" وهما أبرز حدثين في حياتي فبفضلهما وإلى اليوم على الأقل نجحت في مقاومة الصعوبات التي اعترضت حياتي الأدبية.."

وحين عاد إلى باريس بعد سنوات قال: "لم تتغير باريس.. أنا الذي تغيرت.. ولو بحثت عن عمل لحصلت عليه، على أنني لو لم أعش سنوات العذاب تلك، لما كنت الآن كاتباً، هناك تعلمت أن لأحد يموت جوعاً. وأن المرء قادر على العيش تحت الجسور.."

وماركيز المبدع الكبير لا ينفصل عن قضايا عصره الملحة فهو يقول في حوار له مع مجلة (الكريمس) العدد (٣) صيف ١٩٨١: "أنام العرب سُجنت في فرنسا أيام حرب التحرير الجزائرية.. أنا مع فلسطين طوال العمر..".

وفي عام ١٩٨٣ دُعي "ماركيز" لزيارة بلده كولومبيا من قبل رئيس الجمهورية وكان هذا على استعداد لاستقباله في المطار.. فجاء رد الكاتب بالرفض لهذه الدعوة، إلا إذا أقدم الرئيس على الإعلان عن إطلاق الحريات في البلاد وعودة الديمقراطية..".

إن هذه المواقف وغيرها تثبت وعيه الكامل لما يدور حوله من أحداث والتزامه الثوري بقضايا شعبه.. ولم تستطع حكومة بلاده الالتفاف حول قلمه الجريء.. لم تستطع تطوير أفكاره وبقي يتعامل مع الكلمة بمسؤولية ونزاهة وشرف حتى صار له من بلاده ومن أبناء الشعب الأخرى هذا الحب..

وحين سئل عن معونة مادية تقدمها له حكومته إذا شاء وهي الحكومة التي لا يثق بها كان رده: أعتقد أن معونة مادية لا تتصل بمهنة الكتابة تعرض استقلالية الكاتب للخطر، والحرية قضية أساسية في تعديل قدرة الكاتب، كما أنني لأشارك في إجراءات دعائية لبيع كتبي لأن العمل، الشريف الوحيد الذي يجب أن يقوم به الكاتب حتى تروج كتبه هو أن يكتبها جيداً وأستطيع أن أخدم وطني دون أن أخدم حكومته بترفعي، بأن أتابع الكتابه مترفعاً... ما يعني هو أن أكتب روايات لأن أنشرها..".

### من الصحافة ... إلى الرواية

اضطر ماركيز أن يعمل كي يعيش في الصحافة التي يرى أنها "جرح لا يرحم" يمتص حيويتنا الخلاقة حتى آخر نقطة دم في عروقنا.. غير أننا لن نتعرف ميداناً مثلها يتغف مشاعرنا ويوقظنا على الحدث اليومي.."

وعندما استطاع تأمين عيشه ترك الصحافة إلى الرواية مومنًا أن الانطلاق من الصحافة نحو الأدب يفترض الاستقصاء والانتقاء والتأمل والتأليف، وبالتالي الجهد والصبر والشجاعة لأنه ليس عملاً صناعياً يولد في أنبوب تجربة دون أن يشارك في ظروف الحياة ومآسيها..

### كيف أكتب؟

كان عليّ أن أخضع لنظام شنيع حتى أنهي كتابة نصف صفحة في ثماني ساعات، كنت أصارع كل كلمة وتنتصر عليّ الكلمة على أنني عنيد إلى حد استطعت معه نشر أربعة كتب في عشرين سنة، ويتقدم عملي في الكتاب الذي أولفه ببطء على خلاف الأمر في الكتب السابقة، ذلك أن ساعات راحتي قليلة بالقياس إلى الأوقات التي يتنازعها الدائون وينهشها الألم العصبي، لا أفكر خلال الليل والنهار إلا بما أكتب، أحدث به أصدقائي الحميمين ممن يتفهمون نفسياتي ولكنني لا أقرأ عليهم سطرًا واحدًا منه.. لا أدون الملاحظات إطلاقاً إلا

بعض الإشارات إلى برنامجي اليومي، فقد علمتني التجربة أننا إذا قضينا الوقت نفكر في الملاحظات المدونة نسينا الكتابة ومسار الكتابة. (١).

إن انتشار الأدب الرخيص يعرقل المسيرة نحو الاشتراكية .. وإن إسهامنا في دفع عجلة تقدم بلادنا يكون ليس بكتابة روايات حسنة الشكل فحسب، بل إذا كتبنا روايات ذات مضمون واعتقد أن واجب الكاتب الثوري أن يكتب جيداً ذلك هو التزامه ..

إن دور الأدب في التعبير محدود ولكنه يعرف أن يترك أثراً في أقل الناس تفاعلاً مع الحياة ولذلك فإن الخيال المبدع والكتابة الفنية، يسليحان الناس بالأمل والقدرة على التهكم والإدانة ..

## ماركيز والقارئ

لأن ماركيز يحترم القارئ يترك له حرية التأويل فهو ليس لجوجاً ولا يتلهى بعرض أفكاره، ولكنه يمر بها سريعاً يكتبها بأسلوب جري، مرج تاركاً في الوعي محسولاً مشيراً لأن الناس وخاصة الفقراء كما يقول ماركيز: "في غير حاجة إلى أن نظل نروي لهم مأساة الاضطهاد والظلم فهم يعرفون تفاصيلها غيباً، ما ينتظرونه من الرواية أن تكشف لهم جديداً .."

يقول (ماركين) لا تعجبني الفكرة التي لا تقاوم الإهمال طويلاً وفكرة روايتي (مائة عام من العزلة) قاومت الإهمال سبعة عشر عاماً فكرت فيها طويلاً إلى حد استطيع استعادتها مرات وجهاً وظهرها كما لو كانت كتاباً قرأته من قبل .. أصعب أمر عليّ أن أكتب المقطع الأول وقد يستغرق ذلك شهوراً بل سنوات حتى أكتبه جيداً فإذا كتبته استطعت أن أقرر إذا كان للقصة مستقبل .." (٢).

## مائة عام من العزلة.. بداية من القمة

عاش ماركيز فقيراً لكن متفائلاً حتى عام ١٩٦٧ حين نشرت روايته (مائة عام من العزلة) فجعلت منه مليونيراً شهرةً ومالاً، قال عنه أحد الكتاب الإسبان: إن من يعيش على سجيته ولا يسعى إلى الدعاية قلماً يثير اهتمام الآخرين .. لبرشلونة أن تفخر أن يكون هذا الذي، باب مرافئ العالم قد اختارها لإقامته ولكن بلدنا لا يفخر إلا بالتواضع، وإنه لشرف عظيم لأي بلد في العالم أن يكون بين قاطنيه كاتب "مائة عام من العزلة" هذه الرواية عندما صدرت اعتبرها نقاد كثيرون مازقاً لماركيز لا يمكنه الخلاص منه عندما يُصدر رواية أخرى واعتبروا الفكرة المخترعة (ماكوندو) سرداً لن ينجح في الخروج منه، لكن (ماركين) الحيوي

القادر على تجاوز نفسه وتجديد أسلوبه قد أكد أنه ليس من المبني لا مخرج منه وقال : " إذا لم تنتشر الرواية الثانية كما انتشرت الأولى (مائة عام...) تعادلت هبة أخرى، وإن قد كتب روايته اللاحقة ( خريف، البطريق ) بحوالي خمس سنوات ، بينما استغرقت في روايته الأولى تسع عشرة سنة .

"مائة عام.." رواية تسرد حكاية قرية (ماكوندو) استوحاها الكاتب من قرية (آران سا) مستط رأسه ، فعل ذلك كي يحرر القرية من وضعها الخاص كنقطة على الخريطة لتصبح حالة إنسانية فهي إذن صورة للعالم أو معادل أو رمز لتاريخ البشرية كما يتناول القاد .

كان لماركيز من قوة التأثير حيث يعود كل قارئ لروايته هذه إلى مشاهد طفولته، ويشعر أنه يعرف شخصياتها بحيث يمكن لكل واحد أن يقول " إن قريتنا أيضا ، به قوة ماركيز المتخيلة التي فشلت في الاحتفاظ بماضيها، كما فشلت في مواجهة الحاضر رخيخ . من الزمن بالموت والجنون والدمار، لأن الأجانب لم يكونوا وحدهم أعداء ( ماكوندو) بل شارب لها من نفسها أعداء آخرون...

لقد صارت قرية (ماكوندو) قرية كل المذبذبين في الأرض لقد حمل ماركيز فريته إلى العالم وما أجمل أن نرى مبدعاً عربياً يجعل من قريته قرية عالمية خلال عمل إبداعه

إن الرواية عمل قادر على زلزلة كل من يقرؤه .. فحين سئل الكاتب " ابنته ماذا " هل قرأت " مائة عام من العزلة"؟ ما رأيك فيها ؟ قال : " لقد أذهلتني وهزئتني إلى درجة ساعد فيها النظر برواياتي كلها" ترجمت هذه الرواية إلى العربية في نهاية السبعينيات . ولها مستويات مختلفة لم يتكهن بها المؤلف من قبل فكل فئة تقرؤها بطريقتها الخاصة . قال المؤلف عن روايته هذه : " إن قيمة مائة عام.. في أنني تجرأت على كتابتها . أنني كتبتها" كنت أحمل موضوع هذه الرواية في أعماقي منذ سنين .. حاولت أن أعبر عنها مرات غير أنني شعرت أنني غير مهيأ للكتابة ، فأجلته .. كان بين الموضوع وبين إدانته الكتابية الهزيلة مدى كبسة جناحي طائر ثم وجدتني يوماً واقفاً من نفسي . ثم كتبت كما لو أن هاجساً هيم علي.. ظلت أكتبها طوال سنين كل يوم منذ الصباح حتى الغد.. كان علي أن أهزم الخوف وأن أنسى محاولات السابقة الفاشلة، وأن أكون الأصدقاء الذين قدموا المساعدة لي " آل ماركيز".

هكذا كتب هذا الروائي الكولومبي " مائة عام من العزلة " التي كانت مسودة بحريته العالمية وأصبحت كند، الأخرى تباع بفضل هذا العمل، يشتريها قراء معنيون بالأدب أينابعا تطور الكاتب الذي بلغ مصاف عباقرة الرواية من خلال سيطرته على اللغة، إضافة إلى قدره العميق الذي أدرك بسرعة أن أصعب مشكلة :

هي أن يهدم الخط الفاصل بين الواقعي والوهمي وكانت صعوبة اللغة مشكلة أساسية، فالحقيقة لا تبدو حقيقة لأنها كذلك ببساطة، بل بفضل الصيغة التي تُصاغ بها، كان عليّ أن أعيش عشرين عاماً بعد ذلك، وأؤلف أربعة كتب لأكتشف أن مفتاح الحل، كان في أساس المشكلة: وهي أن أروي القصة ببساطة كما لو كان الجدّان يرويانها بلهجة رتيبة ورباطة جأش أمام المحنة وصفاء لا يتغير ..

كان العجوزان يبدوان كما لو أنهما عرفا:

" أن ليس ما يقتنع في الأدب أكثر من الاقتناع الذاتي.."

- خرج ماركيز على العالم عام ١٩٧٥ برواية ( خريف البطريق ) المشغولة جيداً، وهي نشيد مذهب ضد الدكتاتورية، نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢.

يقول ماركيز: " لن أنسى ما حييت أنني واحد من ستة عشر طفلاً لأب يعمل في إدارة الهاتف في بلدة " أركاتاكا".

إن كاتباً مثل "ماركيز" وقبله " رسول حمزاتوف" جعلنا نعي من جديد أهمية النماذج الشعبية ونكتشف من جديد الحيوية الكامنة في حكايات الأجداد.





## المراجع والمصادر:

- ١- ميغيل فرناندز- براسو- عزلة ماركيز- دار الكلمة للنشر - طبعة ثانية - ترجمة فاديا ظافر شعبان..
- ٢- أحاديث غابرييل غارسيا ماركيز- حوار بلينو ميندوزا- ترجمة إبراهيم وطفي- دار طلاس للنشر - دمشق - طبعة أولى، ١٩٨٦م.
- ٣- الأديب وصناعته - ترجمة جبرا إبراهيم جبر- المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٢، ١٩٨٣م.
- ٤- ذات الكاتب الابداعية - خرايتشكو، ترجمة: د. نوفل نيوّف وعاطف أبو حمزة - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق، ١٩٨٠م.
- ٥- مجلة (المعرفة) عدد (٢١٧) آذار ١٩٨٠ مقال عن (خريف البطريق).
- ٦- مجلة (الكرمل) عدد (٣) صيف ١٩٨١- إكرام الإنطاكي .
- ٧- دكتور شاكر مصطفى - الأدب في البرازيل - سلسلة عالم المعرفة/ الكويت، أيار (مايو) ١٩٨٦م.

---

## هوامش:

- ١- ميغيل براسو - عزلة ماركيز - دار الكلمة للنشر - بيروت، ط(٢)/١٩٨٣/ص٤٣.
- ٢- المصدر نفسه /ص١١٣.





## تَـنْـوِيـه :

كثير من الشكر عليّ أن أقدمه لكل من قرأ المخطوط، وأبدى ملاحظاته القيّمة.  
وأخص بالذكر الأستاذ "اسماعيل المحم" الذي أفدتْ من ملاحظاته الدقيقة.





## محتويات الكتاب:

مدخل " ..... ٥

### الباب الأول: فن أعلام العرب

الفصل الأول: أعلام قديماء ..... ٩

• عمر بن الخطاب ( ٥٨٥ - ٦٤٤ م ) ..... ١١

• أبو ذر الغفاري ..... ٢١

• الجاحظ: فارس العقل والحرية (٧٧٥-٨٦٨ م/ ١٥٩ - ٢٥٥ هـ) ..... ٣١

• ابن خلدون ( ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م ) ..... ٣٩

الفصل الثاني : أعلام محدثون ..... ٤٩

• عمر فاخوري (١٨٩٥-١٩٤٦) ..... ٥١

• جبران من رواد الحداثة ..... ٥٩

• الدكتور محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥) ..... ٦٩

• طه حسين: ( ١٨٨٩-١٩٧٣ ) ..... ٧٧

### الباب الثاني: من أعلام الغرب

الفصل الأول : أعلام قديماء ..... ٨٧

• سقراط أول شهداء حرية الفكر (٤٧٨-٣٩٩ ق.م) ..... ٨٩

• فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) ..... ٩٥

• جان جاك روسو ( ١٧١٢ - ١٧٧٨ م ) ..... ١٠٣

الفصل الثاني : محدثون ..... ١١١

• برنارد شو ( ١٨٥٦ - ١٩٥٠ ) ..... ١١٣

• هيلين كيلر ( ١٨٨٠-١٩٦٨ ) ..... ١٢٥

• لويس باسستور (١٨٢٢-١٨٩٥) ..... ١٣١

• مكسيم غوركي ( ١٨٦٨-١٩٣٦م) ..... ١٣٩

• كازانتزاكي (١٨٨٥-١٩٥٧) ..... ١٤٩

• غابريل غارسيا ماركيز (١٩٢٨-؟ م) ..... ١٦١





رقم المراجع في مكتبة الأسد الوطنية :

هكذا يصنعون أنفسهم: شخصيات ومواقف / فوزي معروف - دمشق : اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٧-١٧١' ص ؛ ٢٤ سم .

٢- العنوان

١- ٩٢٠ ع م ع ر ه

٣- معروف

مكتبة الأسد

ع: ١٩٩٧/٧/١١٠٨

□□











السعر خارج الفطر ٢٠٠ ل. س